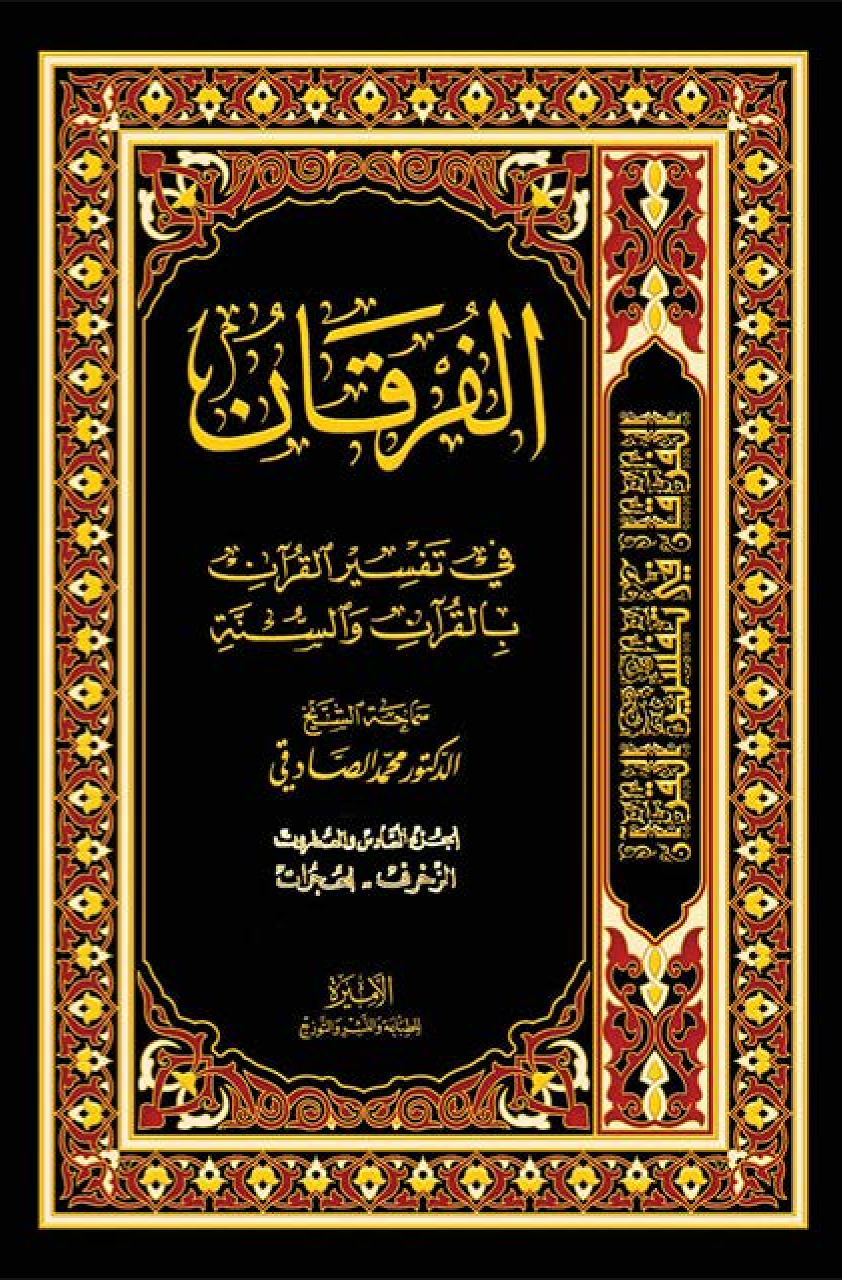


الفرقان
في تفسير القرآن
بالقرآن والسنة
سماحة الشيخ
الدكتور محمد الصادقي
الجزء السادس والعشرون
الزخرف - الحجرات
الأميرة
للطباعة والنشر والتوزيع

الفرقان

في تفسير القرآن

بالقرآن والسُّنة

الفرقان

في تفسير القرآن

بالقرآن والسُّنة

الجزء السادس والعشرون



سماحة الشيخ

الدكتور محمد الصادقي

٤٣

تتمة

سُورَة الزُّخْرُف

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى
فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ
﴿٢٨﴾ بَلۡ مَتَّعۡتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ وَرَسُولٞ مُّبِينٞ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا
جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا
ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ نَحۡنُ
قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِى ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ
لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوۡلَآ
أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ لَّجَعَلۡنَا لِمَن يَكۡفُرُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ لِبُيُوتِهِمۡ سُقُفٗا
مِّن فِضَّةٖ وَمَعَارِجَ عَلَيۡهَا يَظۡهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمۡ أَبۡوَٰبٗا وَسُرُرًا عَلَيۡهَا
يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخۡرُفٗاۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَٱلۡأٓخِرَةُ
عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا
فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمۡ لَيَصُدُّونَهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ
﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيۡتَ بَيۡنِى وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ
﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ إِذ ظَّلَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ فِى ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾
أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ أَوۡ تَهۡدِى ٱلۡعُمۡىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٤٠﴾
فَإِمَّا نَذۡهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنۡهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوۡ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدۡنَٰهُمۡ فَإِنَّا
عَلَيۡهِم مُّقۡتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيۡكَۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ

﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾﴾:

اذكروا أنتم المهتدون على آثار آبائكم المشركين تقليداً أعمى، اذكروا من زوايا التاريخ الرسالي بطولات الموحدين ورجولاتهم ضد الآباء المشركين «و» اذكروا من بين هؤلاء الأكارم «إبراهيم» وقد تربى في جوّ الشرك على يدي أبيه آزر ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ عصياناً جريئاً على جو الشرك رغم أنه تربى فيه، حيث يحاج أباه: عمه أو جدّه لأمه - حجاجاً بالتي هي أحسن فيتغلب عليه! وأنتم دون حجاج مع آبائكم على آثارهم تهتدون! رغم تواتر الحجج ضد أمتهم الشركية؟!

وهب أن تقليد الآباء جائز أو يجب، أفليس إبراهيم أكرم الآباء في العرب فلتقلدوه في ترك تقليد الآباء، ثم تقلدوه في أمة التوحيد واتباع الحجة على المحجة التي بها تهتدون؟

ثم هب أن لتقليد الآباء مبرراً لأنهم آباء يحترمون، فهل الآباء القدامى أقرب إليكم فأوجب حرمة وأقرب وطأة إن تركتموهم؟ أم الأب الحاضر دون فصل حيث يربيك ويحملك على ما يريد؟ وإبراهيم مسيطر عليه بأب مشرك يصنع الأصنام، ويهدده في ترك الأصنام، ولكنه يرفض باطل التقليد ولا يخاف ضغط المربي، ويتفجر في وجهه بجدال بالتي هي أحسن سلباً للآلهة وإيجاباً لله.

أم أن للقدمة حرمتها، فالقدامي يحترمون لأنهم قدامى أكثر من الجدد، ولماذا؟ أو لم يكن القدامى قبل ردحٍ من الجدد، أم لا يكون الجدد بعد

ردح قدامى، ثم ومن أكارم القدامى إبراهيم أبو العرب فليحترم - على أقل تقدير - لقدمته إضافة إلى حجته!

هنالك تقليد مطلق أعمى دون أي دليل بإجمال أو تفصيل، ثم تقليد بصير بدليل مجمل، ومن ثم اجتهاد مطلق أماذا؟ وسبيل الحق هو التقليد بدليله، أم إذا استطاع اجتهاد مطلق بدليله.

وكيف يصح للإنسان العاقل أم والمجنون أن يرجح سبيلاً على سبيل دون أي دليل؟ وإذا كان سلوك الآباء دليلاً وليس به، فماذا يصنع بآباء مختلفين في سبلهم؟ فهل ترجح آباء على آباء دون أي دليل إلا أنهم آباء، أفليس الآباء الآخرون آباء! أم ليس أبوكم الأكبر إبراهيم من الآباء؟ فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون؟.

إبراهيم يتربى في جو ممحض في الشرك، ولكنه لرفضه التقليد وتحرِّيه عن دليل يواجه أباه المشرك وهو ﴿بَرَآءٌ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ﴾: محض البراءة عن الشرك، حيث البراء مصدر، فهو براءة عن الشرك ومصدر لهذه البراءة، رغم تربّيه في محض الشرك!

فإبراهيم البراء مما يعبده هؤلاء ويترأسهم أبوه، لا يتابع أباه ولا يسايره لحظة ولو في ظاهر الحال، إنه محض البراء وصراحه، لا يحاري ولا يداري ولا يجاري أباه في لفظة قول، أو لحظة بصر، أو لمحة فعل إلا ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ﴾.

﴿إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ ٢٧﴾:

﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ٢٦ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ خلقني وجعل فيَّ فطرة التوحيد ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ﴾(١) هذه الفطرة فيها الهداية

(١) سورة الروم، الآية: ٣٠.

الإجمالية التوحيدية، ثم الذي فطرني في هكذا ﴿سَيَهْدِينِ﴾ هداية الوحي تكملة تفصيلية لهدي الفطرة لمن جاهد في الله ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[١] وبين الهديين هدى متوسطة ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾[٢] أترى أنّ ذلك المشرك كان والده والأنبياء هم من أصلاب طاهرة وأرحام مطهرة وأية دناسة أدنس من الإشراك بالله؟

كلّا: إنه كان عمه أو جده لأمه ولم يكن والده، إذ تبرأ عن أبيه آزر لما تبين أنه عدو لله، ثم وهو يبني البيت مع ابنه إسماعيل يستغفر لوالده: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾[٣] فحتى إذا لم يكن إبراهيم معصوماً - وهو من أفضلهم -! لم يكن ليستغفر لأبيه آزر، فاستغفاره لوالده يدلنا أنه غير آزر، وإلا كذب كلام الله «تبرأ منه» حيث يبرئه عن ذلك الاستغفار طول حياته.

﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾:

دون أن يكتفي بحاضر النضال! ترى وما هي الكلمة الباقية في عقبه؟ هل أنها الأولى: ﴿بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾؟ ولا تكفي توحيداً لله حيث تحمل الرفض المطلق لعبادة كل معبود حتى الله! أم هي الثانية: ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾: عبادة الله؟ وهي دون صلة بالكلمة الأولى بتراء وقد تحمل عبادة الله مع غيره، أم دون نفي مطلق لمن سواه!

إذاً فهي كلا النفي والإثبات: كلمة ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ فـ ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ تعني «لا إله» و﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ تعني «إلا الله» مزودة بدليلٍ فطري: ﴿الَّذِي فَطَرَنِي﴾ لا «الله» فقط، وآخر من هدي الفاطر ﴿فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾!

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٦٩.
(٢) سورة الشعراء، الآية: ٧٨.
(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٤١.

ولماذا ﴿فَطَرَنِي﴾ دون ﴿فَطَرَ ٱلنَّاسَ﴾ كما في آية الفطرة؟ حيث الفطر درجات، منها المستورة بظلم الشرك والضلال، ومنها مشرقة في درجات متوسطة، ومنها ما هي في درجات عليا كالفطرة الإبراهيمية، إذاً فحقّ له «فطرني».

ولأن معنى الإشراك بالله هو أن يعبد غير الله مع الله كيفما كانت هذه وتلك فـ ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ استثناء متصل بـ ﴿مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ أم وإذا كان منفصلاً وعلّه أنسب، حيث إن عبادة الله بين المشركين لا تليق بالله، فـ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ هي المعنية من الكلمتين السلبية والإيجابية وهما كلمة واحدة تامة.

وبطبيعة الحال ليست هذه الكلمة الباقية هي الأصوات المقطعة والحروف المنظومة فإنها لا تبقى وهي ﴿كَلِمَةً بَاقِيَةً﴾ ثم ماذا تفيد هذه الكلمة لولا واقع المعنى والالتزام بها!

وهل الضمير المستتر في «جعلها» لإبراهيم لا لله؟ فهو مصدر الكلام هنا وركنه! وهو القائل ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ . . . إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾! وهو الموصي بها بنيه: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾(١)! فقد وصى بها ولده وأمرهم أن يتواصوا بها ما تناقلتهم الأصلاب وتناسختهم الأدوار!

أم لله دون إبراهيم؟ حيث الوصية ليست جعلاً، فقد تُخالف الوصية الإبراهيمية والجعل الباقي ثابت ليس بيد إبراهيم أم سواه إلّا الله! وإبراهيم وإن كان مصدر الكلمة هناك، ولكنما الهداية الإلهية فيها ليست له إلا من الله: ﴿فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾ فضلاً عمن سواه من عقبه وهو لا يملكهم بعدَ ألّا يملك نفسه!

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٣٢.

أم المعنيان معاً معنيّان، فقد جعلها الله كلمة باقية في عقبه حتماً لا حول عنه، ولكن بما زرعها إبراهيم في القلوب بأمر الله، وبما دعى الله ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾[(١)] ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾[(٢)] فإبراهيم عليه السلام عمل لله ودعى الله في بقاء كلمة التوحيد فجعلها الله كلمة باقية في عقبه: نسله وذريته، فلا يخلو نسله عن موحدين إلى يوم الدين.

ثم ومن أبرز الموحدين من نسله أئمة التوحيد وحملته الأعلون محمد صلى الله عليه وآله وسلم وعترته الأطهرون، وإلى ذلك تنظر الروايات التي تفسر هذه الكلمة بالولاية العليا والعصمة الكبرى[(٣)] لا أنها هي المعنية دون سواها، وإنما هي المصداق الأجلى الحملة الإبراهيميون لكلمة التوحيد، حيث حملوها أعرق وأعمق مما حملها إبراهيم عليه السلام!

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٣٥.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٢٨.

(٣) نور الثقلين ٤: ٥٩٦ ح ٢٣ وفي كتاب علل الشرايع بإسناده إلى أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾ [الزّخرُف: ٢٨] قال: في عقب الحسين عليه السلام فلم يزل هذا الأمر منذ أفضي إلى الحسين ينقل من ولد إلى ولد لا يرجع إلى أخ وعم ولم يتم بعلم أحد منهم إلا وله ولد، وفيه عن معاني الأخبار عن أبي بصير قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن هذه الآية قال: هي الإمامة جعلها الله عزّ وجلّ في عقب الحسين باقية إلى يوم القيامة: وفيه عن الاحتجاج للطبرسي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم حديث طويل يقول فيه في خطبة الغدير: معاشر الناس القرآن يعرفكم أن الأئمة من بعده ولده وعرفتكم أنه مني وأنا منه حيث يقول الله عزّ وجلّ: ﴿كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾ وقلت: لن تضلوا ما أن تمسكتم بهما، وفيه عن المناقب لابن شهرآشوب الأعرج عن أبي هريرة قال سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن هذه الآية قال: جعل الإمامة في عقب الحسين وسيخرج من صلبه تسعة من الأئمة منهم مهدي هذه الأمة، وفي أحقاق الحق ج ١٣ ص ٣٠٦ العلامة الشيخ هاشم بن سليمان في كتاب المحجة على ما في ينابيع المودة ص ٤٣٧ اسلامبول روى حول الآية عن ثابت الثمالي عن علي بن الحسين عن أبيه عن جده علي بن أبي طالب عليه السلام قال: فينا نزلت هذه الآية وجعل الله الإمامة في عقب الحسين إلى يوم القيامة وإن للغائب منا غيبتين إحداهما أطول من الأخرى فلا يثبت على إمامته إلّا من قوي يقينه وصحت معرفته.

فليست هنا بين الآيات لفظة الولاية حتى يرجع إليها ضمير «ها» في «جعلها» وإنما ما قالها إبراهيم المختصرة المحتصرة في: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾! المتدرجة في درجات حسب درجات الموحدين!

ومن في عقبه الموحدون درجات أعلاهم أئمة التوحيد الأعلون محمد ﷺ وخلفاؤه المعصومون عليهم السلام، وكما التمس لعقبه الإمامة فاستجيب لغير الظالمين ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1].

وقد تعني روايات الولاية أن «ها» في «جعلها» راجعة إلى الهداية الإبراهيمية و﴿فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾ الضاربة إلى المستقبل تعني هداية الولاية والإمامة الإبراهيمية، بعد هدايته قبلها بالوحي ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ فتلك الهداية المستقبلة باقية في عقبه في مثلثٍ من ١ - هدى موسى وعيسى التي علّها كهدي إبراهيم وإمامته، ٢ - ومن هدى من دونهم من الأنبياء الإبراهيميين كأنبياء بني إسرائيل وإسرائيل نفسه وأضرابه، ٣ - ومن هدي من فوقهم كلهم وإمامته، كالهدى المحمدية ﷺ الثابتة في أهل بيت هذه الرسالة السامية إلى يوم الدين ف «عقبه» يشمل العقب العام: كل من يأتي بعد إبراهيم عليه السلام من المكلفين حيث لا يخلون من كلمة التوحيد إلى يوم الدين، ثم العقب الخاص: ذريته من موحدين ومشركين، ثم الأخص: الأنبياء الإبراهيميون من إسحاق وإسماعيل، ثم أخص الخاص: الرسول محمد ﷺ وآله المعصومون، و﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ يخص العقب الأول والثاني.

وعلى أي الحالين فهذا وذاك من التأويل والتفسير بأعلى المصاديق وأجلاها دون منعة لسعة الكلمة كلَّ موحدٍ من نسل إبراهيم إلى يوم الدين -

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٤.

و﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ في ترجّي رجوعهم إلى كلمة التوحيد تؤيد الشمول، فإن أئمة التوحيد هؤلاء لم يسبق لهم شرك حتى يرجعوا عنه إلى توحيد، فلعل «هم» في لعلهم يخص المشركين ممن في عقبه وسواهم وإن كان الصدر ﴿فِي عَقِبِهِ﴾ يزهر كأعلى مصداق في صدور المعصومين منهم وبينهما متوسطون أما ذا؟

﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ ﴿٢٩﴾﴾:

﴿بَلْ﴾ هنا إعراض عما علّه يفهم من ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ أن كلمة التوحيد جعلت عريقة عميقة ثابتة في عقبه، مندغمة في كيانهم لا يتخلفون عنها خلاف مَن قبل إبراهيم، فالرسل الإبراهيميون منذ إسماعيل وإسحاق وإلى موسى وعيسى ومن بينهم من الرسل وسائر دعاة التوحيد رفعوا مشعله وأناروا مناره دون خمول وأفول اتصالاً دونما انفصال.

﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ﴾ ولكن هؤلاء المشركون حيث مُتِّعوا وآباءهم وطال عليهم الأمد فقست قلوبهم زمن الفترة الرسالية بين المسيح ومحمد ﷺ . . هؤلاء من العقب الإبراهيمي تخلفوا عن تلك الكلمة الباقية وتعرقوا في الشرك، حيث طال بهم العهد ومتعهم الله جيلاً بعد جيل حتى طال عليهم العمر ونسوا ملة إبراهيم، وأصبحت كلمة التوحيد فيهم غريبة. . ﴿حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾ القرآن بعد غروبه زمن الفترة وجاءهم ﴿وَرَسُولٌ مُبِينٌ﴾ للحق أوضح بيان لحد لم يسبقه سابق، وكأن من سبقه من رسل لم يكن فيهم مبين وكلهم في حدّه مبين.

فهذا الرسول مبين بنفسه ومبين بكتابه ومبين بمعجزاته، مبين بمن قبله في بشاراته ومبين بشاهد منه في تربياته: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ

بِهِۦ مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥۚ فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُۚ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾[1]!

والضرورة البلاغية في رسالة هكذا، خالدة حتى القيامة الكبرى، بازغة في قوم لُدٍّ ما أتاهم من نذير من قبل، تقتضي هكذا حق ورسول مبين! ولكن: !

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ۝٣٠﴾:

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ﴾ قرآن محمد ومحمد القرآن ﴿قَالُواْ﴾ كلمتهم المختصرة عن تفاصيل أقاويلهم المحتصرة في ﴿هَٰذَا سِحۡرٞ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾! وليس الحق المبين يختلط بالسحر غير المبين، أو يبين بنفسه أنه سحر، ولا يختلف اثنان من ذوي حجي ومن دونهم في تمييز السحر عن المعجزة، ولذلك تراهم لا يعترضون ويتشككون في القرآن الذي يتقولون أنه سحر إلا فيمن جاء به:

﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ۝٣١﴾:

هنا الواو تعطف على معطوف عليه كالمعطوف مثل ﴿لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ﴾[2] ثم التنزل إلى هذا المعطوف، لو كانت النبوة في فـ ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ...﴾؟

فلم تبق من الريبة في هذا الحق إلا نزوله على يتيم غير ذي مال ولا منال، فلو نزل على رجل من القريتين عظيم لكانوا مصدقيه؟ أترى إن كان القرآن سحراً - فهو سحر أياً كان وبيد أيٍّ من الرسل كان - فهل يتحول السحر إلى المعجزة إن تحول من يد لا ترضونها إلى من ترضون، أم يتحول المعجزة إلى السحر لو عكس الأمر، تلك إذاً قسمة ضيزى!

(١) سورة هود، الآية: ١٧.
(٢) سورة فصلت، الآية: ١٤.

هؤلاء الحماقى المخلِدين إلى الحياة الدنيا وزهراتها وزهواتها، لما اختلت عندهم الموازين، ورأوا العظمة فقط في الجاه والمال وسائر قيم الأرض، استعظموا رسالة السماء أن تنزل إلا على عظيم في ميزان الأرض، عظمة خيالية وخارجة عن طبيعة الرسالة، بل ومنافية لها غير مواتية معها وقد اعتبروها أصلاً ومحوراً للتفاضلات فلتتّبعه فضيلة السماء ولكن ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾[1] يجعلها فيما لها سند من داخله، مسانداً لها غير معاند، الخليق المتجرد عن كافة العلاقات والصلات إلا بالله، فلم يختره زعيماً ولا صاحب مال أو منال، لكي لا تلتبس واحدة من قيم الأرض بقيم السماء، ولا تزدان هذه الدعوة بحُلية من حلي الأرض، أو حيلة مِن حِيَلها، دونما صلة بينهما إلا إغراء لها بمصاحب خارج عن ذاتها المجردة، فلا يدخلها طامع ولا يتنزه عنها متعفف.

فالدعوة الرسالية مجردة عن كل دعاية إلا الحقيقة البارزة من ذاتها، والحق البارز في دعاتها، حق يحمل حقاً ناصعاً صارماً إلى من يتحرى عن الحق المطلق، دونما تدجيل ودعاية زائدة تُظهر الرسالة بمظهر أعلى مما هي، كما لا تقصر فيها لتخفيها عما هي.

و﴿رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ هو الوليد بن المغيرة المكي وأبو مسعود عروة بن مسعود الثقفي الطائفي، أمن ذا من الزعماء الأثرياء ذوي الأنفة والكبرياء، ولو أنزل هذا القرآن على رجل منهما، لأصبحت الرسالة السماوية التي هي للمستضعفين في أصلها، أصبحت للمستكبرين، أن يجتلبوا أضرابهم إليها، أم ويخونوا في الدعوة لها، فإنها تناحر الأثرة والكبرياء، وتنافر المستأثرين الكبراء.

والقرآن يجيب عن هذه التطرفة الحمقاء، والتطلُّبة الخواء ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٢٤.

﴿رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ الرحمة التي ربتك حتى أصبح قلبك المنير مشرقاً، تلك الرحمة العليا الروحية من رسالة السماء، أهم يعرفونها حتى يقسموها، ولو عرفوها ولن! فهي رحمة ربك، فهو الذي يقسمها كما يشاء لمن يشاء فـ ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ فلا يجعلها في قلوب خاوية عن الحق، خاملة بالباطل، قلوب مقلوبة لا تتعلق إلا بزهرات الدنيا وشهواتها، فتضيع الرسالة فتجعل المرسل إليهم هباءً!

ويا عجباً وما لهم هم ورحمة ربك العليا أن يقسموها، وليس لهم أن يقسموا الرحمة الدنيا(١).

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢)﴾:

فهل إن الله يعجز أن يقسم رحمته الرسالية وهم قادرون؟ أو يجهل وهم عالمون، أو يبخل وهم لا يبخلون، أمّاذا من عطب أو نقص يقتضي أن يتوكلوا عنه قسمة رحمته دون توكيل ﴿أَهُمْ﴾ أولاء الحماقى الجهال، العجزة البخال، الأوغال البطال الرّذال ﴿يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾؟ ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وهم يتطلبون قسمة في الحياة العليا، فهم أولاء أهل الدنيا يجهلون قسمة معيشتهم الدنيا، فكيف يطلبون قسمة لمعيشتهم العليا؟! وتفصيل الجواب عن هذه الهرطقة نجدها في مناظرة الرسول ﷺ معهم(٢).

---

(١) الدر المنثور ٦: ١٦ - أخرج أحمد والحاكم عن ابن مسعود في قوله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٣٢] قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم وإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطي الدين إلا من يحب فمن أعطاه الدين فقد أحبه.

(٢) نور الثقلين ٤: ٥٩٧ ح ٢٨ في كتاب الاحتجاج عن أبي محمد الحسن العسكري عن أبيه عليه السلام قال: إن رسول الله ﷺ كان قاعداً ذات يوم بفناء الكعبة إذ قال له عبد الله بن أمية=

﴿نَحْنُ قَسَمْنَا . . وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ في المعيشة الدنيا لغاية أسمى هي في تنظيم حياتهم الدنيا عادلة عاقلة:

= المخزومي: لو أراد الله أن يبعث إلينا رسولاً لبعث أجل من فيما بيننا مالاً وأحسن حالاً فهلا نزل القرآن الذي تزعم أن الله أنزله عليك وابتعثك به رسولاً على رجل من القريتين عظيم: إما الوليد بن المغيرة بمكة وإما عروة بن مسعود الثقفي بالطائف؟ فقال ﷺ: أما قولك: لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم الوليد أو عروة فإن الله ليس يستعظم مال الدنيا كما تستعظم أنت ولا خطر له عنده كما له عندك، بل لو كانت الدنيا عنده تعدل جناح بعوضة ما سقى كافراً به مخالفاً شربة ماء، وليس قسمة رحمة الله إليك بل الله القاسم للرحمات والفاعل لما يشاء في عبيده وإمائه وليس هو عَزَّ وَجَلَّ ممن يخاف أحداً كما تخافه أنت لماله وحاله فعرفته بالنبوة لذلك، ولا ممن يطمع في أحد في ماله أو حاله كما تطمع أنت فتخصه بالنبوة لذلك، ولا ممن يحب أحداً محبة الهوى كما تحب فيقدم من لا يستحق التقديم، وإنما معاملته بالعدل فلا يؤثر لأفضل مراتب الدين وخلاله إلا الأفضل في طاعته والأجدّ في خدمته، وكذا لا يؤخر في مراتب الدين وجلاله إلا أشدهم تباطوءاً عن طاعته وإذا كان هذا صفته لم ينظر إلى مال ولا إلى حال، بل هذا المال والحال من تفضله وليس لأحد إكراهه من عباده عليه ضريبة لازب فلا يقال له: إذا تفضلت بالمال على عبد فلا بد أن تتفضل عليه بالنبوة أيضاً لأنه ليس لأحد إكراهه على خلاف مراده، ولا إلزامه تفضلاً، لأنه تفضل قبله بنعمة، ألا ترى يا عبد الله كيف أغنى واحداً وقبح صورته وكيف حسن صورة واحد وأفقره، وكيف شرف واحداً وأفقره وكيف أغنى واحداً ووضعه؟ ثم ليس لهذا الغني أن يقول: هلّا أضيف إلى يساري جمال فلان، ولا للجميل أن يقول: هلا أضيف إلى جمالي مال فلان؟ ولا للشريف أن يقول: هلا أضيف إلى شرفي مال فلان؟ ولا للوضيع أن يقول: هلا أضيف إلى مالي شرف فلان؟ ولكن الحكم للّٰه يقسم كيف يشاء ويفعل كما يشاء، وهو حكيم في أفعاله محمود في أعماله وذلك قوله: وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم - قال الله: - أهم يقسمون رحمة ربك - يا محمد - نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا - فأحوجنا بعضاً إلى بعض، أحوج هذا إلى مال ذلك وأحوج ذلك إلى سلعة هذا والى خدمته فترى أجلّ الملوك وأغنى الأغنياء محتاجاً إلى أفقر الفقراء في ضرب من الضروب إما سلعة معه ليست معه وإما خدمة يصلح لا يتهيأ لذلك الملك أن يستغني إلا به، وإما باب من العلوم والحكم هو فقير إلى أن يستفيدها من هذا الفقير الذي يحتاج إلى مال ذلك الملك الغني وذلك الملك يحتاج إلى علم هذا الفقير أو رأيه أو معرفته ثم ليس للملك أن يقول: هلا اجتمع إلى مالي علم هذا الفقير؟ ولا للفقير أن يقول: هلا اجتمع إلى رأيي ومعرفتي وعلمي وما أتصرف فيه من فنون الحكم مال هذا الملك الغني؟.

﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ جملة من آية منقطعة النظير ويتيمة في سائر القرآن، تبين حقيقة ثابتة من النواميس الإلهية في هذا الكون، أن هناك طبقية بإرادة الرحمن الرحيم لتنظيم الحياة حيث يدور دولابها.

هنالك معيشة في الحياة العليا، الرسالة الإلهية، و﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ في قلوب صافية ضافية تفيض كما تستفيض دونما خيانة.

وهناك عيشة في الحياة الدنيا، كسائر ما يعيِّش الإنسان فيما سوى الروحية والمعنوية، من عقلية علمية واستعدادات في تحصيل المال والمنال أم في صناعات أم ماذا مما تدير شؤون هذه الحياة، ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ دون أن يكون جميع الناس على سواء في معيشتهم نسخاً متماثلة مكرورة تحيل أن تقوم معيشة وحياة في هذه الأرض.

ما هي الطبقية المرفوضة والمفروضة؟

نجد مثلثة من الطبقيات بين المجتمعات، من ظالمة وعادلة وفاضلة، فالطبقية الحصيلة من المظلمات، من أكلة الأرض ومصّاصي الدماء، من هؤلاء الظالمين بحقوق المستضعفين، تلك الطبقية ظالمة تطاردها التشاريع الإلهية، حيث تقرر ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[1] ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾[2] أما ذا من ضوابط اقتصادية عادلة تحارب الفقر المظلوم والغنى الظالمة، وأما الغنى عن سعي فلا، أو الفقر عن تقصير وعطالة فتحارب فقيره الذي ظلم نفسه، لا الغني الذي لا يظلمه، كما يندد بالفقير المتخاذل الذي يتكاسل عن الأخذ بحقه.

(١) سورة النجم، الآية: ٣٩.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٨٨.

هذه الطبقية ليست من فعل الله لا تكويناً ولا تشريعاً، وإنما هي من مظلمات الناس النسناس، دون الناس العدول ولا إله الناس.

ومن ثم طبقية عادلة في مراعاة الناس، إعطاء كل ذي حق حقه، وإعطاء سعي كل ساعٍ حقه، فإن زاد سعيه عن حاجته فإنفاقاً على من نقص، وإن نقص سعيه عن حاجته فرحمة عليه ممن زاد دون منٍّ ولا أذى.

هذه طبقية عادلة تقرِّب بين الساعين في عيشتهم رغم اختلافهم في مساعيهم، وهكذا تقرّر الشريعة الإلهية، سعياً حسب المستطاع وتراحماً بين الساعين حسب المستطاع! وهذه طبقية الناس.

ثم طبقية فاضلة هي من إله الناس، لا من عدل الناس ولا ظلم النسناس، وهي الحصيلة من مختلف المواهب والاستعدادات: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ فسمة التفاوت في مقادير الرزق، نتيجة تفاوت الدرجات في استعدادات وفعليات، هذه السمة لا تتخلف أبداً حتى في المجتمعات المصطنعة المحكومة بمذاهب موجّهة أن تساوي جميع الأفراد في هذا الرزق أبداً!

والحكمة الأصيلة الإلهية في هذه السمة هي «التسخير» وطبعاً التسخير العادل المتعادل، لا الاستثمار الظالم أو الاستعمار والاستكبار والاستحمار والاستبداد والاستضعاف والاستخفاف: سخرياً ظالماً هاتكاً حُرَم الإنسانية في أبوابه السبعة الجهنمية، حيث التشاريع الإلهية تحاربها وتغلقها دون مواربة ولا مسايرة.

أجل إن ﴿سُخْرِيًّا﴾ لا يعني طبقياً مشكّلاً من مسخّرٍ ومسخَّر دائبين، فإنه سخري جانبي من النسناس، وإنما السخري من كل الجوانب عدلاً وفضلاً، فالعامل مسخر للمهندس ولصاحب العمل، والمهندس مسخر للعامل ولصاحب العمل، وصاحب العمل مسخر للمهندس وللعامل على سواء،

فكلٌّ مفضّل على الآخر بما عنده كما الآخر مفضل عليه بما عنده، فلو كان الكل على سواء في المواهب والاستعدادات لما مكّن أحد نفسه في شغل لآخر مثله، ولما تمكن أحد من تسخير أحد هو مثله، وحالة الاستغناء هذه تمنع الحياة الجماعية والتساخر بين الأفراد في حاجياتهم فتقف عجلة الحياة.

فـ ﴿سُخْرِيًّا﴾ هذه هي التعامل اللازم واللائق بشأن الحياة كما تقتضيه الشرعة العادلة الإلهية: أن لكل ساعٍ سعيه، ثم الزائد والناقص في سعيه دون تقصير يتعاملان تعاملاً آخر، أن يفيد الأول من سعيه الآخر، ويستفيد الآخر من سعي الأول، إنفاقاً دون مَنٍّ ولا أذىً حتى تحصل طبقية الناس.

فطبقية النسناس تعم ما تحصل من ظلامات، ومن ترك الإنفاقات الواجبة والراجحة، وطبقية الناس تطردهما في ترك الظلامات وفعل الإنفاقات، على ضوء الطبقية الفاضلة من إله الناس!.

فليست الطبقية كلها ظالمة، كما اللّاطبقية ليست كلها عادلة، وإنما الظلم مرفوض في طبقية أم لا طبقية، والعدل مطلوب مفروض - والفضل - في طبقية أولا طبقية.

أترى لو تغاضينا عن آماد المساعي فأعطينا عمالاً على اختلاف مساعيهم أجوراً متساوية أم قدر الحاجة لإزالة الطبقية بينهم، ولكي لا تحصل، هل هو إذاً عدل،؟ فـ ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[1] إذا ظلم؟ كما يقوله الاقتصاد الشيوعي.

أم لو أعطينا كلاً كما سعى دون رعاية لقصور الضعاف أن نزيدهم لحد الكفاف، ودون أخذ الضرائب من الأقوياء إنفاقاً للضعاف، تطبيقاً مكانيكياً لقاعدة السعي، فهل عدلنا أم كما تقول الاشتراكية أم ظلمنا؟.

---

(١) سورة النجم، الآية: ٣٩.

أم إذ نجمع - على ضوء الاقتصاد الإسلامي - بين قاعدة السعي وبين رعاية الضعاف القُصَّر بفرض ضرائب الكفاف على الأثرياء رعاية للمحاويج أفراداً أو جماعات فهل ظلمنا أم عدلنا؟ وهذا ما يقوله الإسلام: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ على ضوء قاعدة السعي والإنفاق المستحق، لتتقارب الجماعة المسلمة مادياً ومعنوياً، فسماحة الإنفاق ربوة روحية بين الناس، وتطبيق قاعدة السعي عدل واقعي، وفي اختلاف المواهب والاستعدادات تمازج في تعاون دائب بين الناس، حيث الكل محاويج بعضهم إلى بعض نتيجة اختلاف الدرجات والموهبات والحاجيات.

آية السخري تجعل مباعضة في بني الإنسان كافة كأنهم أبعاض لشخص واحد ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا﴾ وكما أن هناك سخري التساخر العادل المتعادل المتكامل بين أعضاء الفرد الإنساني على درجات في الموهبات والاستعدادات في هذه الأعضاء، تحكمها روح واحدة باتجاه واحد هو صالح المجموعة، فلتكن كذلك المجموعة الإنسانية بأفرادها، فيعنى كلٌّ كادح صالح حياته ضمن المجموعة، في سخري الترابط التضامن العادل المتكامل قضاءً لحاجيات الأفراد ضمن المجموعة والمجموعة ضمن الأفراد.

لا تجد في أية شرعة إلهية سماحاً لسُخري الاستبداد والاستكبار والاستخفاف والاستعمار والاستثمار والاستضعاف والاستحمار، حيث أغلقت هذه الأبواب السبعة الجهنمية بمصراعيها على بني الإنسان، فاتحة أبواب التعايش العادل السلمي والحياة التضامنية العادلة الفاضلة.

فلا تجد تسخيراً مسيّراً على عمل، أم مخيراً في سعي لا يوازيه أجره، فحرية العمل وحرية الانتخاب في العمل لا يسلبها «سخرياً» إلا عادلاً يرجع

إلى صالح الأفراد والمجتمعات، تقديماً لصالحها على صالح الأفراد، دون تأصّل للأفراد والمجتمع على هامشها، أو تأصّل للمجتمع والأفراد على هامشه، بل الأصلان مرعيّان تفضيلاً لصالح المجتمع عند التعارض، وكما تجده في الحقل الاقتصادي الإسلامي كأفضل ما يمكن على ضوء الكتاب والسنة!

ثم إن في اتخاذ بعضهم بعضاً سخرياً حسب اختلاف الدرجات ومقتضاها منتوجة أخرى بعد قضاء هذه الحاجيات، هي درك الإنسان للكمال والأكمل فالتحري عنه والالتذاذ به، ولو كان الناس على سواء جمالاً وكمالاً وفي كافة المتطلبات فغضّاً عن شلّ الحركة التضامنية حينذاك، لم يحظ الإنسان حظوة بما عنده حيث يراه عند سائر الناس على سواء، ولم يلتذّ إنسان بنعمة عنده لما يراها عند سائر الناس على سواء، إذاً لزالت اللّذات ومرّت الحياة مرّة دون حراك، لو أنها مرت دون تضامن التساخر والتعامل!

فالاشتراكية المتساوية خلقة وفي استعدادات هي هادمة اللذات، موقفة عجلة السير الدائب المتسابق في الحياة، ولكنما الطبقية العادلة المتعادلة المتكاملة على ضوء التشاريع الإلهية، إنها تضمن عجلة دائبة في صراع عجلة الحياة وسرعتها في صراعها، سباقاً سائغاً سابغاً في ميادينها وسراعاً ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ...﴾[1] ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ...﴾[2].

و﴿رَحۡمَتُ رَبِّكَ﴾ الروحية الرسالية ﴿خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ من المادية الدنيوية.

---

(١) سورة الحديد، الآية: ٢١.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٣٣.

فإن الله يختار لـ ﴿رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ وهي الخير المطلق نسبياً إلى سائر الخير، يختار لها من يناسبها وتناسبه، من يحتضنها وتحتضنه، من يعمل بها ويبلغها كما هو أحرى، ولا صلة بينها وبين عرض هذا الأدنى، بل الدنيا بزهرتها وزخرفتها تنافرها وتتعارض معها، كما الرسالة الإلهية بغيتها الرئيسية هي التزهيد في الدنيا، التحديد لشهواتها، أترى المترفين أولي النَّعمة يتقبلون رسالة تقضي على ترفهم لصالح المحاويج من طرفهم، أم لو تقبلوها يبلغونها كما هو أحرى بلاغاً يضاد كيانهم، أم لو سلمت الرسالة من هذا وذاك، أليست هذه الرسالة نفسها بالتي تقرب أهل الدنيا وتبعد أهل الآخرة أم تغري الناس بمغريات الرسول أم ماذا؟

﴿رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ تلمح إلى قمة الرحمة الروحية في الحياة العليا، وأين هي من معيشة الحياة الدنيا، وإذا هم لا يصلحون لقسمة الحياة الدنيا وهم من أهلها، فكيف يصلحون لقسمة الحياة العليا وهم ليسوا من أهلها، ولا أن لأهليها أن يقتسموها، إنها الربوبية الوحيدة المطلقة في قسمة الحياة دنياها وعلياها فـ ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾[1] حيث السؤال الاستنكار يخص من يجوز عليه الخطأ، والسؤال الاستعلام لا يجوز في كل صغيرة وكبيرة إلا ما عرَّفنا ربّنا بحكمته ورحمته و﴿رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ العليا ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ من الدنيا والتي لم ينظر الله إليها منذ خلقها!

﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾:

إن قاعدتي السّخري والسعي تقتضيان خليطاً من الفقر والغني في قبيلي

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٢٣.

الإيمان والكفر، دون اختصاص لأحدهما بأحدهما، مهما كان الكفار بطبيعة الحال أغنى من المؤمنين لأنهم مكبون على الحياة الدنيا دون الأخرى، ثم الإيمان قيد الفتك!.

إلا أن قاعدة ثالثة تناحرهما هي رخاصة الدنيا ودناءتها، وهي مجلبة الشهوات ومدحرة الطاعات فلا تناسب في ميزان الله إلا لمن يكفر بالرحمن دون المؤمنين، إلا أن فريق الإيمان ليسوا على السواء، صابرين على الفقر المطلق لهم والغنى المطلقة لفريق الكفر، فهناك قد يتفلت الإيمان، فكرٌّ على ما يفر منه، خروجاً عن الحفرة إلى البئر!

لذلك اختلط الفريقان في الفقر والغنى، وفي قبيل الكفر مزيد الغنى في أبعاد: إخلادهم إلى الدنيا فيعطون منها كما أخلدوا: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ...﴾[1] ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ...﴾[2] وأن «الايمان قيد الفتك» والبعدان هما قضية الكفر والإيمان، ومن ثم بعد ثالث من رحمة الرحمن على المؤمنين أنه لا يغنيهم كأصل كما يسعون لكي لا تلهيهم، وأنها لا وزن لها في ميزان الله، كما يروى عن رسول الله ﷺ: «لو كانت الدنيا تزن جناح بعوضة ما سقى منها كافراً شربة ماء»[3].

﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ كما كانوا قبل البعثات الرسالية ضُلّالاً ﴿لَّجَعَلْنَا...﴾ إلا أن جعلاً هكذا يجعل الناس أمة واحدة بعد الرسالات كما قبلها و«لو» تحيل بقاء فريق المؤمنين على الإيمان، أو رغبة

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٨.

(٢) سورة هود، الآيتان: ١٥، ١٦.

(٣) الدر المنثور ٦: ١٧ - أخرجه الترمذي وصححه وابن ماجة عن سهل بن سعد قال قال رسول الله ﷺ...

المتحرين عن الإيمان في الإيمان، رغم أن هذا الجعل قضية خسة الكافرين وخسة الدنيا! دون تبعيد لمن يتحرّى عن إيمان.

وقد تعني «لولا...» معنى ثانياً: لولا السنة الدائبة الإلهية على كون الناس أمة واحدة في قاعدي السخري والسعي، لجعلنا.. رفضاً لهما.. حيث خسة الدنيا وزهادتها؟ ولكنما استثناء القواعد التي جعلها الله تعالى كونية وتشريعية، إذا كان لصالح الكتلة المؤمنة، هذا الاستثناء راجحة أم لازمة، لولا مانعة أخرى كـ ﴿أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ ضلّالاً بعد الرسالة وبها كما قبلها.

وقد تعنيهما الآية وما أحسنهما متضامنين، فإن هكذا جعل لمن يكفر بالرحمن خروج عن قاعدتي السخري والسعي، وجعلٌ للناس كلهم ضلّالاً لا يحنون إلى إيمان! و﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ تعنيهما معاً، ولكنما الأصل هو الثاني وعلى هامشه الأول[١] مهما كان الثاني هو الأول والأول هو الثاني حصولاً!

إن الثراء بلاء للمؤمن لا بد منها تمشية للحياة الدنيا، وإنفاقاً على محاويجها، وأن لا يكون الناس أمة واحدة فما أقل المؤمنين الأثرياء أن يكونوا بمؤمنين صادقين ملتزمين بإيمانهم، وما أكثر المؤمنين الفقراء أن

(١) نور الثقلين ٤: ٥٩٩ ح ٣١ - القمي عن الصادق عليه السلام في تفسير الآية «لو فعل الله ذلك لما آمن من أحدٌ ولكنه جعل في المؤمنين أغنياء وفي الكافرين فقراء وجعل في الكافرين أغنياء وفي المؤمنين فقراء ثم امتحنهم بالأمر والنهي والصبر والرضا. وح ٣٢ في كتاب علل الشرايع بإسناده إلى سعيد بن المسيب قال: سألت علي بن الحسين عليه السلام عن الآية قال: عنى بذلك أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم أن يكونوا على دين واحد كفاراً كلهم ﴿لَّجَعَلْنَا...﴾ ولو فعل ذلك بأمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم لحزن المؤمنون وغمهم ذلك ولم يناكحوهم ولم يوارثوهم:
أقول: أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم هنا المصداق الأجلى والآية بإطلاقها تعني كل الناس: وفيه (٣٤) بإسناده إلى منصور بن يونس قال قال أبو عبد الله عليه السلام قال الله عز وجل: لولا أن يجد عبدي المؤمن في نفسه لعصبت الكافر بعصابة من ذهب.

يظلوا صادقين، حتى أن أحدهم قد لا يتقبل الثراء كيلا يبتلى ببلاء الأثرياء[1].

ولكن الثراء بنفسها ليست بلاء، وإنما لضعاف الإيمان، فمن قوة الإيمان أن يحاول المؤمن في تحصيل المال توسعة على العيال وإنفاقاً للمحاويج وتمشية لعجلة الحياة الجماعية للكتلة المؤمنة.

فالمؤمن بين تزهيد عن الثراء كيلا تلهيه عما يعنيه، وبين تزويد للثراء لكي يطبق ما يعنيه من صالح الجماعة المؤمنة وصالحه في سبيل الله.

فليست الثراء - إذاً - مرغوباً عنها بإطلاقها في ميزان الله، كما ليس الفقر مرغوباً فيه بهذا الميزان فقد «كاد الفقر أن يكون كفراً»! أو قد يعكس الأمر، ولكنما الأكثرية الساحقة أن الثراء بلاء أكثر مما الفقر بلاء! فليست الغنى لصاحبه كرامة كما ليس الفقر عليه مهانة، فهما لأصحابهما بلاءٌ وابتلاءٌ: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا . . .﴾[2]!.

﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ . . . لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ ولماذا الكفر بالرحمن، دون الله أو الرحيم؟ علّه لأن الرحمن أعم الصفات الإلهية التي تشمل عامة رحماته وخاصتها، فالكفر بالله خاص بالملحدين فيه أو المشركين به، والكفر بالرحيم خاص برحماته الخاصة، ولكلّ من هذه

---

(١) نور الثقلين ٤: ٦٠١ بإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام قال: جاء رجل موسر إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نقي الثوب فجلس إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فجاء رجل معسر درن الثوب فجلس إلى جنب الموسر فقبض الموسر ثيابه من تحت فخذيه فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أخفت أن يمسّك من فقره شيء؟ قال: لا، قال: فخفت أن يصيبه من غناك شيء؟ قال: لا - قال: فخفت أن يوسخ ثيابك؟ قال: لا، قال صلى الله عليه وآله وسلم: فما حملك على ما صنعت؟ قال: يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم! إن لي قريناً يزين لي كل قبيح ويقبح لي كل حسن وقد جعلت له نصف مالي فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للمعسر: أتقبل؟ قال: لا - فقال له الرجل: ولم؟ قال: أخاف أن يدخلني ما دخلك!:

(٢) سورة الفجر، الآيات: ١٥-١٧.

الثلاث أهل، وأما الكفر بالرحمن فهو يعمها كلها، كفراً بالله في شقيه، وكفراً بالرحيم في شقه، وكفراً بالربوبية دون الخالقية أو الخالقية دون الربوبية، أم كفراً بالعبودية دونهما أمّا هيه؟ من كفر بأية رحمة من رحمات الرحمن ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[1]!

﴿لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ﴾ وما ألطفها وأنضرها نظرة إليها كأنما ينظر إلى السماء اللؤلؤية البيضاء ﴿وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ والمعارج وهي ما يعرج بها تعم المعارج الأرضية وفوق الأرضية من طائرات أم ماذا ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾: يطّلعون ظاهرين غالبين على ما يهوون من التطلّع إلى سُقُف أرضية أم ما فوق الأرضية أم ماذا؟

﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا﴾ كما تناسب ذوات السُّقف الفضيّة «وسرراً عليها يتكئون» كما تناسب تلك البيوت ﴿وَزُخْرُفًا﴾: زينة من ذهب أو فضة أم زمردة أم أية زينة من الزين من نابتات: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ...﴾[2] أو مصطنعات ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ...﴾[3] وإلى ﴿زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾[4] وهو صوت الشيطان: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾[5] فـ «زخرفاً» هي مطلق الزينة للبيوت وسواها، عموماً بعد خصوص، والحياة الدنيا كلها زخرف، ولذلك تسمت هذه السورة بالزخرف وصيغتها الأخرى سورة الدنيا، حيث تمثّلها كما هيه.

﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

---

(١) سورة الرحمن، الآية: ١٣.
(٢) سورة يونس، الآية: ٢٤.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ٩٣.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ١١٢.
(٥) سورة الإسراء، الآية: ٦٤.

﴿لَمَّا﴾ هنا قد تعني «إلا»[١] وعله غير فصيح ولا صحيح أن يؤتى بدل «إلا» الصريحة «لمّا» كإحدى معانيها بل، ولا يعرف لها هذا المعنى[٢].

أو أنها تعني معناها الانتظار حتى الآن و«إن» مخففة عن مثقلة فـ ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ﴾ المذكور حتى الآن متاع الحياة الدنيا، عند أهل الآخرة والدنيا بميزان الله ﴿وَٱلْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

إلا أن ﴿لَمَّا﴾ بمعنى «إلّا» مكررة في الذكر الحكيم وقرينتها التي تعني منها «إلا» هي معها ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾[٣].

﴿وَٱلْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ فإنها لصالحهم حيث هيئوا لها بما قدموا من صالحات، فهي ليست لسواهم وإنما عليهم بما قدمت أيديهم من طالحات، ولكنما الدنيا تعاكس الآخرة، حيث المتقون لهم منها حظوة قليلة يستقدمونها لأخراهم.

و﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ قد تكون وصفاً للآخرة، فإنها عند ربك والدنيا بعيدة عنه، وإن كانتا عند ربك قدرة وعلماً وحكماً، ولكنما الآخرة عند ربك قرباً وملكاً ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾[٤]!

وقد تكون ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ في ميزان الرب، وخصوص الحضور للرب، فالآخرة للمتقين عند ربك، أو أنها تعنيهما: «فالآخرة التي عند ربك هي عند ربك للمتقين عند ربك»!

﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾:

متاع الحياة الدنيا وزهرتها يعشي أصحابها عن ذكر الرحمن تعامياً عنه

---

(١) كما حكاه سيبوية «نشدتك بالله لما فعلت» أي إلا فعلت.

(٢) كما رواه الإمام الرازي عن أبي الحسن وحكى عن الكسائي في أنه قال: لا أعرف وجه الثقيل.

(٣) سورة يس، الآية: ٣٢.

(٤) سورة غافر، الآية: ١٦.

بتقصير دون قصور[١] فالبصر يعشو ومن ثم البصيرة تعشو ويصبح الإنسان عشوا عن ذكر الرحمن متعامياً متغاضياً عما يذكره الرحمن، محجوباً قلبه، ناسياً متناسياً، وهنالك مهبط الشيطان وهنا «نقيض»: نرسل ﴿لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾.

وذكر الرحمن هو كلُّ ما يذكّرك الرحمن، وهي كافة الرحمات التي تعيشها في نفسك وحولك، من عامة تعم الكون، ومن خاصة للخصوص من خلق الله، الدالة على وجوده وتوحيده وعلمه وعدله وحكمته وسائر صفاته وأسمائه الحسنى.

فليعش الإنسان ذكر الرحمن دون أن يعشو عنه أياً كان، عشو القلب أو القالب، عشو البصر والبصيرة، عشواً عن أي إدراك وتبصّر، ولكي يتذكّر الرحمن فإنه يتبنّى عقيدة الإيمان وعمل الإيمان، وبه تنضبط الحياة في مسيرة ومصيرة الإنسان!

فلا يختص العشو عن ذكر الرحمن بعشو الباصرة بصراً وبصيرة، إنه يعمها وكل مدركة في الإنسان، فعليه أن يكرّسها كلها لذكر الرحمن.

وذكر الرحمن مصدراً وصادراً درجات كما العشو عن ذكر الرحمن دركات، فرسالات الله وكتاباته ذكر، وآيات الله في الأنفس والآفاق ذكر، والإنسان هو نفسه بما يحوم حوله من قريب أو غريب ذكر، وهذه بين معصوم سديد، أو مأثوم طريد، أم عوان بين ذلك، فالمعصوم ذكر مضمون بعصمة تبشيراً، والمأثوم ذكر بطرده إنذاراً، والعوان إنذار وتبشير.

فالعاقل اللبيب يذكر الرحمن بكل ذكر، والجاهل البليد لا يذكر

(١) عشي يعشى عشاً من باب علم إذا كان يبصره آفة لا يبصر مطلقاً أو بالليل وعشا يعشو عشواً من باب نصر إذا تعامى وتعشى بلا آفة وهنا: يعش من الثاني مجزوماً ولو كان من الأول لكان يعشِ بالكسر.

الرحمن فيعشو عن كل ذكر وإن كان قرآن محمد أو محمد القرآن ﴿وَاللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ﴾[(١)]!

فالذاكرون الله لا يقيّض لهم هكذا شيطان يمدّهم في عشو هم، مهما كان لهم شيطان غيره، والعاشون المتعامون عن ذكر الله يقيّض لهم شيطان: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾[(٢)] ﴿أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾[(٣)] ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾[(٤)].

فقد يتغلب عليه وقد يُغلب في عِراك دائب، خنّاس نسناس يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس، وقد يغلب على طول الخط فيسلم كصاحبه المسلم كما للرسول ﷺ[(٥)] ومن معه.

وهنا شيطان آخر يُبعث إلى من يعشو عن ذكر الرحمن، أخ له قرين يمدّه في الغي دون إقصار، وهذا غالب على طول الخط على «من تصدى بالإثم»[(٦)].

---

(١) سورة البروج، الآية: ٢٠.
(٢) سورة فصلت، الآية: ٢٥.
(٣) سورة مريم، الآية: ٨٣.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٢.
(٥) الدر المنثور ٦: ١٧ - أخرج ابن حبان والبغوي وابن قانع والطبراني وابن مردويه عن شريك ابن طارق قال قال رسول الله ﷺ: ليس منكم أحد إلا ومعه شيطان قالوا: ومعك يا رسول الله ﷺ؟ قال: ومعي إلا أن الله أعانني عليه فأسلم، وأخرجه مثله جماعة من طريق عائشة وابن مسعود وابن عباس: أقول: ليس هذا هو الشيطان المرسل المقيض لأنه خاص بمن يعشو عن ذكر الرحمن، وإنما هو الذي مع الكل كما أخرجه أحمد في الزهد عن وهب بن منبه قال: ليس من الآدميين أحد إلا ومعه شيطان موكل أما الكافر فيأكل معه من طعامه ويشرب معه من شرابه وينام معه على فراشه وأما المؤمن فهو يجانب له ينتظره حتى يصيب منه غفلة أو غرّة فيثبّ عليه: . . .
(٦) نور الثقلين ٤: ٦٠٣ ح ٤٧ في كتاب الخصال فيما علم أمير المؤمنين عليه السلام أصحابه من=

وهذه سنة دائبة آئبة للعاشي عن ذكر الرحمن أن يعيش معه الشيطان ليمده في الغي دون إقصار، غياً يحسبونه هدى، ضلالة على ضلالة هيئوا لهما بعشوهم ظرفاً يناسبه، وقد قضت مشيئة الله ألّا يخلو القلب من هاد أو مضل، فمن يرفض الهادي جاءه المضل، فإن الإضلال طبيعة الشيطان ما وجد له سبيلاً، ثم الله ليس ليقطع سبيله إلى قلب عاش عن ذكره تسييراً على ترك الضلال وكما لا يسيِّر إلى الهدى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ﴾[1] وإنما يهدي الله من اهتدى ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى﴾[2] جزاءً وفاقاً وعطاء حساباً!

﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾:

ويا لهذا الحسبان من خسران حيث ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾[3] ﴿... وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ﴾[4] فقد كانوا قبل ذلك مستبصرين، فعشوا عن ذكر الرحمن على بصيرة وعناد تعامياً معمّداً عن الحق فقيّض الله لهم شياطين تزييناً لهم فصدوهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾[5]؟ حيث لا يدعه الشيطان القرين أن يفيق أو يتبين الضلال فيثوب، وإنما يوهمه أنه سائر في الطريق القاصد القويم، حتى يصطدم بالمصير الأليم، وترى أن الشيطان الثاني هو من قبيل الجان أم وهو أيضاً من الإنسان؟ إنه يعمهما كما الأول دون اختصاص بجان أم إنسان،

= الأربعمائة باب مما يصلح للمسلم في دينه ودنياه «من تصدى بالإثم أعشي عن ذكر الله تعالى؟ من ترك الأخذ عن أمر الله بطاعته قيض له شيطان فهو له قرين.

(١) سورة الصف، الآية: ٥.

(٢) سورة محمد، الآية: ١٧.

(٣) سورة النمل، الآية: ٢٤.

(٤) سورة العنكبوت، الآية: ٣٨.

(٥) سورة الكهف، الآيتان: ١٠٣، ١٠٤.

اللهم إلّا النفس الأمارة بالسوء، فإنسان يستجيب سائر الشيطان، ومن المصيبة العظمى والداهية الكبرى أن قرن الشيطان المقيض لهذا الإنسان يبقى معه حياته دون انفصال في البرزخ والقيامة الكبرى وهو عليه وبال!:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ ﴿٣٨﴾﴾:

ترى ماذا يعني ﴿جَآءَنَا﴾ والله لا يجيءُ إلى ولا يجاء إليه؟.. إنه مجيءُ عالم الرحمن برحمتيه الرحمانية والرحيمية الخاصة بيوم الحساب. فـ ﴿جَآءَنَا﴾ يعني ما يعنيه ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾[1] تجيء ربوبيته الخاصة بيوم الجزاء وهم يجيئون إلى تلك الربوبية يوم الجزاء!

فقد يستمر ذلك العشو، وهذا القرين وصدّه عن السبيل ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا﴾ العاشي عن ذكر الرحمن مع قرينه الملازم له، وذلك المجيء بادئ من الموت مجيئاً برزخياً وإلى القيامة الكبرى مجيئاً نهائياً ﴿قَالَ يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ﴾ بينونة غابرة في حياتها الأولى وحاضرة في حياتها الأخرى، ولكنه تأوّه بعد حينه ولات حين مناص!

ليس هنا فعل ماضٍ أو مضارع يخص التأوّه بقربه مع الشيطان القرين في زمان خاص، بل هو تأوه يشمل هذا القرن في مثلث الزمان، فبعد المشرقين أم أبعد ﴿إِذَا جَآءَنَا﴾ لا يبعده عن عذابه الذي خلفه بقرنه في الحياة الدنيا!.

هكذا ينتقل العاشي في ومضة من هذه الأولى إلى الأخرى، طياً لشريط الحياة السادرة وشرائطها إلى نهاية المطاف فجأة دون انتظار، وهنالك يفيق بعد طويل النوم، ويفتح عينيه بعد مديد العمى، ويرى قرينه شيطاناً أضله بعدما رآه هادياً دلّه، فيتأوه لحاضره وماضيه، حيث يرى قرنه به عذاباً فوق

(١) سورة الفجر، الآية: ٢٢.

العذاب، فيخاطبه خطاب العتاب: ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ بوناً بين المشرق والمغرب وهو أبعد البعد في هذه الكرة، وأنا عشتك في أقرب القرب القرين ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾!

﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾﴾:

ترى وما هو الفاعل في ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ﴾ أهو التأوه الندم «يا ليت» لـ ﴿أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ ﴿إِذ ظَّلَمْتُمْ﴾ باشتراك، إذاً فاشتراك باشتراك؟ فلن ينفعكم «يا ليت» كم، لا فصلاً بينكم (إنسان وشيطانه) ولا تخفيفاً عن المضلَّل زيادة على المضلِّل، ومن اشتراك العذاب الجمع بينهما حيث يتراءيان في حوار وتأوُّه!

أم الفاعل ﴿أَنَّكُمْ...﴾ فاشتراككم في العذاب ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ﴾ لا تسلية، فكلٌّ مشغول بنفسه منشغل عن غيره والعذاب شديد لا يبقي مجالاً لتسلية، ولا تخفيفاً فالعذاب كامل لا تخففه الشركة، ولا يتقاسمه المشتركون، ولا أن الله يخفِّف عن مضلَّل ويثقل على مضلِّل ﴿إِذ ظَّلَمْتُمْ﴾ فكلّ يعذَّب على حد ظلمه أياً كان ولو مضلَّلاً، أو يكون الإضلال على جهل من المضلَّل: فمضلِّلاً: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾[1]، فاشتراك الظلم لزامه اشتراك العذاب كلّ على قدر ظلمه ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾[2]! فلا التأوه ينفع إذ ظلمتم لاشتراك العذاب، ولا اشتراك العذاب ينفع إذ ظلمتم، والآية لفظياً ومعنوياً تتحمل الفاعلين على البدل، فتحمل المعاني المسرودة ككل دون تحميل، لا سيما الثاني[3] والسبب الرئيسي في ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ﴾ هو ﴿إِذ

(١) سورة النحل، الآية: ٢٥.
(٢) سورة النساء، الآية: ٤٩.
(٣) حيث الأول يتطلب حذف لام التعليل «لأنكم».

﴿ظَلَمْتُمْ﴾ فكلّ يعذب لظلمه وعلى حدّه، دون رعاية للظالم المضلَّل، أو نكاية زائدة على الظالم المضلِّل، اللهم في مزيد الظلم من مضلِّل أو مضلَّل على سواء! ولا يظلمون نقيراً.

موقف بائس متقاعس، شائن متشائن، اشتراكاً في العذاب ولات حين متاب، حيث الظلم عريق والضلال عميق: !

﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾﴾:

«أَفَـ» بعد ذلك الصمم المعمدة والعمى القاصدة والضلال المبين ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ ولا سمع لهم يستمعون ﴿أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ﴾ ولا بصر لهم يبصرون ويتبصرون فإنه ﴿كَانَ﴾ طول حياته غريقاً ﴿فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾: يبينه لنفسه وسواه، دون ابتغاء لهداه؟!

فهداية الدلالة هنا لا مجال لها، وهداية الإيصال إلى المطلوب لست أهلاً لها ولو لأهلها، فكيف تكون إذاً لغير أهلها، ما الله على قدرته المطلقة لا يهدي لها؟ فلماذا هذا التجشم في إسماعهم وليهتدوا؟ ولم ذلك التحزن عليهم إذ لم يهتدوا، فإن عشوهم عن ذكر الرحمن في سمعهم أصمهم، وفي بصرهم أعماهم ولن يهتدوا إذاً أبداً! فلا حظوة لهم إلا الانتقام، بعدل إذ ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾[1] أم وعندك حيث الضلال تعدّى طوره واقتضى انتقاماً فوره.

﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾﴾:

فـ ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾[2] ﴿... فَإِنَّمَا عَلَيْكَ

(١) سورة الأنفال، الآية: ٣٣.
(٢) سورة يونس، الآية: ٤٦.

ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ﴾[١] فـــ ﴿مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ﴾[٢] ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم﴾[٣].

فهل أنت مستاء بعدُ لِمَ لم يهتدوا؟ أم لِمَ لم يعذبوا بعد ما عاندوا؟ فلا لك هذا ولا عليك ذاك إن عليك إلا البلاغ وعلينا الحساب.

وترى كيف تناسب نون التأكيد الثقيلة الحاتمة لمدخولها، وإن الشرطية المشككة؟.. عله لأن هناك حتمية الموت أيّاً كان، ولكنما الانتقام على حتميته قد يكون قبل الموت أو بعده!

وترى كيف التلاحم بين وعد الانتقام قبل موته ﴿أَوۡ نُرِيَنَّكَ...﴾ وبين ترك العذاب فيه: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ﴾[٤]؟

قد يكون ﴿ٱلَّذِي وَعَدۡنَٰهُمۡ﴾ هنا ﴿بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ﴾[٥] في ثلاث أخرى، والعذاب في حياته كل عذابهم يوم الدنيا والثابت فيها - أحياناً - بعضه، حيث يتعدى ضلالهم طوره فيقتضي عذابهم فوره.

أو أن الذهاب به لا يعني موته وإلا لقال ﴿أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾[٦] كما في آياته الأخرى، بل يعني هجرته من مكة إلى المدينة، أو أنه يعنيهما كالذي بيّنا وفي أحاديثنا[٧] وقد تعني ﴿وَأَنتَ فِيهِمۡۚ﴾ كونه بينهم في مكة قبل هجرته لا حياته!

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٤٠.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٥٢.
(٣) سورة الغاشية، الآية: ٢٦.
(٤) سورة الأنفال، الآية: ٣٣.
(٥) سورة يونس، الآية: ٤٦.
(٦) سورة يونس، الآية: ٤٦.
(٧) فقد يروى أنه موته كما في الدر المنثور - ٦ : ١٨ - أخرج ابن مردويه من طريق محمد بن مروان عن الكلبي عن ابن صالح عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ في قوله: ﴿فَإِمَّا نَذۡهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنۡهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ - نزلت في علي بن أبي طالب عليه السلام أنه ينتقم من الناكثين والقاسطين بعدي، وفي ملحقات الإحقاق ١٤ : ٣٥٤ - أخرج الحافظ ابن المغازلي في المناقب ص ١٠٢ نسخة مكتبة صنعاء اليمن قال: أخبرنا الحسن بن أحمد بن موسى الفندجاني قال حدثنا هلال بن محمد الحفار قال حدثنا إسماعيل بن علي قال حدثنا أبي علي قال حدثنا علي بن موسى الرضا قال حدثنا أبي موسى بن جعفر قال حدثنا أبي جعفر قال حدثنا أبي محمد بن علي الباقر =

فهناك تسلية لخاطر النبي الأقدس ﷺ أنه أدى واجبه في دعوته وماذا عليه بعدُ مهما ضلّوا، وأخرى أن الله ينتقم منهم في حياته شطراً أو بعد مماته، فما عليك إذا إلا استمساك بوحيه:

﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾:

عش يا صاحب الرسالة السامية استمساكاً بالذي أوحي إليك دونما فترة ولا فتور، أنه لا يهتدي به هؤلاء، ودونما نخوة أو غرور أنك تهدي به هؤلاء، وإنما استمساكا به كما أوحي دونما تقصير فيه أو قصور!

وترى ﴿أُوحِىَ﴾ الماضي يختص الاستمساك بالماضي فقط من وحي

= عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: إني لأدناهم من رسول الله ﷺ في حجة الوداع بمنى حتى قال ﷺ: لألفينكم ترجعون بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض وايم الله لئن فعلتموها لتعرفنني في الكتيبة التي تضاربكم ثم التفت إلى خلفه فقال: أو علي أو علي ثلاث مرات فرأينا أن جبرائيل غمزه فأنزل الله على إثر ذلك ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ [الزخرف: ٤١] بعلي بن أبي طالب عليه السلام أو نرينك الذي وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون ثم نزلت ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [المؤمنون: ٩٣-٩٤] ثم نزلت: فاستمسك بالذي أوحي إليك من أمر علي إنك على صراط مستقيم وإن علياً لعلم للساعة ولك ولقومك وسوف تسألون عن علي بن أبي طالب عليه السلام.

وفيه أخرج ابن مردويه عن عبد الرحمن بن مسعود العبدي قال قرأ علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) هذه الآية قال: ذهب نبيه ﷺ وبقيت نقمته في عدوه، وأخرج ما في معناه جماعة آخرون منهم أبو نعيم الأصفهاني بسنده عن زر بن حيش عن حذيفة أنه قرأ: ﴿فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ بعلي بن أبي طالب عليه السلام، ورواه مثله في فضائل السمعاني بسنده عن ابن عباس وروى محمد بن العباس عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال: إن الله تعالى انتقم بعلي عليه السلام في حرب البصرة وهذا ما وعده الله ورسوله.

وفي ملحقات الإحقاق ٣: ٤٤٤ روى جماعة من أعلام القوم نزول الآية في علي عليه السلام منهم النيسابوري في تفسيره ٢٥: ٥٧ بهامش تفسير الطبري عن جابر أنه قال: لما نزلت: ﴿فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ قال النبي ﷺ بعلي بن أبي طالب ﵁، ومنهم السيوطي في الدر المنثور ٦: ١٨ عنه والترمذي في مناقب مرتضوي ٥٣ عنه والقندوزي في ينابيع المودة ٩٨ عن حذيفة بن اليمان مثله.

القرآن؟ والقرآن قرآن بماضي وحيه ومستقبله، بل إنما «أوحي» حيث يضم مطلق الوحي المحكم ليلة القدر وقسماً من المفصل، ثم القسم المستقبل من المفصل تتمة لتفصيل محكمه وتكملة لمفصله.

ولأن هذه التكملة من الوحي، وليس واجب الاستمساك بما أوحي إلا بعلة الوحي، فليشمل الاستمساك بالوحي القرآني مثلث زمن الوحي، فـ ﴿بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ﴾ أبلغ من كل الصيغ، فإن «ما يوحي» لا تشير إلى محكمها الماضي، و«بالوحي» يشمل كل وحي في كل الرسالات، و«با الوحي إليك» لا تصرح بمادة الوحي وإنما بمصدره، و«بالقرآن» لا يشمل محكم القرآن ولا وحي السنة، فما أبلغه وأشمله ﴿بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيۡكَۖ﴾!

ثم ﴿بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ﴾ دليل أول لوجوب الاستمساك، ودليل ثان: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ من صراط العصمة والروح القدسي الرسالي، يعصمانك بإذن الله عملياً، فاستمسك بالذي أوحي إليك علمياً فإنه صراط مستقيم وإلى صراط مستقيم، كما أنك على صراط مستقيم وإلى ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾[1] تماسكاً بين الصراطين المستقيمين: الناطق والصامت، إيفاء بالرسالة الإلهية في عصمة تامة، فاستمساك غير المعصوم بكتاب معصوم أو استمساك المعصوم بكتاب غير معصوم ناقص وإلى نقص!

ولماذا ﴿فَٱسۡتَمۡسِكۡ﴾ طلب المسك، دون «فامسك الذي أوحينا إليك»؟ لأنه كرسول عليه طلب المسك بوحيه بين العالمين، كما أمسكه لنفسه قبل العالمين، فالاستمساك إمساك لنفسه وطلب من غيره، ليصبح الرسول والمرسل إليهم تمسكاً بالوحي يعيشونه في كل حياتهم.

فالاستمساك بالقرآن صراط مستقيم لا حول عنه ولا عوج فيه، وهو

(١) سورة الشورى، الآية: ٥٢.

سبيل المصلحين: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾(١) وهو العروة الوثقى يُستمسك بها في إسلام الوجه إلى الله ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾(٢) وهو القاطع لكل عذر والحجة في كلِّ غدر ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾(٣).

فما دام الاستمساك بالقرآن فأنت على صراط مستقيم، وإذا تحولت عنه إلى سواه فأين الصراط المستقيم؟ اللهم إلا إذا وافق القرآن! وإلا فسوف تسألون:

﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾﴾:

كلُّ كتابات الوحي ذكر ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾(٤) والقرآن هو أفضل الذكر ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾(٥) تأكيدات منقطعة النظير عن سائر الذكر! وكل رسول من الله ذكر ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ. . .﴾(٦).

ولكن الرسول محمد ﷺ أفضل الذكر: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا. . .﴾(٧) وهنا يأتي ذكر «القرآن» لذكر «رسول القرآن» وقومه: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾!

وترى المعني من ذكر القرآن للرسول وقومه فقط أن يتذكروا به كما أنه حجر الأساس فيما يهدف من ذكر القرآن؟ أم وأنه يرفع ذكر من تذكر به قدره كما رفع الله ذكر محمد ﷺ ومن معه، فمئات الملايين من الشفاه تصلي وتسلم عليه وتقرن ذكره بذكر الله في أذانات الصلاة وإقاماتها، ذكر المحب

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧٠.
(٢) سورة لقمان، الآية: ٢٢.
(٣) سورة الزخرف، الآية: ٢١.
(٤) سورة الشعراء، الآية: ٥.
(٥) سورة الحجر، الآية: ٩.
(٦) سورة الشعراء، الآية: ٥.
(٧) سورة الطلاق، الآيتان: ١٠، ١١.

المشتاق آناء الليل وأطراف النهار على مر التاريخ! وكذلك الذين معه من مسلمي التاريخ أياً كانوا وأيان!

﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ ماذا فعلتم بهذا الذكر؟ وهل أديتم واجب الشكر في ذكره لكم؟ فأما الرسول ﷺ والذين معه فمعهم ما معهم من إجابات حسب الدرجات، ولكن الذين ﴿ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾[١] علمياً وعقائدياً وعملياً، رغم ما استظلوا تحت ظله أننا أهل القرآن فاحترمهم العالمون! فهؤلاء ﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ تهتكاً واستنكاراً، وهم الأكثرية الساحقة من المسلمين وحتى من لا نسميهم وهم يجهلون القرآن! متجاهلين موقفه في حوزات الإسلام! يدرسون فيها ويدرّسون كتابات سوى القرآن والقرآن مندرس بينهم لا يُدرس، وهذه قسمة ضيزى ما أظلمها بجنب القرآن أن يندرس ولا يدرس، اللهم إلا قراءته خاوية خالية عن الذكرى، خاصة لأرواح الأموات والأحياء منها بعاد وحتى في استماعه! مستمعين إلى كل متكلم إلا قارئ القرآن!

اجل إن هناك مسؤولية كبرى عن هذا الذكر العظيم عمن حمّلوه ولم يحملوه ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾[٢] وليست هذه المسؤولية لما دون ذلك النعيم العظيم!

ترى ومن هم قوم الرسول المسؤلون معه عن ذلك الذكر؟.. إن للرسول أقواماً يجمعهم «العالمون» لمكان رسالته العالمية، ولكنهم على مدارج شتى من حيث وجهة هذه الرسالة ومفعوليتها فيهم.

فمنهم المكذبون به ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾[٣] ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾[٤].

(١) سورة الفرقان، الآية: ٣٠.
(٢) سورة التكاثر، الآية: ٨.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ٦٦.
(٤) سورة الزخرف، الآية: ٥٧.

ومن قومه من قام بتمام الواجب في تقبّل وحمل دعوته وهم عترته المعصومون[١]، وبينهما متوسطون ويجمعهم سائر العالمين وتجمعهم ﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ مهما اختلفت المسؤوليات حسب المسؤوليات، في درجات أم دركات!.

﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾:

المأمور بالسؤال هنا هو الرسول محمد ﷺ والمسؤول عنهم كافة الرسل، ومورد السؤال ﴿أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ ترى ولماذا السؤال وكيف سئل المرسلين وهم أموات؟ فمساءلة الذين درجت قرونهم وخلت أزمانهم غير ممكنة ولا مفيدة إن أمكنت! بطبيعة الحال ليس هذا السؤال ليعلم الرسول ﷺ بعد جهل ألّا معبود إلا الله، فإنه قبل رسالته كان على توحيد الله وهذا السؤال حين رسالته، كذلك وليس ليعلم هل أن الرسل قبله كانوا موحدين ودعاة التوحيد أم ماذا؟ وإنما لكي يعلم الناكرون أو الشاكون في توحيد الله أن التوحيد سنة الرسالة الدائبة دونما استثناء!

ثم وسؤاله ﷺ الرسل ينطلق عنهم وهم حضور لديه ليلة المعراج[٢]

(١) نور الثقلين ٤: ٦٠٤ ينقل روايات عدة أن الأئمة عليهم السلام هم قومه في هذه الآية وهم المسؤولون، رواه عن الكافي عن أبي جعفر عليه السلام وعنه عن أبي عبد الله عليه السلام بعدة أسناد.

(٢) هنا روايات عدة من طريق إخواننا ومن طرقنا أن هذا السؤال كان ليلة المعراج، واللفظ الأكثر رواية «قال رسول الله ﷺ يا عبد الله أتاني ملك فقال: يا محمد: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ [الزخرف: ٤٥] على ما بعثوا؟ قلت: على ما بعثوا؟ قال: على ولايتك وولاية علي بن أبي طالب، أقول وهذا في ليلة المعراج كما رواه جماعة منهم العلامة الشيخ إبراهيم ابن محمد بن أبي بكر بن حمويه الحويني في فرائد السمطين المخطوط جزء ٣٢ بسند متصل إلى عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ والعلامة البدخشي في مفتاح النجا ص ٤١ مخطوط والعلامة الحسكاني في شواهد التنزيل ج ٣ ص ١٥٦ ط بيروت بسند له عن علقمة والأسود عن ابن مسعود قال قال لي رسول الله ﷺ: لما أسري بي إلى السماء إذا ملك قد =

أمّا ذا، فله الحوار معهم أينما شاء في معراج أم غير معراج ولكنه سؤال

= اتاني فقال لي يا محمد! سل من أرسلنا من قبلك من رسلنا على ما بعثوا؟ قلت معاشر الرسل والنبيين على ما بعثكم اللّه؟ قالوا على ولايتك يا محمد وولاية علي بن أبي طالب عليه السلام ورواه مثله أبو الحسن الفقيه ابن شاذان من طرق إخواننا عن ابن عباس له.

ثم أقول: هذه ولاية التوحيد الكامل وعلى ضوئها ولاية الرسالة المحمدية والخلافة العلوية، فلا تنافي نص الآية أن السؤال حول التوحيد! وكما يرويه أبو نعيم المحدث الأصفهاني في حلية الأولياء في تفسير هذه الآية أنه لما أسري برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأحضرت الرسل عنده قال الله تعالى: يا محمد! سلهم بماذا بعثكم الله، قالوا بشهادة ألا إله إلا الله والإقرار بنبوتك وبولاية علي عليه السلام (كفاية الخصام (ص ٣٤٨/) وفي الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ولايتنا ولاية الله وما بعث نبي إلا بها.

ومن طريق أصحابنا في تفسير القمي حدثني أبي عن الحسن بن محبوب عن أبي حمزة الثمالي عن أبي الربيع قال حججت مع أبي جعفر عليه السلام في السنة التي حج فيها هشام بن عبد الملك وكان معه نافع بن الأزرق مولى عمر بن الخطاب فقال: يا أمير المؤمنين من هذا الذي تتكافى عليه الناس؟ فقال هذا نبي أهل الكوفة محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام فقال نافع: لآتينه فلأسألنه عن مسائل لا يجيبني فيها إلا نبي أو وصي نبي أو ابن وصي فقال هشام فاذهب إليه فاسأله فلعلك تخجله فجاء نافع فاتكى على الناس ثم أشرف على أبي جعفر عليه السلام فقال: يا محمد بن علي! إني قرأت التوراة والإنجيل والزبور والفرقان وقد عرفت حلالها وحرامها وقد جئت أسألك عن مسائل لا يجيبني فيها إلا نبي أو وصي نبي أو ابن وصي نبي فرفع إليه أبو جعفر عليه السلام رأسه فقال له: سل - فقال: أخبرني كم بين عيسى ومحمد من سنة؟ فقال: أخبرك بقولي أم بقولك؟ قال أخبرني بالقولين جميعاً قال أما قولي فخمسمائة سنة وأما قولك فستمائة سنة، قال فأخبرني عن قول الله عزّ وجلّ : ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥]، من ذا الذي سأل محمد وكان بينه وبين عيسى خمسمائة سنة؟ قال: فتلا أبو جعفر عليه السلام هذه الآية ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ [الإسراء: ١] فكان من الآيات التي أراها الله محمداً صلى الله عليه وآله وسلم حين أسري به إلى البيت المقدس أن حشر الله له الأولين والآخرين من النبيين والمرسلين ثم أمر جبرائيل عليه السلام فأذن شفعاً وأقام شفعاً ثم قال في إقامته حي على خير العمل ثم تقدم محمد صلى الله عليه وآله وسلم فصلى بالقوم فأنزل الله عليه ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾: فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: على ما تشهدون وما كنتم تعبدون؟ فقالوا: نشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنك رسول الله أخذت على ذلك مواثيقنا وعهودنا، قال نافع: صدقت يا ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يا أبا جعفر أنتم والله أوصياء=

بإجابته لا يفيدان من سواه فإنه غيب حيث المؤمنون عنه بعاد فضلاً عن سواهم! وإنما هو تشريف لهم أن يسألوا وله أن يسأل.

ومن ثمّ سؤالهم عن كتبهم الناطقة - على تحرُّفها - بجوابه حيث المثات المثات من آياتها البينات إجابة له شافية: لم يجعل ﴿مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ مهما تمسّك المنحرفون من أهل الكتاب بمتشابهات من آياتها أو مختلقات، ولكنما المحكمات الثابتة منها ناطقة دون تشابه واختلاف! ودليل الفطرة والعقل يؤيدان توحيد العبادة ويرفضان شركها فإنه ظلم مستحيل على الله أن يسوي بينه وبين خلقه في العبادة.

ثم وسؤال علماء الأديان غير المنحرفين منهم والمتطرفين، وإنما الربانيون منهم وهم حضور في كل زمان: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ...﴾[1] وأهمَّ ما أنزل عليه هو التوحيد، وشكه ﷺ من باب إياك أعني واسمعي يا جارة.

وذلك السؤال في الحقلين الأخيرين استجاشة للأمم المشركة أو المتشككة أن يتساءلوا أهله عما يشركون أو يتشككون، والجواب كلمة واحدة عقلياً ونقلياً: ﴿أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾.

= رسول الله ﷺ وخلفاؤه في التوراة وأسماؤكم في الإنجيل والزبور وفي القرآن وأنتم أحق بالأمر من غيركم:

وفي الاحتجاج للطبرسي عن أمير المؤمنين عليه السلام حديث طويل يقول فيه وأما قوله: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا﴾ فهذا من براهين نبينا ﷺ التي آتاه الله إياها وأوجب به الحجة على سائر خلقه لأنه لما ختم به الأنبياء وجعله الله رسولاً إلى جميع الأمم وسائر الملل خصه بالارتقاء إلى السماء عند المعراج وجمع له يومئذ الأنبياء فعلم منهم ما أرسلوا به وحملوه من عزائم الله وآياته وبراهينه فأقروا أجمعين بفضله وفضل الأوصياء والحجج في الأرض من بعده وفضل شيعته وصيه.

(١) سورة يونس، الآية: ٩٤.

وعلّ مربع السؤال معني في أمر الرسول ﷺ ما يخصه كسؤال الحضور في معراج وغير معراج، وما يعمه وسواه كالآخرين.

وفيما يخصه نجد أبعاد الزمان والمكان وأبعاد الحياة والموت كلها تطوى وتتلاشى أمام ذلك السؤال من إمام المرسلين، فيراهم جميعاً ويسألهم ما أمره الله ويسمع الجواب الذي نجده في كتاباتهم وعلى ألسنة الربانيين من علماء أديانهم.

ثم وفي غير هذا الموقف الجماهيري الرسالي ليلة المعراج، بإمكانية الرسول ﷺ أن يواجه أي رسول أياً كان فإنهم كلهم من أمته المؤمنين به الناصرين له كما في آية الميثاق وروايته[١].

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾[٢] ففي الأمالي عن الصادق عليه السلام عن أبيه عن جده عن رسول الله ﷺ قال: أخذت من النبيين ميثاقهم بربوبيتين ونبوتك وولاية علي.

أفبعد هذا كله، يحجز الرسول عن سؤاله المرسلين المؤمنين به حاجز الزمان وحاجز المكان وحاجز الموت أمّاذا من حواجز يخرقها!

وترى أن معراجه وما سواه من آياته الكبرى اكبر أم سؤاله المرسلين في معراجه؟ طبعاً معراجه الذي حوى سؤاله، اللهم إلا آيته الكبرى: القرآن!.

---

(١) ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١] ففي الامالي عن الصادق عليه السلام عن أبيه عن جده عن رسول الله ﷺ قال: أخذت من النبيين ميثاقهم بربوبيتي ونبوتك وولاية علي.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٨١.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ
رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَـٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم
مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَـٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ
﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ
﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى
قَوْمِهِۦ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ
أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾
فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾
فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا
ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَـٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا
لِّلْـَٔاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ
﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَـٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ
خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَـٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ
﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَـٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ
لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ
ٱلشَّيْطَـٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالَ قَدْ
جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ
وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾

فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾﴾:

حلقة مختصرة غير محتصرة من قصة موسى وفرعون وحوار بينهما، بينها وبين قصة الرسول محمد ﷺ متشابهات كأنها نسخة تكرّر وأسطوانة تعاد! تدليلاً على وحدة الرسالة في جوهرتها وآياتها، ففي عرض له ﷺ تسليات واستقامات وطمأنينات.

وهنا في إرسال موسى إلى فرعون وملئه دلالة صريحة على عدم اختصاص رسالته ببني إسرائيل مهما كانوا حجر الأساس في دعوته إذ كانوا مستضعفين أمام الفرعنة الجبارة، و«آياتنا» كجمع مستغرق آيات الله كلها وكما في أخرى ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ﴾[1] هذه لا تعني كل الآيات الإلهية إلا جلّها، و«كلها» و«آياتنا» هنا وهناك تعنيان كل الآيات التي كانت تناسب ظرف الزمان وظرف المكان، وما أرسل رسول بمثل هذه المجموعة من الآيات التي تحلّق على الأرض والسماء براً وبحراً وإنساناً في مختلف الضروب والظروف! ولأنها كانت من أصعبها وأصلبها أصبحت تترى عليهم يميناً وشمالاً، ترغيباً وترهيباً لعلهم يرجعون، وجمعية أخرى لهذه الآيات أنها تجمع بين متصلة كاليد البيضاء ومنفصلة قريبة كالعصا حيث قلب حية تسعى وثعباناً مبيناً، وقلّبت الحجر اثنتي عشرة عيناً، والبحر رهواً،

(١) سورة طه، الآية: ٥٦.

وطريقاً يبساً، ثم منفصلة بعيدة هي الدم والقمل والطوفان والضفادع بآيات مفصلات تترى.

فقد أوتي إذاً آيات الله كلها بأنواعها في هذا المثلث - إلى فرعون وملئه!.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾﴾:

متظاهرين أنها ضحك السخرية والاستهانة بها، وهذه من سيرة الفرعنة الشراء، توهيناً لرسالات الله بآياتها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ﴾[1] يوم الدنيا، وأما الآخرة: ﴿فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[2].

﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾﴾:

وهذه ظاهرة مكرورة واقعة في آيات موسى.

﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾:

وكان العذاب المدعو كشفة من آل فرعون هو الرجز: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ...﴾[3].

(١) سورة المطففين، الآية: ٢٩.
(٢) سورة التوبة، الآية: ٨٢.
(٣) سورة التوبة، الآيات: ١٣٣-١٣٦.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ۝﴾:

وإلى هنا تتختم الآيات منذ حيّة العصا حتى غرقهم في اليم، يطويها طياً لعرض حوار في هذا البين، وعجب من هؤلاء النكدين الأشراس، تراهم غرقى في بلاء الآيات، وثم يستغيثون بموسى ليرفع عنهم رجز البلاء، ويعدونه بذلك الاهتداء، وهم على ما هم يتهتكون موقفه الرسالي: «أَيُّهَا السَّاحِرُ»؟! وموقف الرب «ربك» كأنه ربه لا سواه و﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ كأن عهده لا يتخطاه إلى سواه كشفاً للرجز عن هؤلاء!

فلو كان ذلك «الرجز» سحراً فلتدفعوه بسحر مثله وأنتم أهله، وإن كانت معجزة فلماذا ﴿يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ﴾؟ ومن ثم ﴿رَبَّكَ﴾ ثم ﴿عِندَكَ﴾؟ فلو كنتم من أهل الإيمان والاهتداء بالآية الإلهية فتلك هي الآية والأخيرة من الآيات كلها، فهل إن كشف الرجز آية ووقوعه سحر وليست آية؟ ولكنما الله يستجيبهم ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ﴾[1] تأكيداً للحجة وإنارة للمحجة فـ ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾[2] ومن قبل كان يعلم نكثهم بأضرابهم الأسلاف السّلاف: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[3] ﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾[4].

تلك آيات من الله وما واجهها آل فرعون فما هي الآيات الفرعونية وإجاباتها؟ إنها لا تتخطى خداعات خواء وادعاءات جوفاء وزخرفات تجلب عقول الجماهير الساذجة المخدوعة بالأبهة والبريق وزينة الحياة الدنيا.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٣٥.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٣٥.
(٣) سورة المؤمنون، الآية: ٧٥.
(٤) سورة الدخان، الآية: ١٥.

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾:

عرض تافه رخيص يواجه به آيات الله البينات ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ...﴾ وماذا يثبت له ملك مصر الذي حصل عليه بالسيف والنار، بالزور والغرور؟ وحتى إذا كان له حقاً وخيَرة من شعبه، أكلٌّ ذلك يثبت أنه إله؟ أم عبد يستغني عن الله؟ إذاً فكل ملِك إلَه، أو هو مستغنٍ عن الله! وترى من هذا الذي هباه وأعطاه؟ هل هو هو أم الله؟ فليس هو إذا بإله ولا يستغني عن الله!.

فرعون بيَّن فضله واستجاش قلوباً مستغفلة مستخفّة ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ بأبصاركم، إذ لا حاجة إلى بصيرة لهذا العرض المحسوس؟.. ومن ثم يبين مهانة موسى عنده ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ...﴾ ومهانته الأخرى عند الله ﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾؟ ويقايس بين نفسه وبين ذلك المهين ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ...﴾.

فرعون الطاغية هنا في تدجيله بين نفي وإثبات، يثبت لنفسه كلَّ أهلية ينفيها عن موسى، وينفي عن موسى ما يثبته لنفسه:

١ - ﴿لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ وموسى مهين ليس له ملك ولا هو من الطائفة الملوكية، بل من بني إسرائيل المستضعفين المستخدمين!

٢ - أنا أبين وهو لا يكاد يبين، حيث العقدة في لسانه ولا عقدة في لساني!

٣ - أنا عليّ أسورة من ذهب، ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾؟

٤ - أنا معي جندي مقترنين ولم يجيء مع موسى حتى ملائكة مقترنين.

ولكن ليس ملك مصر ولا أي ملك أوسع منه كرامة، ولا استضعاف

موسى مهانة، وأما أنك تبين وتفصح عما تريد، فماذا تبين إلا خرافات وادعاءات، وموسى الذي لا يكاد يبين على حد زعمك يبين كما يستطيع حقائق بينات.

وترى ماذا يعني ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ هل لأنه لم يكن فصيحاً كما يليق ﴿وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ﴾[1] ينطلق لسانه ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَـٰرُونَ﴾[2] أم كانت في لسانه عقدة لا ينطلق كما يحق ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾﴾[3] فقد أرسل أخاه هارون، وأحل عقدة من لسانه ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ﴾[4] فصاحة متصلة بإزالة العقدة عن لسانه، ومنفصلة بإرسال هارون وهو أفصح منه لساناً، وتعزيزاً بتأزيره بأخيه، وكل ذلك حصل.

وأما الملائكة المقترنون، فهم ليسوا معك، اللّهم إلّا شرذمة كافرة من الضالين معك، وآيات موسى التسع المقترنة به تكفيه عن إقران الملائكة، ولو اقترنوا به لكانوا في صور الرجال فما هي إذاً فائدة الاقتران؟.

وأما الأسورة من ذهب تصدّق رسالته! فهي تصدق فرعنة وَتَرفاً وقد تكذب الرسالة، حيث الرسالة الإلهية تناحر هذه الفخفخات المادية، وتشاجر المترفين ذوي الأثرة والكبرياء!.

(لقد دخل موسى بن عمران ومعه أخوه هارون عليه السلام على فرعون وعليهما مدارع الصوف وبأيديهما العصيّ فشرطاً له إن أسلم بقاء ملكه ودوام عزه فقال: ألا تعجبون من هذين؟ يشترطان لي دوام العز وبقاء الملك وهما

---

(١) سورة القصص، الآية: ٣٤.
(٢) سورة الشعراء، الآية: ١٣.
(٣) سورة طه، الآيتان: ٢٧، ٢٨.
(٤) سورة طه، الآية: ٣٦.

مما ترون من حال الفقر والذل، فهلا ألقي عليهما أساور من ذهب، إعظاماً للذهب وجمعه، واحتقاراً للصوف ولبسه، ولو أراد الله سبحانه لأنبيائه حيث بعثهم أن يفتح لهم كنوز الذُّهبان ومعادن العقيان ومغارس الجنان وأن يحشر معهم طيور السماء ووحوش الأرضين لفعل، ولو فعل لسقط البلاء وبطل الجزاء واضمحلت الأنباء، ولما وجب للقابلين أجور المبتلين ولا استحق المؤمنون ثواب المحسنين، ولا لزمت الأسماء معانيها، ولكن الله سبحانه جعل رسله أولي قوة في عزائمهم، وضعفة فيما ترى الأعين من حالاتهم، مع قناعة تملأ القلوب والعيون غنى، خصاصة تملأ الأبصار والأسماع أذى، ولو كانت الأنبياء عليهم السلام أهل قوة لا تُرام وعزة لا تُضام ومُلك تمتد نحوه أعناق الرجال وتُشد إليه عُقَد الرحال لكان ذلك أهون على الخلق في الاعتبار، وأبعد لهم من الاستكبار، ولأمنوا رهبة قاهرة لهم، ورغبة مائلة بهم، وكانت النيات مشتركة والحسنات متقسمة، ولكن الله سبحانه أراد أن يكون الاتّباع لرسله والتصديق بكتبه والخشوع لوجهه والاستكانة لأمره والاستسلام لطاعته أموراً له خاصة ولا يشوبها من غيرها شائبة، وكلما كانت البلوى والاختبار أعظم كانت المثوبة والجزاء أجزل»[١].

﴿فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾:

الاستخفاف هو طلب الخفة من ثقل، وثقل الإنسان عقله وهو إمام النواميس الخمسة في كيان الإنسان وهي العقل والدين والنفس والمال والعرض، فإذا خف العقل باستخفاف تغافلاً عنه وتنازلاً عن حكمه تخلفه الطاعة المطلقة لمن يستخف، وهو الاستحمار الذي يخلفه سائر الأبواب السبع الجهنمية من الاستثمار والاستعمار والاستكبار والاستبداد والاستضعاف، فالاستحمار وليد الاستخفاف ثم هو أم لسائر الأبواب فإذا

(١) نور الثقلين ٤ : ٦٠٦ ح ٦٦ عن نهج البلاغة عن أمير المؤمنين علي عليه السلام.

خف الإنسان عقله أمام الاستخفاف، حرماناً عن التعقل أو ابتعاداً عن حكم العقل أصبح كالريشة في مهب الرياح الاستحمارية، متخلياً عن كيان الإنسانية ككل، إلى أنزل وأنذل دركات البهيمية اللّاشعورية، وهنالك الطامة الكبرى والمصيبة العظمى! وكافة المحاولات الفرعونية في حمل قومه على طاعته تختصر في هذه الصيغة: «فاستخف»... فللمستضعفين أمام الطغاة إحدى حالات ثلاث:

المُنعة والاستقامة على موازين العقل والحكمة كالجبل الراسخ لا تحركه العواصف ولا تزيله القواصف، فلا يزيده الاستخفاف إلا قوة وسداداً، وهؤلاء هم المستضعفون المؤمنون الذين وعدهم الله خلافة الأرض ووراثتها، حيث لا يخفُّون مهما يُستخفون، بل ويزدادون ثقلاً في الإيقان وتبلوراً في الإيمان.

٢ - سفه وقلة عقل دون فسوق ولا تقصير، اللهم إلّا في مبادئه، وهنا الطاعة بالاستخفاف واقعة لا محالة، ولا ذم فيها إلّا قليلاً: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْۚ...﴾(١).

٣ - تخاذل دون تثاقل على عقل ودراية، بفسق عامد، رغم إمكانية المنعة والاستقامة: وهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾(٢).

هؤلاء هم المستخفون فسقاً حيث يخفون، يحتنكهم كل شيطان وهم له مطيعون، يحنون ظهورهم فهم عليهم راكبون ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمْ

(١) سورة النساء، الآيتان: ٩٨، ٩٩.
(٢) سورة النساء، الآية: ٩٧.

كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾! فمادة الفسق: الخروج عن حكم العقل والفطرة وعن حكم الله، تزداد فعالية لمّا يُستخف الإنسان عن أثقال الإنسانية فيخف تنازلاً عنها وتخاذلاً: فطاعة مطلقة للمستخِف المستحمر! فاستخفاف الطغاة لهذه الجماهير استحمار فاستثمار دائب لا حِول عنه، حيث يعزلون الجماهير عن أسباب المعرفة فيتناسونها حتى ينسوها، فلا يعودون ليبحثوا عنها، فلما تخلّوا عن المعرفة بأسبابها ألقوا في روعهم ما يشاؤون من بواعث الكوارث فيسهل استخفافهم ويلين سلساً قيادهم فيذهبون بهم ذات اليمين وذات الشمال حيث يلعبون بهم كالريشة في مهب الريح العاصفة.

ولما انتهت مراحل الابتلاء إلى هذا الحد من الخفة والبلاء، وقع هنالك الانتقام في الأولى قبل الأخرى.

﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾:

وهذه سنة الله بالنسبة للمستخفين الفاسقين العائشين على هوامش الفرعنات، يستدرجهم مليّاً يملي، ثم يأخذهم بغتة وكما يروى عن النبي ﷺ على ضوء هذه الآية: (إذا رأيت الله يعطي العبد ما شاء وهو مقيم على معاصيه فإنما ذلك استدراج منه له ثم تلا هذه الآية)[1].

وترى كيف بإمكان العبد أن يُؤسف ربه، وربّنا لا يأسف مهما توفرت عوامل الأسف؟ لا يعني ﴿ءَاسَفُونَا﴾ هنا إلّا أنهم عملوا الأعمال المؤسفة وهو سبب الانتقام، وأمثال هذه الأفعال تجرَّد عما لا يليق بساحة الربوبية كما الغضب وأضرابه من تغير الحال حيث (لا يتغير بانغيار المخلوقين)! فهو

(١) الدر المنثور ٦: ١٩ - أخرج أحمد والطبراني والبيهقي في الشعب وابن أبي حاتم عن عقبة ابن عامر أن رسول الله ﷺ قال..

تعالى (لا يأسف كأسفنا)[١] ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا﴾ ماضياً فيه عبرة ﴿وَمَثَلًا﴾ نموذجاً من عواقب الفسوق ﴿لِلْآخِرِينَ﴾ كمن أتوا ويأتون بعدهم من الفاسقين، وهم أمثال في رزاياهم وقضاياهم كما قومك من هؤلاء الآخرين.

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾﴾:

ترى من هنا ضارب المثل وما هو هذا المثل الذي فاجأ صِداً من هؤلاء ضجّاً وضحكاً؟![٢] ثم احتجوا بما احتجوا جدلاً وخصومة، فجاءت الإجابة ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾.؟

---

(١) نور الثقلين ٤: ٦٠٨ في كتاب التوحيد بإسناده إلى أحمد بن أبي عبد الله رفعه إلى أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥] قال: إن الله تبارك وتعالى لا يأسف كأسفنا ولكنه خلق أولياء لنفسه يأسفون ويرضون وهم مخلوقون مدبّرون فجعل رضاهم لنفسه رضىً وسخطهم لنفسه سخطاً وذلك لأنه جعلهم الدعاة إليه والأدلاء عليه فلذلك صاروا كذلك، وليس أن ذلك يصل إلى الله كما يصل إلى خلقه ولكن هذا معنى من قال من ذلك وقد قال أيضاً: من أهان لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة ودعاني إليها، وقال أيضاً: من يطع الرسول فقد أطاع الله، وقال أيضاً: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠] وكل هذا وشبهه على ما ذكرت لك وهكذا الرضا والغضب وغيرهما من الأشياء مما يشاكل ذلك ولو كان يصل إلى المكوّن الأسف والضجر وهو الذي أحدثهما وانشأهما لجاز لقائل أن يقول: إن المكون يبيد يوماً، لأنه إذا دخله الضجر والغضب دخله التغيير، فإذا دخله التغيير لم يؤمن عليه الإبادة ولو كان ذلك كذلك لم يُعرف المكوَّن من المكوِّن ولا القادر من المقدور ولا الخالق من المخلوقين تعالى الله عن هذا القول علواً كبيراً هو الخالق للأشياء لا لحاجة فإذا كان لا لحاجة استحال الحد والكيف فيه فافهم ذلك إن شاء الله.

ورواه مثله في أصول الكافي بإسناده عن حمزة بن بزيغ عنه عليه السلام: . . .

أقول: بداية الحديث لتوجيه العوام حيث «نا» في ﴿آسَفُونَا﴾ هو الله وليس أولياءه إلا بضرب من التأويل أنّ أسفهم أسف الله، وذيل الحديث لتوجيه الخواص أن أسفه يجرّد عن تغير الحال إلى عذابه الناتج عن الأسف.

(٢) الصِدُّ بالكسر هو الضج الصريخ والضحك وقد يروى كذلك عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «الصدود =

هل هو المثل المضروب بابن مريم في سورة مريم عليها السلام فإنها المكية الوحيدة التي أتت بذكر عيسى ابن مريم، حيث يُذكر مع جموع من النبيين من ذرية آدم، وتختم قصته معهم بأنه عبد أنعم عليه كما هم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ . . .﴾[1] ثم وفيها ردٌّ على الذين تبنّوا المسيح لله ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ . . . وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾[2].

فهنالك ﴿قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ﴾: ضجة وضحكة، فضجة وإنكاراً لما ضرب أنه عبدٌ وليس إلهاً ولا ابنه فلا يُعبد، وإنما هو حسب النصارى وهم أهل كتاب، إله أو ابن إله. يُعبد، ومن ثم ضحكاً: كيف أنت تصدنا عما نعبد من ملائكة وهم آلهتنا[3] وهؤلاء الكتابيون: يعبدون بشراً ﴿ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ﴾ طبعاً آلهتنا الملائكة! فأنت تصُدّنا ونحن منك نصِّد! ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ﴾ فالقرآن يضرب ابن مريم مثلاً للتوحيد، وهم يحولونه إلى مزعمة النصارى مثلاً للشرك، فمثل الحق يحوّل إلى مثل الباطل، ضجة في تحويله وضحكة من تحوّله: ﴿ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ﴾! وطبعاً آلهتهم - في زعمهم - خير من ابن مريم في زعم النصارى.

وهذا تبرير كتابي في جدلهم الخصوم أن يعبدوا آلهتهم الملائكة من دون الله! فيأتي الجواب كما لمح له في مريم ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ﴾!

= في العربية الضَّحك، معاني الأخبار للصدوق بسند متصل عنه صلى الله عليه وآله وسلم وفي الدر المنثور ٦: ٣٠ - أخرج ابن مردويه.

(١) سورة مريم، الآية: ٥٨.

(٢) سورة مريم، الآيتان: ٣٥، ٣٦.

(٣) الدليل على أن هؤلاء القوم كانوا عبدة الملائكة هنا قوله فيما بعد ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةٗ﴾ [الزخرف: ٦٠] وفيما سبق ﴿وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ﴾ [الزخرف: ١٩]: : ﴿وَقَالُواْ لَوۡ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُمۗ﴾ [الزخرف: ٢٠].

أم إن ضارب المثل هو من هؤلاء لما نزل ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾[1] قال قائلهم للرسول ﷺ: خاصة لنا ولآلهتنا أم لجميع الأمم؟ فقال ﷺ: بل لجميع الأمم! فقال: خصمتك ورب الكعبة ألست تزعم أن عيسى ابن مريم نبي وتثني عليه خيراً وعلى أمه وقد علمت أن النصارى يعبدونهما واليهود يعبدون عزيراً والملائكة يُعبدون فإذا كان هؤلاء في النار فقد رضينا نحن وآلهتنا أن نكون معهم، فسكت النبي ﷺ وفرح القوم وضحكوا وضجوا فأنزل الله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾! ونزلت هذه الآية أيضاً ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ﴾[2].

وهنالك تنقلب الحجة عكس ما مضت ﴿ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ لعله هو! فإذا هو في الجحيم فنحن وآلهتنا نرضى ذلك الجحيم!

أو أن ضارب المثل رسول الله ﷺ حيث شبه علياً عليه السلام بابن مريم كما رواه سادة أهل البيت عن علي عليه السلام قال: جئت إلى النبي ﷺ يوماً

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٩٨.

(٢) وفي الدر المنثور ٦: ٢٠ - أخرج أحمد وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال لقريش: إنه ليس أحد يعبد من دون الله فيه خير فقالوا: ألست تزعم أن عيسى كان نبياً وعبداً من عباد الله صالحاً وقد عبدته النصارى فإن كنت صادقاً فإنه كآلهتهم فأنزل الله ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ [الزخرف: ٥٧] قال يضجون وأنه لعلم للساعة قال: خروج عيسى ابن مريم قبل يوم القيامة، وفيه أخرج ابن مردويه عن ابن عباس أن المشركين أتوا رسول الله ﷺ فقالوا له: أرأيت ما يعبد من دون الله أين هم؟ قال: في النار قالوا، والشمس والقمر قال: والشمس والقمر، قالوا فعيسى ابن مريم فأنزل الله ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الزخرف: ٥٩].

أقول: وما ذكرناه في المتن تجده في تفسير الرازي ج ٢٧ ص ٢٢١ وفي هامشه: إن الرسول ﷺ رد عليه عند ذلك بقوله لابن الزبعرى: «ما أجهلك بلغة قومك، «ما» لما لا يعقل، وحينئذ فلا تقع على الذين اتخذهم الكفار آلهة من الأنبياء والملائكة والصالحين وإنما عنى من الأصنام التي عبدوها، ثم أقول: إن «ما» في ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [الأنبياء: ٩٨] يخص غير ذوي العقول فلا يشملهم إلا بدليل و﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ [الأنبياء: ١٠١] يستثني الصالحين!.

فوجدته في ملاء من قريش فنظر اليّ ثُم قال: يا علي! إنما مثلك في هذه الأمة كمثل عيسى ابن مريم عليه السلام أحبه قوم فأفرطوا في حبه فهلكوا وأبغضه قوم فأفرطوا في بغضه فهلكوا واقتصد فيه قوم فنجوا فعظم ذلك عليهم وضحكوا وقالوا يشبهه بالأنبياء والرسل فنزلت هذه الآية[1].

فالوجهان الأولان موجَّهان بالقرآن أولاً فالأول وثانياً فالثاني، وهذا الأخير موجّه وعلى هامش القرآن بالسنة[2] لا أنه المقصود فقط أم

---

(١) رواه في مجمع البيان وفي نور الثقلين ٤: ٦٠٩ عن روضة الكافي بسند متصل عن أبي بصير قال: بينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذات يوم جالساً إذ أقبل أمير المؤمنين عليه السلام فقال له رسول الله عليه السلام: إن فيك شبهاً من عيسى ابن مريم لولا أن تقول فيك طوائف من أمتي ما قالت النصارى في عيسى ابن مريم لقلت فيك قولاً لا تمر بملإٍ من الناس إلا أخذوا التراب من تحت قدميك يلتمسون بذلك البركة قال: فغضب الأعرابيان والمغيرة بن شعبة وعدة من قريش معهم فقالوا: ما رضي أن يضرب لابن عمه مثلاً إلا عيسى ابن مريم فأنزل الله على نبيه صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾.. وفي كتاب الخصال في احتجاج علي عليه السلام على الناس يوم الشورى قال: قال: نشدتكم باللّه هل فيكم أحد قال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم احفظ الباب فإن زواراً من الملائكة يزورني فلا تأذن لأحد فجاء عمر فرددته ثلاث مرات وأخبرته أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم محتجب وعنده زوار من الملائكة وعدّتهم كذا وكذا ثم أذن فدخل فقال: يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم! إني جئتك ثلاث مرات غير مرة وكل ذلك يردني علي ويقول: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم محتجب وعنده زوار من الملائكة وعدتهم كذا وكذا فكيف علم بالعدة، أعاينهم! فقال: يا علي! كيف علمت بعدتهم؟ قلت: اختلفت علي التحيات وسمعت الأصوات فأحصيت العدد قال صلى الله عليه وآله وسلم صدقت فإن فيك شبهاً من أخي عيسى فخرج عمر وهو يقول: ضربه لابن مريم مثلاً فأنزل الله: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ [الزخرُف: ٥٧]. غيري؟ قالوا: اللهم لا. وفي مناقب ابن شهر آشوب، قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم يدخل من هذا الباب رجل أشبه الخلق بعيسى فدخل علي عليه السلام فضحكوا من هذا القول فنزلت هذه الآية:

(٢) أخرج في كفاية الخصام بهذا الصدد عشرين حديثاً (١٣) منه من طريق إخواننا والباقية من طرقنا وممن رواه من إخواننا الحافظ أبو نعيم الأصفهاني في كتابه نزول القرآن في علي عن ربيعة بن ناجد عن علي عليه السلام انها نزلت في شأنه، ومحمد بن العباس بسنده عن ابن عباس وعبد الله بن أحمد بن حنبل بسنده عن الشعبي وبسنده عن علي عليه السلام ومحمد بن قاسم بسنده عن ربيعة بن ناجد عن علي عليه السلام، وفي ملحقات إحقاق الحق ٣: ٣٩٨ ورواه أحمد بن=

بالأصالة، وإنما تأويلاً يلائم القرآن حيث الجواب عن صدهم ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ﴾ لا يناسب نصاً إلّا الأولين، والأخير يناسب التأويل بتأويل الدليل! ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ : إن المثل الذي ضرب بابن مريم نحن ضربناه حقاً وأنت، وهم ضربوه لك جدلاً ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾.

فلو كان الجدال بحق وإلى حق فبالتي هي أحسن: ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[1] وإن كان بباطل وإلى باطل فهي أسوأ الجدال، أم بباطل إلى حق أو حق إلى باطل فهو سيئ وليس إلّا خصومة للحق[2].

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾.

= حنبل في فضائل الصحابة ١٧٢ والنسائي في الخصائص ٣٩ ومحب الدين الطبري في ذخائر العقبى ٩٢ وابن عبد ربه الأندلسي في العقد الفريد: ١٩٤ وابن مردويه في المناقب كما في كشف الغمة ٩٥ وابن حجر الهيثمي في الصواعق ١٢١ والسيوطي في تاريخ الخلفاء ١١٧ والمتقي الهندي في منتخب كنز العمال بهامش المسند ٥: ٣٤ والمير محمد صالح الكشفي الترمذي في مناقب مرتضوي ٥٨ والقندوزي في ينابيع المودة ١٠٩، ومنهم سعيد بن الحسني وسفيان بن وكيع وابن عقدة وعبد الله بن أحمد وابن الصلت والوكيع وأحمد بن القاسم كما في البحار ٩: ٦٠ - ٦٢.

(١) سورة النحل، الآية: ١٢٥.

(٢) الدر المنثور ٦: ٢١ - أخرج سعيد بن منصور وأحمد وعبد بن حميد والترمذي وصححه وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي أمامة قال قال رسول الله ﷺ: ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل ثم قرأ: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨] وفيه أخرج سعيد بن منصور عن أبي إدريس الخولاني قال قال رسول الله ﷺ: ما ثار قوم فتنة إلّا أوتوا بها جدلاً وما ثار قوم في فتنة إلا كانوا لها حرزا، وفيه أخرج ابن عدي والخرائطي في مساوي الأخلاق عن أبي أمامة قال قال رسول الله ﷺ: إن الكذب باب من أبواب النفاق وإن آية النفاق أن يكون الرجل جدلاً خصماً.

ويروي ابن جرير الطبري في جامع البيان بسند متصل عن أبي أمامة قال: إن رسول الله ﷺ خرج على الناس وهم يتنازعون في القرآن فغضب غضباً شديداً حتى كأنما صب على وجهه الخل ثم قال ﷺ: لا تضربوا كتاب الله بعضه ببعض فإنه ما ضل قوم قط إلا أوتوا الجدل ثم تلا ﷺ: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ﴾ لا إله أو ابن إله حتى يقاس بآلهتكم أيهما خير فليس العبد إلا ابن عبد ﴿أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ بما أنعمنا، كما بيّن في مريم ﴿وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا﴾ آية بنفسه حيث ولد دون أب، وآية برسالته وآياتها، مثلاً إلهياً فـ ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[١] والمسيح من المثل الأعلى في الأرض ﴿مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ كحجر الأساس في رسالته ودعوته ثم وللعالمين أجمعين، فنحن جعلناه مثلاً لنا، ثم جماعة جعلوه لنا مِثلاً فنسوا المثلُ وضلوا في المِثل!:

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ ۖ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾﴾:

أنتم البشر تعبدون الملائكة لكونهم ملائكة؟ ﴿وَلَوْ نَشَاءُ﴾ ولن ﴿لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً﴾ أن نبدلكم ملائكة، أو نجعلكم في عصمتهم وطهارتهم كملائكة ﴿فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ كونهم أناسي من قبل، ويخلف بعضهم بعضاً بالتناسل!

إذاً فأنتم تعبدون أمثالكم، ومن بالإمكان تبديلكم بهم.

﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ وما هو المرجع لضمير الغائب في «إنه»؟ هل هو المسيح عليه السلام في خارقة ولادته عِلمٌ للساعة الخارقة عندكم، وكذلك في سائر خوارقه ولا سيما إحياء الموتى؟ أو أنه في نزوله آخر الزمان فإنه من أشراط الساعة[٢]؟ وهو كذلك في كل ذلك! أو أن القرآن بما هو خاتمة

---

(١) سورة الروم، الآية: ٢٧.

(٢) الدر المنثور ٦: ٣٠ - أخرجه الفريابي وسعيد بن منصور ومسدد وعبد بن حميد وابن أبي حاتم والطبراني من طرق ابن عباس «قال: خروج عيسى قبل يوم القيامة «وأخرج عبد بن حميد عن أبي هريرة في الآية قال: خروج عيسى يمكث في الأرض أربعين سنة تكون تلك=

الوحي في آخر الزمان لعلم للساعة؟ وهو كذلك! أو أن نزول الملائكة إلى الأرض علمٌ للساعة ﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾﴾(1)؟

كل ذلك عِلمٌ للساعة فكلٌّ محتمل والجمع أجمل على درجاتٍ لهذه المحتملات ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾!

إنه لعلم للساعة، لا إله الساعة أو الدنيا أمّا ذا، وإنما مثلٌ للعالمين يوم الدنيا وعلمٌ للساعة فلا تمترن بها! ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

صدٌّ متأكد للشيطان عليكم فـ ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ﴾ وعداءٌ متأكدة له عليكم يبينه لكم ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾﴾:

بينات عيسى التي جاء بها هي الآيات المعجزة البينة وآيات الإنجيل

= الأربعون أربع سنين يحج ويعتمر، وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد قال: آية للساعة خروج عيسى ابن مريم قبل يوم القيامة وأخرجه عبد بن حميد وابن جرير عن الحسن مثله.

وفي مجمع البيان قال ابن جريح أخبرني أبو الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول: ينزل عيسى ابن مريم فيقول أميرهم: تعال صلّ بنا فيقول إن بعضكم على بعض أمراء تكرمة من الله لهذه الأمة - أورده مسلم في الصحيح وفي حديث آخر: كيف أنتم إذا نزل فيكم ابن مريم وإمامكم منكم؟ وأخرج مالك والشيخان وأبو داود عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها، أقول: وحديث نزول المسيح عليه السلام تواتر عن طريق الفريقين وأنه يصلي خلف المهدي عليه السلام وفي قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٥٩] دلالة قوية على هذا النزول.

(1) سورة الحجر، الآيتان: ٧، ٨.

وآيات من نفسه المقدسة حيث التربية والعناية الإلهية بيّنة في هذه الثلاث وإن كانت درجات، ﴿قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ﴾ وهذه كلها حكمة والرسالة كلها حكمة عقلية وعلمية وعملية، تُحكم ما انفصل وفصَل بين الناس، أو بين الإنسان ونفسه من المشككات ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ فالكل موكول إلى خاتمة الرسالات محمد ﷺ كما ينطق به القرآن: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾[1] [2] وينطق به الإنجيل كما في يوحنا (١٦: ٧ - ١٥) ومما فيه «وإن عندي كثيراً أقوله لكم ولكنكم لا تطيقون حمله الآن (١٢) ولكن متى جاء روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق»[3]!

ثم الحكمة هي الناحية الإيجابية من الشرعة الإنجيلية «ولأبين:» من الناحية السلبية التي تتكلف بيان جذور من الخلافات والانشقاقات بينهم

(١) سورة النحل، الآية: ٨٩.

(٢) نور الثقلين ٤: ٦١١ عن بصائر الدرجات علي بن إسماعيل عن محمد بن عمرو الزيات عن عبد الله بن وليد قال قال لي أبو عبد الله عليه السلام: أي شيء يقول الشيعة في عيسى وموسى وأمير المؤمنين عليه السلام: قلت: يقولون إن عيسى وموسى أفضل من أمير المؤمنين عليه السلام قال: أيزعمون أن أمير المؤمنين قد علم ما علم رسول الله ﷺ؟ قلت: نعم - ولكن لا يقدمون على أولي العزم من الرسل أحداً قال أبو عبد الله عليه السلام؟ فخاصمهم بكتاب الله قلت: وفي أي موضع منه أخاصمهم؟ قال: قال الله تبارك وتعالى لموسى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأعرَاف: ١٤٥] علمنا أنه لم يكتب لموسى كل شيء وقال الله تبارك وتعالى لعيسى: ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ [الزّخرُف: ٦٣] وقال تبارك وتعالى لمحمد ﷺ: ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النّحل: ٨٩].
وفي الاحتجاج للطبرسي عن الصادق عليه السلام يستدل بدلاً عنها: وقال لصاحبكم أمير المؤمنين عليه السلام: قل كفى بالله شهيداً، بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب، و﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعَام: ٥٩] وعلم هذا الكتاب عنده.

(٣) أوردنا في كتابنا رسول الإسلام في الكتب السماوية بشارات ثلاث من يوحنا ١٤: ١٦ و١٥: ١٦: ٧ - ١٥: يبشر فيها المسيح بمجيء بريكليطوس «محمد - احمد» ومن ضمنها أنه يرشدكم إلى جميع الحق - راجع ص ١٤٦ - ١٥٧.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: في سلبياته ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ في حِكَمه الإيجابية ومنها ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ سواء ولا أمتاز عنكم بربوبيته، فأنا وأنتم عبيد رب واحد «فاعبدوه» لا سواه ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ لا سواه ولكن.

﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ أحزاب مذهبية متخلفة عن شرعة الحق، كان من بين هؤلاء اختلفوا في البينات والحكم والبيان التي جاء بها المسيح ظلماً ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ بين قائل إنه الله، وقائل إنه ابن الله، وقائل بالثالوث، وقائل بألوهية المسيح وأمه وآخرين في أخريات من العقائد والطقوس تأتي في طيات آياتها المفصلات[١].

جاء المسيح بصراح التوحيد والتسامح الروحي والخلقي قبل الشكليات الخاوية التي تخلت عن هذه الروح فحاربه المحترفون الناكرون له وجماعة من المعترفين إياه، تفريطاً من هؤلاء وإفراطاً من أولاء، فأصبح بين من يلعنونه ومن يؤلهونه على مختلف مذاهبهم الفلسفية وسواها، وبقي القليل

(١) شرحناها في كتبنا الثلاثة «عقائدنا - المقارنات - رسول الإسلام في الكتب السماوية»: ومن هؤلاء الأحزاب طائفة الصدوقيين التي تولت الكهانة من عهد داود وسليمان وهم حسب اعترافهم كانوا متشددين في شكليات العبادات وطقوسها وينكرون البدع وهم مترخصون في ملاذ الحياة ناكرون للقيامة.
وطائفة الفريسيين وكانوا على شقاق مع الصدوقيين ينكرون ذلك التشدد وجحدهم للقيامة، والسمة الغالبة عليهم هي الزهد والتصوف وفي بعضهم اغترار بالعلم والمعرفة والمسيح ينكر عليهم تلك الخيلاء والشقشقة.
وطائفة السامريين وكانوا خليطاً من اليهود والآشوريين تدين بالكتب الخمسة في العهد القديم المعروفة بالكتب الموسوية وتنفي ما عداها من المضافات إليها.
وطائفة الآسين أو الأسينيين وكانوا متأثرين ببعض المذاهب الفلسفية يعيشون عزلة عن سائر طوائف اليهود ويأخذون أنفسهم بالشدة والتقشف:
وهناك غير هذه الطوائف نحل فردية شتى وبلبلة في الاعتقادات والتقاليد بين بني إسرائيل الراضخين لضغط الإمبراطورية الرومانية الذين ينتظرون الخلاص على يد المخلص المنتظر من الجميع.

ممن وفى لرعاية الحق وهم الموحدون المخلصون حيث اتبعوه وتعرضوا لأنواع العقوبات من قبل الأحزاب!

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾﴾:

﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾: - نظراً أو نظرة - أمراً «إلا الساعة» فإنهم ناكرون كافة الإنباءات الغيبية والآيات الإلهية فلم تبق ﴿إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ مباغتة مفاجئة تحدث غريباً فهم كانوا يرونها بعيداً ونراه قريباً ﴿تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ لا واقع الساعة ولا اعتقاد مجيئها، لا شعورية في بعدين، عامدة إذ لم يشعروها في حياة التكليف حيث لم يعتبروا ويستدلوا بآياتها ولم تنفعهم مؤشراتها، وغير عامدة إذ «لا تأتيكم إلا بغتة» دون خبرة سابقة بزمن وقوعها، أو أمارات متصلة بوقوعها، وإنما هي مباغتة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾! وان كانت مؤشرة بأشراطها وهم يتغافلونها!

﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ ترى ولماذا هنا الأخلاء[1] دون الأصدقاء أو الأودّاء؟ علّه لأن الخلة هي قمة الصداقة والمودة لحد يخل الخليل في خليله كأنهما نفس واحدة، أو تخل المودة بينهما وفي كل منهما فإذا أصبحت الأخلاء أعداء فمَن دونهم أولى بالعداء! فكل خلة بين الأخلاء نبعت ونبتت على غير تقوى تبوء يومئذ إلى العداء حيث تبنّتها الطغوى، ولماذا إلى العداء دون أن تحبط فلا خلة ولا عداء؟ لأنها حصلت على ضلال، ونبتت وقويت على ضلال، فأصبحت مضللة

(١) الأخلاء جمع لخليل من الخلة: ما يغطى به جفن السيف لكونه في خلالها، أو الخلة: المودة لأنها تتخلل في جوانح الموادين وبينهم فلا تبقي فراغاً للعداء.

لكلٍّ خليله، فلا يتلاحمون عليها يومئذٍ بل ويتلاومون ويتلاعنون، يلقي كلٌّ على خليله تبعة ضلاله، فالخلة التي تجمع بين الأخلاء هنالك تجمح بينهم، فقد كانت ظاهرها فيها الرحمة وباطنها من قبلها العذاب.

وهكذا يكون دور كل خلة واتصالة على غير تقوى حيث تبوء إلى عداء، وأما خِلة التقوى فهي تبقى هنالك وتقوى حيث هنالك حياة الربوة والمزيدة: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾[1]! فـ «إذا كان يوم القيامه انقطعت الأرحام وقلت الأنساب وذهبت الأخوة إلا الأخوة في الله..»[2] (ألا كل خلة كانت في الدنيا في غير الله عزّ وجلّ فإنها تصير عداوة يوم القيامة)[3] (وللظالم غداً يكفيه عضه يديه وللرجل وشيك وللأخلاء ندامة إلا المتقين)[4] فـ (اطلب مواخاة الأتقياء، ولو في ظلمات الأرض وإن أفنيت عمرك في طلبهم فإن الله لم يخلق أفضل منهم على وجه الأرض بعد النبيين عليهم السلام وما أنعم الله على عبد بمثل ما أنعم به من التوفيق لصحبتهم، وأظن من طلب في زماننا هذا صديقاً بلا عيب بقي بلا صديق)[5].

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٦٠.

(٢) الدر المنثور ٦: ٢١ - أخرج ابن مردويه عن سعد بن معاذ قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.. وفيه استناده في قوله إلى الآية.

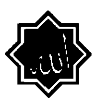
(٣) نور الثقلين ٤: ٦١٢ عن تفسير القمي عن الصادق عليه السلام وعن أمير المؤمنين عليه السلام.

(٤) المصدر السابق نفسه.

(٥) المصدر ح ٨٣ في مصباح الشريعة قال الصادق عليه السلام: ويستند الإمام بالآية بعد «الصحبتهم».

وفي الدر المنثور ٦: ٢١ - أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وحميد بن رنجويه في ترغيبه وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه في شعب الإيمان عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه في قوله: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧] ومن طريق أصحابنا القمي بسند متصل عن الحارث عن علي عليه السلام قال.. أقول بين النقلين اختلافات لفظية والمعنى واحد وما يأتي من طريق القمي لأنه أضبط وأجمل: قال في الخليلين مؤمنين وخليين كافرين ومؤمن غني ومؤمن فقير وكافر غني وكافر فقير، فأما الخليلان المؤمنان فتخالا في حياتهما =

هنا نعرف أن الخلة المنفية يوم القيامة والشفاعة ليست عن المتقين ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[1].



= في طاعة الله تبارك وتعالى وتباذلا عليها وتوادا عليها فمات أحدهما قبل صاحبه فأراه الله في منزله في الجنة يشفع لصاحبه فيقول: يا رب خليلي فلان كان يأمرني بطاعتك ويعينني عليها وينهاني عن معصيتك فثبته على ما ثبتني عليه من الهدى حتى تريه ما أريتني فيستجيب الله له حتى يلتقيا عند الله عزوجل فيقول كل واحد منهما لصاحبه: جزاك الله من خليل خيراً كنت تأمرني بطاعة الله وتنهاني عن معصيته، وأما الكافران فتخالا بمعصية الله وتباذلا عليها وتوادا عليها فمات أحدهما قبل صاحبه فأراه الله تبارك وتعالى منزلته في النار فقال: يا رب خليلي فلان كان يأمرني بمعصيتك وينهاني عن طاعتك فثبته على ما ثبتني عليه من المعاصي حتى تريه ما أريتني من العذاب فيلتقيان عند الله يوم القيامة يقول كل واحد منهما لصاحبه: جزاك الله من خليل شراً كنت تأمرني بمعصية الله وتنهاني عن طاعة الله ثم قرأ الآية. . . أقول: وأخرج مثله في المعنى عبد بن حميد عن قتادة في الآية قال: وذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول: الأخلاء أربعة مؤمنان وكافران. .

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٤.

﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ٧٢ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾

﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾:

إلى هنا كانت التهديدات تتلاحق على غير العباد، ومن هنا البشارات المتلاحقة للعباد ﴿يَٰعِبَادِ﴾! صيغة صيغت في سائر القرآن لعباد الله الصالحين: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾[1] عباد منحصرون في الله منحسرون عما سوى الله ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ مما يحصل، ﴿وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ مما حصل قبل اليوم، فحاضركم لا يخيف وماضيكم لا يحزن، حيث الإيمان كان قيد الفتك، والإسلام بعده خروج عن أسر الهوى إلى حرية الهدى.

وترى ما هو الإسلام في تداومة طول حياة الإيمان ﴿وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾ والإيمان حاصل قبله بداية الإسلام، والإسلام هو دوماً قبل الإيمان؟

هنالك إسلام قبل الإيمان ولمّا يدخل الإيمان في القلب، وهو الإسلام الظاهر على اللسان أم وعلى الأركان، ومن ثم إيمان حيث يدخل الإسلام في الجنان، ثم هنالك اطمئنان للإيمان الإسلام في القلب يعيشه المؤمن طول حياة الإيمان، إسلاماً لوجهه كل وجهه لله ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾[2].

إذاً فالإسلام الثاني هو ثنيّ الإيمان وكماله وهو أحسن الدين ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾[3] وعلى هذا الضوء فالرسول ﷺ وهو أوّل العابدين هو أول من أسلم ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾[4]!.

(١) سورة الزمر، الآية: ١٧.
(٢) سورة لقمان، الآية: ٢٢.
(٣) سورة النساء، الآية: ١٢٥.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٤.

وهناك سلبية الخوف الحزن من سمات ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾ فلرب مؤمن لم يسلم فعليه خوف وحزن قدر ما لم يسلم رغم إيمانه ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[1] لا يخلصون لله ويسلمون!.

ويا لهذا الخطاب الحنون من عطف منون أن يخاطبنا ربنا بنفسه دون وسيط كأننا من رسله، وتشريفنا بعبوديته الخاصة وهو أعلى تشريف كما ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾[2] ومن ثم إضافة ضيافته ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ بداية الورود ولمّا، ولكيلا يطمع غيرهم فيتحسرون، وليطمح المؤمنون يواصف «عباد» بـ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾ وثم أمر بالدخول في ضيافته للمؤمنين الأصلاء وأتباعهم:

﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾﴾:

تسرون سروراً يشمل أعطافكم ويبدو عليكم الحبور والسرور[3] ترى هؤلاء العباد الصالحون يدخلون الجنة بما قدموا، فلماذا أزواجهم؟ فهل هن مؤمنات كما هم مؤمنون؟ فـ ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾ تشملهن، حيث «عباد... ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾ تشمل إناثهم كذكرانهم سواء! وإلّا؟ فكيف تدخل غير المؤمنات مع الأزواج المؤمنين جنتهم! وهنالك الصِّلات منقطعات إلّا صلات إيمان، لا خلّات ولا شفاعات ولا أنساب ولا أية صِلات إلّا للمتقين!

---

(١) سورة يوسف، الآية: ١٠٦.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ١.

(٣) الحبور هو السرور الذي يظهر أثره وحباره في الوجه والحبرة الزينة وحسن الهيئة. وفي نور الثقلين ٤: ٦١٣ ح ٨٥ في روضة الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال لأبي بصير: يا أبا محمد! صرتم عند أهل هذا العالم شرار الناس وأنتم والله في الجنة تحبرون وفي النار تطلبون وفي رواية بصائر الدرجات عنه عليه السلام إضافة «فلا توجدون».

الجواب إن الأزواج هنا الأقران في الإيمان إلّا أنهم أتباع، سواء أكانوا زوجاتهم أم الأغارب، ذكراناً وإناثاً، فهم كلهم من أزواجهم: القرناء الأتباع كما في الذريات: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾[1] [2]، كما وفي أهل النار: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾﴾[3]:

﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾﴾:

﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾﴾[4] هم أمّن ذا؟ من ذرياتهم وأزواجهم! ﴿بِصِحَافٍ﴾: قصع أو أصغر ﴿مِّن ذَهَبٍ﴾ وما ألطفها وأسماها ﴿وَأَكْوَابٍ﴾ جمع كوب: كوز لا عروة له، تلك للطعام وهذه للشراب.

ثم وكنعيم شامل في بعدين:- ١ - ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾. -٢ - ﴿وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾! إن لأسفل أهل الجنة فوق ما نتصوره من نعيم مقيم فضلاً عمن فوقهم[5] وترى ﴿مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ

(١) سورة الطور، الآية: ٢١.
(٢) راجع سورة الطور حول الآية في الفرقان.
(٣) سورة الصافات، الآيتان: ٢٢، ٢٣.
(٤) سورة الواقعة، الآيتان: ١٧، ١٨.
(٥) الدر المنثور ٦: ٢٢ - أخرج عبد بن حميد عن عكرمة قال قال رسول الله ﷺ . . . إن أدنى أهل الجنة منزلة وأسفلهم درجة لا يدخل بعده أحد يفسح له في بصره مسيرة عام في قصور من ذهب وخيام من لؤلؤ ليس فيها موضع شبر إلا معمور يغدى عليه كل يوم ويراح بسبعين ألف صحفة في كل صحفة لون ليس في الآخر مثله شهوته في آخرها كشهوته في أولها لو نزل به جميع أهل الأرض لوسع عليهم مما أعطى لا ينقص ذلك مما أوتي شيئاً.

﴿ٱلۡأَعۡيُنُۖ﴾ تعم كل المشتهيات والملذات؟ ﴿وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ﴾[١] ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾[٢]؟!.

أقول: نعم حيث الأنفس هناك طيبة لا تشتهي إلّا الطيبات دون شقاء ولا عناء، فإذا اشتهى ولداً لم يحمَّل حِمل التوليد والتربية، ولا الوالدة حِمل الحمل، فقد يخلق الله له ما يشتهيه من دون حمل ولا ولادة[٣] أم بهما دون حِمل ولا عناء، ولا طول زمان[٤] تلك الأنفس لا تشتهي ذوات البعل من نساء الجنة، إذ تتهيأ لها ما تشاء ولا تشاء دعارة ولا تحتاجها أمّا ذا من مشتهيات كاذبة أم ظالمة، وإنما طيبات ملذات دونما عناء ولا تنازعات وإيذاءات! إذ ﴿وَيُخۡرِجۡ أَضۡغَٰنَكُمۡ﴾[٥] وليست الجنة دار المنازعات والمشاجرات فـ ﴿فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ﴾ دونما دناءة في خيانة واعتداء على الآخرين، ولا ابتغاء شهوة رذيلة، فكلها فضيلة لا تحوي محرمات ذاتية والمحرمات المصلحية لا مجال لها في الجنة حيث النعمة المستطابة المتوفرة هناك لا تسمح لشهوة كاذبة أمّاذا في غير فضيلة!

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٢.
(٢) سورة فصلت، الآية: ٣١.
(٣) نور الثقلين ٤: ٦١٣ ح ٨٧ في كتاب الاحتجاج للطبرسي عن الحجة القائم عليه السلام وفيه سئل عليه السلام عن أهل الجنة هل يتوالدون إذا دخلوها أم لا؟ فأجاب عليه السلام: إن الجنة لا حمل فيها للنساء ولا ولادة ولا طمث ولا نفاس ولا شقاء بالطفولية وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين كما قال الله سبحانه فإذا اشتهى المؤمن ولداً خلقه الله عز وجل بغير حمل ولا ولادة على الصورة التي يريد كما خلق آدم عليه السلام عبرة.
أقول: نفي الولادة هنا يعني الولادة الصعبة وشقاء الطفولة وكما في حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم التالي:
(٤) الدر المنثور ٦: ٢٣ - أخرج أحمد وهناد والدارمي وعبد بن حميد والترمذي وحسن وابن ماجة وابن المنذر وابن حبان والبيهقي في البعث عن أبي سعيد الخدري قال: قلنا يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إن الولد من قرة العين وتمام السرور فهل يولد لأهل الجنة؟ فقال: إن المؤمن إذا اشتهى الولد في الجنة كان حمله ووضعه وسنه في ساعة واحدة كما يشتهي.
(٥) سورة محمد، الآية: ٣٧.

وهنالك أحاديث عن الرسول ﷺ يبين فيها مدى المشتهيات والملذات في الجنة أنها لا تقف لحد إلّا أنها كما تطيبه النفوس الطيبة[(١)].

﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾﴾:

﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾[(٢)] ﴿وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[(٣)].

هنا ميراث للمستضعفين المتقين يوم الدنيا ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا﴾[(٤)] ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[(٥)] ويعني إخراج الأرض من حكم المستكبرين وتحويلها للمستضعفين، فهل هكذا يورثون الجنة ولا شركة فيها ولن، فضلاً عن أن المستكبرين كانوا زمناً محتليها حتى تحوّل إلى المستضعفين؟ وليس الميراث إلّا انتقالاً لدُولة أم دَولة أم ماذا من شخص أو أشخاص إلى آخرين!

علّه لأن الله تعالى خلق كلًّا من الجنة والنار على سعة العالمين، فأهل الجنة يورثونها بتقواهم، وأهل النار يحرمونها بطغواهم، وكان لهم فيها أمكنة ودور، وكما يروى عن الرسول ﷺ: «ما من أحد إلّا وله منزل في الجنة ومنزل في النار فالكافر يرث المؤمن منزله في النار والمؤمن يرث الكافر منزله في الجنة وذلك قوله: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ...﴾[(٦)].

---

(١) راجع الدر المنثور ٦: ٢٣ - ٢٤:
(٢) سورة مريم، الآية: ٦٣.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ٤٣.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٣٧.
(٥) سورة الأعراف، الآية: ١٢٨.
(٦) الدر المنثور ٦: ٢٣ - أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال:

كما وأن ما يتركه الميت هو لكل ولده ويحرم الولد الكافر ويرثه في نصيبه الولد المؤمن، فإن آمن الكافر قبل القسمة يؤتاه نصيبه، فمن مات مؤمناً دخل الجنة وأورث ما كان لغير المؤمن، وأما من يموت كافراً فلات حين مناص إذ فات زمن الخلاص وقد كانوا داخليها لو آمنوا!

﴿لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾: كثيرة لا تفنى بأكلها بل «منها» تلميحاً مليحاً أنها باقية لا تنفد مهما كثر الأكل والآكلون!

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾﴾:

أصل الجرم قطع الثمرة عن الشجرة، والمجرم هو ذو جرم: إن سنته في الحياة هي قطع ثمرة الحياة وبترها، فلا تفيد يوم الأخرى، ولا الدنيا إلا قضاء شهوات، هم: ﴿فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾: ماكثون طويلاً قدر إجرامهم ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾ ما يستحقونه ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾: آيسون هنا ساكتون عن الخروج وتفتّر العذاب، فإنهم من الآبدين: أبد النار، وهل ينقضي منهم عمرٌ؟ أو «لا ينقضي منهم عمرٌ أبداً»[1] قضية العدل والرحمة الإلهية والجزاء الوفاق لأخلد الخالدين وهم الآبدون أن يفنوا بفناء النار، وعدم الفناء فيما يروى يعني مع بقاء النار حيث الأدلة القاطعة تدلنا على فنار النار بمن في النار!

﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾﴾:

حيث خلّدوا في جهنم بما ظلموا، وأما إذا ظلّوا فيها إلى غير نهاية،

(١) نور الثقلين ٤: ١٤ ح ٨٩ القمي عن أمير المؤمنين عليه السلام: «و أما أهل النار فخلدهم في النار وأوثق منهم الأقدام وغل منهم الأيدي إلى الأعناق والبس أجسادهم سرابيل القطران وقطعت لهم منها مقطعات من النار هم في عذاب قد اشتد حره ونار قد أطبق على أهلها ما يفتح عنهم أبداً ولا يدخل عليهم ريح أبداً ولا ينقضي منهم عمر أبداً العذاب أبداً شديد والعقاب أبداً جديد لا الدار زائلة فتفنى ولا آجال القوم تقضى» أقول: عدم زوال الدار هنا يعني قبل زوال الأعمار، وعدم انقضاء الآجال يعني قبل فناء النار.

وهم بأجرامهم لهم نهاية، فإنه ظلم بجزاء غير وفاق، فنفي الظلم هنا في خلود النار وإبلاسهم في النار دليل لا مرد له على فناء النار ففناء من في النار.

﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ٧٧﴾:

صيحة متناوحة من مكان سحيق، لا طلباً للبراءة فهم عارفون ألّا براءة لهم، ولا تخفيفاً فإنهم مبلسون، وإنما يصيحون مستغيثين في طلب الهلاك السريع الذي يريح فلا يحسوا بعدُ عذاباً، أم قضاء الخروج دون مكوث أمّاذا غير المكوث، ولماذا لا يطلبون الرب دون وسيط، إذ ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾[1] ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾[2]! و«مالك» ليس إلّا هنا وفي ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ وهو هنا مالك النار بما ملّكه الله كما يراه، فلا يملك لأهل النار أو عليهم حكماً إلّا من اللّه، لذلك يتطلبون قضاءهم منه من ربه، وفي ﴿رَبُّكَ﴾ هنا تلميحة بهذه الأصالة في ربوبية النار، وأخرى أنهم يرونهم منقطعين عن الرب و﴿وَنَادَوْاْ ... رَبُّكَ﴾ وثالثة كأنهم يحاكون ما كانوا عليه يوم الدنيا من نكران ربوبيته العامة أم أصلها، فجاء الجواب الحاسم دون تأخير ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ فلا خروج عن النار، فإنهم الذين لا يخرجون عن النار مهما فنوا بفناء النار![3] وقد يعني المكوث هنا الخلود آبداً وغير آبد، فالإبلاس أيضاً إياس عن تفتّر العذاب وعن الخروج قبل أمده أو مطلق الخروج، وليناسبه قوله تعالى:

﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ٧٨﴾:

فالأكثرية الكارهة للحق من أهل النار هم الآبدون دون خروج، والأقلية

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ١٠٨.

(٢) سورة المطففين، الآية: ١٥.

(٣) فمن أهل النار من يخرج قبل فناء النار وهم غير المؤبدين من أهل النار، وهنا المعنيون بالمجرمين هم المؤبدون لا كل أهل النار.

غير الكارهة، بل المضلَّلة تقصيراً في تحري الحق، دون كراهة للحق فيرفضوه كراهية، ولا محبة له فيتحروا عنه حباً، هذه القلة كافرةً وفاسقةً تخلّد في النار دون أبدٍ، فإنهم كانوا على هوامش الضلالة، لا أُصلاء ولا دعاة إليها إلا جهلاً دون كراهية وعناد للحق!:

وهذه قضية عدله سبحانه ألّا يسوي بين أهل النار كما لا يسوي بين أهل الجنة، فلكلّ ما أحسن قدره، وعلى كلّ ما أساء قدره ولا يظلمون فتيلاً!: ولا نجد أكثرية كارهة للحق يوم الدنيا: وإن كان ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾[1] اللهم الأكثرية خاصة ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾[2] فالأكثرية الكارهة للحق هنا هي من بين من ﴿يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾ لا كل الناس ولا كل الكافرين، فطالما الأكثرية من الناس غير شاكرة، فهي جاهلة فاسقة كافرة لا تؤمن وهي مضلّلة عن سبيل الله أم أيّة دناءة وانجراف، ولكنما القليل منها كارهة للحق ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[3] فهم مضللون والكثير منهم يجهلون فيضلّلون ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾[4] إعراضهم عن الباطل إذ تصوّر لهم الحق بصورة الباطل!

وقد يعني «كم» في «أكثركم» عامة المكلفين، فأكثرهم متخلفون عن فطرة التوحيد، فهم له ولسائر الحق كارهون؟ إلّا أن «كم» هنا يخص المنادين مالكاً في الجحيم، والأكثرية ليسوا للحق كارهين، بل هم الضالون، وقليل منهم مستكبرون وهم للحق كارهون، وكثير مستضعفون ضالون بإضلالهم.

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٢٤.
(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٧٠.
(٣) سورة النمل، الآية: ١٤.
(٤) سورة الأنبياء، الآية: ٢٤.

وهل إن ﴿جِئْنَٰكُم﴾ من كلام «مالك»؟ ولم يكن من الرسل، ولا وسيطاً في وحي الرسل! أم من اللّه؟ وهم ﴿عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾[(١)]! اللهم إلا في خطاب تبكيت! أو أن مالكاً ينقله لـ ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ عن الله؟ أم ليس ﴿جِئْنَٰكُم﴾ إطلاقاً من الله، فإنه مصدر الحق لا الجائي به[(٢)] و﴿جِئْنَٰكُم﴾ يتطلب مجيئاً منه وهو الله وجائياً به وهم رسل الله، إذاً فـ ﴿جِئْنَٰكُم﴾ ليست إلا من رسل الله!.

﴿أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾:

﴿أَمْ﴾ عطف على محذوف لا يهم ذكره وقد يعرف من المعطوف كـ «أكذبناهم في إنذار العذاب ﴿أَمْ﴾ إذ صدقنا» فهم ﴿أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا﴾ فلا يخافون العذاب بما أبرموا، من كيد يريدونه: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ﴾[(٣)] أو مكر بالرسول في دار الندوة: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾[(٤)] أم أي إبرام في أي أمر خلاف الحق في الدنيا والآخرة فإن الله يبرم الحق ويبطل الباطل إن الباطل كان زهوقاً! كما أبرموا أمر الخلافة الإسلامية في غير أهلها فأبرمها الله في أهلها[(٥)]!

---

(١) سورة المطففين، الآية: ١٥.
(٢) لا تجد المجيء بالحق في القرآن كله الّا في رسل الله، الذين يجيئون بالحق من عند الله.
(٣) سورة الطور، الآية: ٤٢.
(٤) سورة الأنفال، الآية: ٣٠.
(٥) نور الثقلين ٤: ٦١٥ ح ٩٢ في أصول الكافي بسند متصل إلى عبد الله بن كثير عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى﴾ [محمّد: ٢٥] فلان وفلان ارتدوا عن الإيمان في ترك ولاية أمير المؤمنين عليه السلام قلت: قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾ [محمّد: ٢٦]؟ قال: نزلت فيهما واللّه وفي اتباعها وهو قول الله عزّ وجلّ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾، قال: دعوا بني امية إلى ميثاقهم ألا يصيّروا الأمر فينا بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولا يعطونا من الخمس شيئاً وقالوا: إن أعطيناهم إياه لم يحتاجوا=

﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾:

حيث «قال واحد منهم ترون الله يسمع كلامنا فقال واحد إذا جهرتم سمع وإذا أسررتم لم يسمع فنزلت: أم يحسبون؟[1].

لا فحسب أنا نسمع سرهم ونجواهم، بل ﴿وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ من ﴿كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ ومن أنبياء شهود، ومن الجوارح والأرض بفضائها، رسل إلهية تكتب كلٌّ حسبها الأقوال والأعمال كلها والنيات!

و﴿لَدَيْهِمْ﴾ يعني رسلنا الكائنين لديهم، يكتبون لديهم سواء أكانت رسالة تكوينية كرسل الأعضاء والأجواء، أم تدوينية علماً أماذا من تسجيل الأعمال!

﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾﴾:

آية يتيمة غرة منقطعة النظير في سائر القرآن كثرت في تفسيرها القيلات والاحتمالات! ندرسها وسواها في تساؤلات حتى يتبين الحق على ضوء الدلالات القرآنية والسنة وما تتحملها الآية لفظياً ومعنوياً أو لا تتحمل وما هو عوان بين ذلك، والذي يهمنا هو كشف الرباط بين جملتي الشرطية ﴿إِن كَانَ . . . فَأَنَا . . .﴾؟

يا ترى «إن» نافية تعني لم يكن للرحمن ولد فأنا أوّل العابدين الموحدين له أن ليس ولدٌ معه يعبد؟ وإن النافية لا تدخل على فعل! وعند

= إلى شيء ولم يبالوا أن لا يكون الأمر فيهم فقالوا: سنطيعكم في بعض الأمر الذي دعوتمونا إليه وهو الخمس أن لا نعطيهم منه شيئاً وقوله: ﴿كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ﴾ [محمد: ٢٦] والذي نزل الله ما افترض على خلقه من ولاية أمير المؤمنين عليه السلام وكان معهم أبو عبيدة وكان كاتبهم فأنزل الله: ﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ - أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ [الزخرف: ٧٩، ٨٠] الآية.

(١) الدر المنثور ٦: ٢٣ - أخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي قال: بينا ثلاثة بين الكعبة وأستارها قرشيان وثقفي أو ثقفيان وقرشي فقال واحد منهم ترون. .

نفي الولد فلا فرق في توحيد العبودية بين أوّل العابدين وسواه![1] ثم والمناسب لهذا النفي إثبات الأوّلية في العقيدة لا العبادة، ومناسبة أخرى «و» بدل «فـ » إذ لا تفريع في «إن» النافية!

أم أنها شرطية والعابدين تنفي العبادة بأنها هنا من «عَبِد» إذا اشتدت أنفته، فإن كان له ولدٌ تولد عن ذاته، فهو والدٌ كسائر من يلد، فمتجزّئ فمحدودٌ كسائر الخلق، فليس إذاً إلهاً يُعبد فأنا أوّل المتأنفين لعبادته، ولأنني أعبده مخلصاً فليس له ولدٌ؟ ولكن العابدين بمعنى الآنفين، وإن كانت لغة ولكنها شاذة، وذكرها دون قرينة تصرفها عما يعرف غير فصيح ولا صحيح، وإن كان المعنى في نفسه. من الصحيح![2]

أم أنها شرطية والعابدين هم العابدون، فـ ﴿إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ﴾ كما تقولون: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ لهذا الولد، فإني العارف بوالد وما ولد قبلكم وقبل كل أحد، فإذا لا أعبد رحماناً هكذا ولا ولداً، فليس إذاً للرحمن ولد؟ والمناسب لموقف صَلِب هكذا «لو» الامتناعية لا «إن» المجوّزة كلا النفي والإثبات! ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ ترمي إلى إثبات قاطع مطلق أنه أوّل العابدين![3].

---

(١) الدر المنثور ٦ : ٢٤ - أخرج ابن جرير عن زيد بن أسلم قال هذا كلام العرب أن كان للرحمن ولد، أي لم يكن.

(٢) نور الثقلين ٤ : ٦١٦ ح ٩٥ في كتاب الاحتجاج للطبرسي عن أمير المؤمنين عليه السلام حديث طويل يقول فيه: قوله: ﴿إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ أي: الجاحدين والتأويل في هذا القول باطنه مضاد لظاهره.

أقول: مضادة الباطن للظاهر في القرآن البيان غير مقبولة حيث لا تضاد فيه لا ظاهراً ولا باطناً، فليس هذا من كلام علي عليه السلام وقد يروى مثله عن ابن عباس، كما في الدر المنثور ٦ : ٢٣ - أخرج الطستي عن ابن عباس أن نافع الأزرق قال له أخبرني عن قوله عز وجل : ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ [الزّخرُف: ٨١] قال: أنا أوّل متبرئ من أن يكون لله ولد.

(٣) المصدر ح ٩٦ في تفسير علي بن إبراهيم في الآية يعني أوّل القائلين لله عز وجل أن يكون له ولد.

أم ﴿إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ للوالد دون ما ولد؟ حيث التسوية بين والد وما ولد ظالمة متهتكة؟ وهو يناسب «لو» ولا تناسبه أولية العبادة ولا أصلها حيث الرحمن الوالد لا يُعبد!

أو ﴿إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ﴾ دون ولادة ذاتية، وإنما تكريماً لشرف العبودية القمة كما المسيح وعزير والملائكة - زعم المتبنّين لله - كانوا أعبَد من عبد الرحمن فاتخذهم ولداً ﴿فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ في رتبة العبودية[1] وكما أنني أوّلٌ في درجات العصمة والولاية والرسالة بين العالمين، إذاً فأنا أوّل من يتخذ ولداً لهذه الكرامة العليا؟ ولم يوح إليّ ولا لمحة من هذه الولادة، ولم أدّع ولن لمحةً منها، فلا ولادة هكذا لمن دوني في كرامة العبودية وكما: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾[2].

وفي هذا الوجه الوجيه ليست الجملة شرطية كاملة، جزاؤها ﴿فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ بل هي وصلية، فإنما ﴿أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ يهدم صرح هذه الولادة التكريمية لمن ادعيت له، و«إن» الوصلية هنا دون «لو» الشرطية مسايرة في الحوار التي تأتي لهم بكل بوار وخسار! وهذا هو المعنى الأصل، ثم الولادة الذاتية عن الرحمن، كذلك هي منفية حيث ﴿فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ للرحمن العارفين وحيه، ولا أعرف له وحياً يسانده، فإنما يعانده، فليس إذاً للرحمن ولد.

---

(١) فهذه الأولية ليست زمنية ولا عددية وإنما عددية رتبية حتى تصلح هدماً لصرح ﴿إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ﴾ [الزخرف: ٨١]!

(٢) سورة الأنبياء، الآيات: ٢٦-٢٩.

هذا وما يليه من صحيح المعاني التي لا تُعنى كلٌّ بمفردها، قد تعنيها الآية كلها، دون ما لا يصح والله أعلم[(١)].

﴿سُبْحَانَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾﴾:

سبحانه أن يلد أو أن يتخذ ولداً وهو رب السماوات والأرض ورب العرش دونما شريك، سبحانه عما يصفون وتعالى عما يشركون.

هناك ربوبيتان للرب الواحد، ربوبيّة الخلق: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وهو تعبير عن الخلق كله، وربوبية التدبير: ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ﴾: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾[(٢)] «وهو وصف عرش الوحدانية عما يصفون»[(٣)].

إذاً فما لمن دونه من خلقه الذين هم في تدبيره مهما سمي ولداً أمّاذا رجماً بالغيب وكذباً!

---

(١) فـ«إن» بين احتمالات ثلاث: نافية - شرطية - وصلية و﴿كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ﴾ [الزخرف: ٨١] بين احتمالين: ولادة ذاتية وتشريفية، و﴿فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١] بين إيجابية العبادة وسلبيتها، وكل هذه الوجوه علّها معنية على مختلف مراتبها والأصل فيها ما رجحناه وعلى هامشه سائرها إلا غير الصحيح معنوياً أو أدبياً، اللهم إلّا ضمن الصحيح فيها، فـ«إن» النافية وإن كانت لا تأتي قبل الفعل ولكنها ضمن شرطيتها ووصليتها تأتي قبل الفعل - تأمل:

(٢) سورة يونس، الآية: ٣.

(٣) نور الثقلين ٤: ٦١٧ ح ٩٧ في كتاب التوحيد بإسناده إلى حنان بن سدير عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث طويل ذكر فيه العرش وقال: إن للعرش صفات كثيرة مختلفة له في كل سبب وضع في القرآن صفته على حده يقول فيه، فمن اختلاف صفات العرش أنه قال تبارك وتعالى: ﴿رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الزخرف: ٨٢] وهو وصف عرش الوحدانية عما يصفون، وقوم وصفوه بيدين فقالوا: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾، وقوم وصفوه بالرجلين فقالوا: وضع رجله على صخرة بيت المقدس وارتقى إلى السماء، وقوم وصفوه بالأنامل فقالوا: إن محمداً صلى الله عليه وآله وسلم قال: إني وجدت برد أنامله على قلبي، فلمثل هذه الصفات قال: ﴿رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ يقول: رب المثل الأعلى عما به مثّلوه ولله المثل الأعلى الذي لا يشبهه شيء ولا يوصف ولا يتوهم فذلك المثل الأعلى.

﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾﴾:

ولما تصل الحجاج إلى ذلك الحد من اللجاج ﴿فَذَرْهُمْ﴾ واتركهم ﴿يَخُوضُوا﴾ أغواراً مظلمة من تلكم الهرطقات ﴿وَيَلْعَبُوا﴾ في خوضهم وكل حياتهم كأطفال ﴿حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ﴾ يوم الموت ويوم القيامة وهما يوم واحد لوحدة النشأة مهما كانا يومين لاختلافهما في الحِدّة ﴿الَّذِي يُوعَدُونَ﴾: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ...﴾[1] ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾[2].

﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾﴾:

هذه الآية تنفي مزعمة الإلهين أحدهما إله السماء وثانيهما إله الأرض، وتنفي أيضاً كونهما مكاناً لإله واحد إذ ليس له مكان، فألوهيته - لا ذاته - تضم الأرض والسماء على سواء[3] لا أنه في إحداهما ويحكم فيها وفي الأخرى، أم هو فيهما جميعاً، وإنما ﴿فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ فيهما ﴿الْعَلِيمُ﴾ بهما سواءً، يحكم فيهما هو لا سواه، ويعلم ما فيهما وحده لا سواه، فلا أنَّ المسيح أو سواه إله الأرض ولادة أم وراثة و الله إله السماء كما يهرف المسيحيون في صلاتهم «ليأت ملكوتك في الأرض كما هو في السماء» وترى من يلتمسونه أن يأتي بملكوت الله إلى

(١) سورة الأنعام، الآية: ٦٨.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٩١.
(٣) نور الثقلين ٤ : ٦١٧ ح ٩٨ في أصول الكافي علي بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير عن هشام بن الحكم قال قال أبو شاكر الديصاني: إن في القرآن آية هي قولنا، قلت: وما هي؟ فقال ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزّخرُف: ٨٤] لم أدر بما أجيبه فحججت فخبرت أبا عبد الله عليه السلام فقال: هذا كلام زنديق خبيث إذا رجعت إليه فقل: ما اسمك بالكوفة؟ فإنه يقول: فلان - فقل له: ما اسمك بالبصرة؟ فإنه يقول: فلان، فقل كذلك الله ربنا في السماء إله وفي الأرض إله وفي البحار إله وفي القفار إله وفي كل مكان إله، قال: فقدمت فأتيت أبا شاكر فأخبرته فقال: هذه نقلت من الحجاز!.

الأرض كما هو في السماء؟ ولا أن الملائكة آلهة السماوات وهو إله الأرض، فما من ألوهة في الخلق والتدبير والعبادة إلّا لله.

فهذه الآية تجرف ما يهرفه ويخرفه المقتسمون للألوهية إلى أقسام الكون، أم يمكّنون ويُسْكِنون إله السماوات والأرض في السماوات أو الأرض، وإنَّما تمكيناً لألوهيته في الكون كله دون تمكّن لذاته في الكون كله، فإنما حكمته النافذة وعلمه الشامل يديران الكون ويدبّرانه، فالمدبر هو الخالق والخالق هو المدبر، دون فرق بين كائن وكائن، ودون تمكن في أي كائن!

﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾﴾:

﴿وَتَبَارَكَ﴾: تعاظم وتسامى ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ حيث يملكهما، وما بينهما ثم لا مِلكَ ولا مُلك سواهما ﴿وَعِندَهُۥ﴾ لا سواه ﴿عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ وهي المنزل الأقصى للسالكين ﴿وَإِلَيْهِ﴾ لا سواه ﴿تُرْجَعُونَ﴾ ومَن إليه الرجوع فإليه التدبير، ومن إليه التدبير فله الربوبية، فهو متباركٌ عما يصفون بهذا المثلث المجيد من شؤون الألوهية!

﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾:

ملائكة أو أنبياء أو الجن أم أياً كانوا ممن دونه، فهم لا يملكون الشفاعة التي ليست إلّا بإذنه وتمليكه ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ﴾: بحق الله في توحيده، وبحق العبودية لنفسه، وبحق الشفاعة لنفسه، وبحق للمشفع له وهو من ارتضى الله دينه ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾[1] ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾:

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٢٨.

شروط الشفاعة في ميزان الله، ويعلمون حقيقة حال المشفّع لهم أنهم أهل لأن يشفع لهم، إذاً فقوله في الشفاعة مأذون وصواب: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾(١)!

وأما الذين عُبدوا إذ عبّدوا لأنفسهم ودعوا فلا يشفعون ولا يشفّع لهم كأمثال فرعون الطاغية، ثم الذين عُبدوا ولم يعبِّدوا من الصلحاء، فمنهم من يملك الشفاعة إذ ﴿شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ومنهم من لا يملكها ويملك أن يشفع له لأنه من «من ارتضى» ثم من الأشقياء الذين عبدوا دون أن يدعوا أو يرضوا من لا يصلح أن يشفع له، ومن ثم غير العقلاء من الأصنام والأوثان فسوالب بانتفاء الموضوع، حيث الشفاعة في بعديها تتطلب علماً وشعوراً!

فـ﴿وَلَا يَمْلِكُ . . . ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ قد تعم الشافعين والمشفّع لهم، وإن كان الأولين أولى، ومهما اختلفت شروطهما حيث يشتركون في الإيمان، فـ﴿مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ بينهما درجات.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾:

والخالق هو الذي يملك خلقه وتدبيرهم، ويملك عبوديته وشفاعتهم، فأنّى يصرفون إفكاً وكذباً وهم بوحدانيته في خلقه معترفون!.

﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾:

لقد قيل في «قيله» قيلات عليلات لا تناسب القرآن البيان، و«قيل» هو «قول» صيغة ثانية مصدرية، والضمير الغائب راجع إلى حاضر الوحي: الرسول ﷺ فبعد الاستفتاء العام من العالمين ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم. . .﴾ والجواب العام بين المشركين والموحدين: ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ فلينظر العالمون

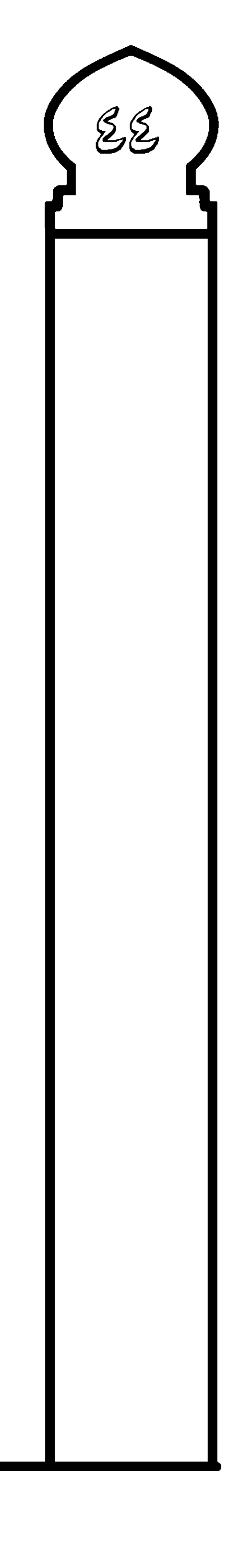
(١) سورة النبأ، الآية: ٣٨.

إلى «قيله» عن المشركين ربِّ ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ والواو تعطف إلى غير مذكور من سائر قبيله من هذا القيل.

وهنا الجواب من رب العزة في ثلاثة بنود: ﴿فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ﴾ إعراضاً بصفحك عمن لا يحنّ إلى حق، ولكن بالصفح الجميل: ﴿وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ﴾ لست لكم إلّا سلاماً، ولا أدعوكم إلّا إلى سلام، وإذ تعرضون عن سلامكم فسلام ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾[1] دون خفاءٍ ولا جفاء تزيد في جهلهم وكفرهم، وما أنت وتعذيبهم بصفح غير جميل ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ حين موتهم والقيامة الكبرى، يعلمون حقاً بعد علم متجاهل قاحل إذ ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ﴾[2]!



(١) سورة الفرقان، الآية: ٦٣.
(٢) سورة النمل، الآية: ١٤.



سُورَةُ الدُّخَانِ



مكيّة وآياتها تسع وخمسون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾

﴿حمٓ ﴿١﴾﴾:

.. الدخان هي خامسة الحواميم السبع(١)، بازغة بذكر الكتاب المبين

(١) راجع سورة الأحقاف ج ٢٦ من الفرقان وسورة الشورى ج ٢٥.

المنزل في ليلة مباركة، و﴿حمٓ ۝١﴾ هذه قد تعني فيما تعني الرسول محمداً ﷺ حيث يقسم بالكتاب المبين أنه أنزله في ليلة مباركة ولا منزِل له إلا قلبه المنير، كما و﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾[1] لمحة لامعة أنه المخاطب في ﴿حمٓ ۝١﴾ ولا يناسب النزول المحكم للكتاب المبين إلا الرسول الأمين، والست الأخرى من السبع الحواميم يعقبها تنزيل الكتاب وهنا - فقط - إنزاله.

ولأن «الحواميم تاج القرآن»[2] ومحمد ﷺ تاج النبيين[3] فلتكن خاصةً به ﷺ في خطابها كما هي وأضرابها تخصه في معانيها، وكما في الكاظمي عليه السلام «أما حم فهو محمد ﷺ»[4] وقد تعني «ح» أحمد و«م» محمد، وإذا لم تكن «حم» خطاباً لصاحب الكتاب المبين، لم يكن لها موقع أدبي كمبتدىءٍ أم ماذا، ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ القسم لا يصلح خبراً ولا فعلاً ولا أياً كان بالنسبة لـ ﴿حمٓ ۝١﴾ إلّا أن تعني جملة مستقلة عن، ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا!

﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣﴾:

إن للقرآن مراحل ثلاث أعلاها أم الكتاب، وأوسطها محكم الكتاب

---

(١) سورة الدخان، الآية: ٦.

(٢) المجمع عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ: . . .

(٣) في: نبوئت هيّلد: وحى الطفل: لحمان حطوفاه الموجود باللغة الأنقلوسية وهي عبرانية رمزية، يصفه ﷺ بـ «محمد كايا بايا إعاد يطمع هويا ويهى كليليا» يعمر بيت الله بملك عظيم اسمه «محمد» هو كبير قدير، الشجرة الطيبة الرفيعة، مأمول لإفناء ما كان وإطفاء النائرة وهو الكل والتاج وحمل على الأكتاف.

(٤) نور الثقلين ٤: ٦٢٣ ج ١٤ عن أصول الكافي، بإسناده إلى يعقوب بن جعفر بن إبراهيم قال: كنت عند أبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام إذ أتاه رجل نصراني فقال: إني أسألك أصلحك الله فقال: سل، فقال: أخبرني عن كتاب الله الذي أنزل على محمد ﷺ ونطق به ثم وصفه بما وصفه؟ فقال: «حم. . . ما تفسيرها في الباطن؟ فقال: أما حم فهو محمد ﷺ . . .

وأدناها تفصيل الكتاب: ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[1] وقد أنزل من أم الكتاب حكيماً في ليلة مباركة هي ليلة القدر ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ﴾ ﴿فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾[2] ثم نزل طول البعثة قرآناً عربياً: ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾[3] ومهما تشترك الحواميم السبع في نزول القرآن تلوها، فالدخان تختص من بينها بنزول الإنزال - المحكم - في ليلة مباركة، والست الأخرى بنزول التنزيل طول البعثة:

وترى أن هذه الليلة المباركة هي غير ليلة القدر، كالنصف من شعبان؟ ومحكم القرآن لم ينزل إلّا مرة في ليلة واحدة هي ليلة القدر - ليلة مباركة! أم إن ليلة القدر هي النصف من شعبان كما يقولها رعيل من أهل السنة؟ ومحكم القرآن نازل في رمضان: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾[4] فلتكن ليلة القدر وليلة مباركة هما ليلة من رمضان دون شعبان أو أيّاً كان!

فليلة مباركة هنا هي ليلة القدر هناك من رمضان، كما المواصفات المذكورة هنا وهناك توحّدها في قدر رمضان.

١ - ليلة القدر هناك واحدة وليلة مباركة هنا واحدة، ولم ينزل محكم القرآن إلّا مرة واحدة، إذاً فهما هذه الواحدة، هي من رمضان حيث هو منزل محكم القرآن!

٢ - ليلة القدر هي الوحيدة بين ليالي السنة قدراً، وليلة مباركة هي الوحيدة بينها بركة، والقدر القمة والبركة القمة هما واحدة وإلّا فلا قمة في كل منهما على حِدة، فهما - إذاً - واحدة من رمضان!

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٤.
(٢) سورة القدر، الآية: ١.
(٣) سورة الزخرف، الآيتان: ٢، ٣.
(٤) سورة البقرة، الآية: ١٨٥.

٣ - هناك في وصفها ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾[١] وهنا ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ و﴿كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَٰمٌ﴾[٢] و﴿كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ هما واحد، فهما واحدة من رمضان!:

٤ - هناك ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾ وهنا ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ﴾ وهما واحد، فهما واحدة من رمضان!:

٥ - هناك ﴿سَلَٰمٌ هِىَ﴾ وهنا ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ وهما واحد، فهما واحدة من رمضان!

ومن ثم الروايات المتواترة عن الفريقين أن ليلة القدر هي من رمضان، فلتكن هي ليلة مباركة من رمضان، مهما وردت روايات أخرى بشأن النصف من شعبان[٣] وعلّها تبجيلات بشأنها لأنها مولد المهدي من آل محمد عليهم السلام: فإنها مولد النور الذي يشع الكون بأسره، ويخلص العالم عن أسره في عسره (صلوات الله عليه)!.

لا دليل للقائلين بأن ليلة مباركة هي النصف من شعبان من كتاب أو سنة[٤] وهو منهما برهان قاطع لا مرد له أنها هي ليلة القدر من رمضان.

---

(١) سورة القدر، الآية: ٤.
(٢) سورة القدر، الآيتان: ٤، ٥.
(٣) في الدر المنثور ٦: ٢٦ - ٢٧ يروي أحاديث نزول الله إلى السماء الدنيا في ليلة النصف من شعبان ولا ريب أنها مختلقة، وروايات أخرى خالية عن النزول مادحة لهذه الليلة ولا ريب فيها ولا تثبت أنها ليلة القدر، ومنها ما أخرجه البيهقي عن عائشة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حديث قال: صلى الله عليه وآله وسلم يا عائشة أو يا حميراء. . هذه ليلة النصف من شعبان فيغفر للمستغفرين ويرحم المسترحمين ويؤخر أهل الحقد كما هم» من ثلاث بين روايات عدة تذكر فضيلة ليلة النصف من شعبان أكثرها عن عائشة وفيها خرافة نزول الله إلى السماء الدنيا!.
(٤) كما يعترف الرازي في تفسيره ٢٧: ٢٣٨ في قوله: وأما القائلون بأن المراد من الليلة المباركة المذكورة في هذه الآية هي ليلة النصف من شعبان فما رأيت لهم فيه دليلاً يعول عليه وإنما قنعوا بأن نقلوه عن بعض الناس، فإن صح عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيه كلام فلا مزيد عليه وإلا=

وأنها ليلة مباركة بنازلها القرآن ومنزلها قلب نبي القرآن، كما أنه كتاب ذو قدر وهو ﷺ نبي ذو قدر، فلا قدر ولا بركة لزمان أو مكان إلّا بما ينزل فيهما أو يصدر منهما من بركة وقدر.

وليلة مباركة مستمرة في بركتها وقدرها مرّ الأعوام إلى يوم القيام، حيث تتكرر بكل قدر اللّهم إلّا نزول القرآن حيث كان لأول ليلة قدر من أولى سنّي الرسالة المحمدية ﷺ ومن ثم ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾[1] فرقاً وتنزّلاً مستقبلاً منذ نزول القرآن المحكم حتى القيامة الكبرى.

وما دام النزولان - للقرآن المحكم ولكل أمر - كانا في اختصاص

= فالحق هو الأول - يعني أنها ليلة القدر وهي من رمضان، أقول: ولن يصح عن رسول الله ﷺ ما يكذبه القرآن والسنة المتواترة! وقد أخرج عبد بن حميد عن أبي الجلد قال: نزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من رمضان وأنزل الإنجيل لثمان عشرة ليلة خلت من رمضان وأنزل الفرقان لأربع وعشرين - وكما تظافرت في رواياتنا إضافة إلى نزول التوراة لثلاث عشرة والزبور لثمان عشرة، وأن القرآن نزل في التاسع عشر أو الواحد والعشرين أو الثالث والعشرين..

وأخرج عبد بن حميد ومحمد بن نصر وابن جرير عن ربيعة بن كلثوم قال: كنت عند الحسن فقال له رجل: يا أبا سعيد ليلة القدر في كل رمضان هي؟ قال: إي واللّه إنها لفي كل رمضان وإنها لليلة يفرق فيها كل أمر حكيم فيها يقضي الله كل اجل وعمل ورزق إلى مثلها، وفي نور الثقلين ٤: ٦٢٤ ح ١٦ عن الكافي بإسناده عن إسحاق بن عمار قال: سمعته يقول وناس يسألونه يقولون: الأرزاق تقسم ليلة النصف من شعبان؟ قال: فقال: لا واللّه ما ذلك إلا في ليلة تسع عشرة من شهر رمضان وإحدى وعشرين وثلاث وعشرين، فإن في تسعة وعشرين يلتقي الجمعان وفي ليلة إحدى وعشرين يفرق كل أمر حكيم وفي ليلة ثلاث وعشرين يمضي ما أراد الله تعالى من ذلك وهي ليلة القدر التي قال الله تعالى: ﴿خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر: ٣] قال: قلت: ما معنى قوله: يلتقي الجمعان؟ قال: يجمع الله فيها ما أراد من تقديمه وتأخيره وإرادته وقضائه، قال قلت: فما معنى يمضيه في ثلاث وعشرين؟ قال: إنه يفرق في ليلة إحدى وعشرين ما أمضاه ويكون له فيه البداء فإذا كانت ليلة ثلاث وعشرين أمضاه فيكون من المحتوم الذي لا يبدو له فيه تبارك وتعالى.

(١) سورة القدر، الآية: ٤.

الرسول ﷺ للمرحلة الأولى من ليلة القدر، فتنزُّل الملائكة والروح فيها من كل أمر يعمه والمحمديين المعصومين من عترته، حيث يفرق فيها كل أمر حكيم بنازل الملائكة والروح في منزل قلب الإمام في كل عصر، فكان هو الرسول في اثنين وعشرين سنة، حيث الأولى جمع إليه إنزال القرآن، ثم من بعده المعصومون من عترته.

﴿... إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ طول كتابات الوحي والرسالات الإلهية، طالما الإنذار بالقرآن هو أمّ الإنذار، كما وأن رسالته هي أمّ الرسالات.

وعلّ ﴿كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ تعني فيما تعني سابق الإنذارات الإلهية في كتابات الوحي بنزول القرآن، بطيّات البشارات، وقد أوردناها في «رسول الإسلام في الكتب السماوية».

وإنها حقاً ليلة مباركة منقطعة النظير عن كل نذير ولهذا البشير النذير، إذ فتح فيها ذلك الفتح المبين للعالمين، بادئاً فيها استقرار خاتمة المناهج الإلهية على المكلفين من الجنة والناس أجمعين، يعيشون الكتاب المبين ويحيون به في كل حين.

ثم لا تقف هذه الليلة لمرة واحدة ذات قدر ومباركة، ثم القدر في كل سنة ليس ذكرى لما مضى، بل وتتكرر في كل سنة:

﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ وقد فرق القرآن المحكم في أولاها عن أم الكتاب ﴿لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾(١) فرقاً من تلك الحكمة العليا، ثم فرق فرقاً آخر هو تفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين -: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾(٢) فرق التفصيل الأخير طول البعثة.

ومن ثم يستمر فرق كل أمر حكيم سوى أم الكتاب على مرّ الزمن منذ

(١) سورة الزخرف، الآية: ٤.
(٢) سورة هود، الآية: ١.

القدر الأوّل، والفرق هو التبيين لكل أمر غير مبين في هذه الليلة، حتى يصبح كفرق الصبح في بيانه، أو مفرق الطريق في اتضاحه، ومنه فرق الشعر إذا خلصت بعضه من بعض، وبيِّنت مخطّ وسطه بالمدرى أو الإصبع.

هكذا يفرق فيها كل أمر حكيم، للرسول محمد ﷺ فرق للقرآن المحكم عن أم الكتاب، وفرق لكل محكم يحتاجه الرسول في ولايته الرسالية، وللأئمة من آل الرسول فرق واحد هو الثاني.

فيها يتضح لولي الأمر كل ما أحكم له وأجمل قبلها، كما فرق القرآن ولم يكن الرسول يعلمه قبل إنزاله من أم الكتاب.

ترى لمن يفرق فيها كل أمر حكيم بما تنزل الملائكة والروح فيها من كل أمر، إلّا لولي الأمر؟ وهل ترى أنه كل من تولى أمر الأمة أياً كان؟ ومنزل الملائكة والروح ليس إلّا قلب محمد أو قلب محمدي! وكما في حوار لباقر العلوم عليه السلام (١) و﴿كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ هنا هو ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ في

(١) نور الثقلين ٤: ٦٢١ ج ١٠ في أصول الكافي بإسناده إلى أبي جعفر الباقر عليه السلام حديث طويل يقول فيه عليه السلام فإن قالوا: من الراسخون في العلم؟ فقل: من لا يختلف في علمه، فإن قالوا: فمن هو ذاك؟ فقل: كان رسول الله ﷺ صاحب ذلك فهل بلغ أولاً؟ فإن قالوا: قد بلغ فقل: فهل مات ﷺ والخليفة من بعده يعلم علماً ليس فيه اختلاف؟ فإن قالوا: لا - فقل إن خليفة رسول الله ﷺ مؤيد ولا يستخلف رسول الله ﷺ إلا من يحكم بحكمه وإلا من يكون مثله إلا النبوة، وإن كان رسول الله ﷺ لم يستخلف في علمه أحداً فقد ضيع في أصلاب الرجال ممن يكون بعده، فإن قالوا: فإن علم رسول الله كان من القرآن، فقل: ﴿حمٓ ۝ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ - إلى قوله - إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ﴾ [الدّخان: ١-٥] فإن قالوا لك: لا يرسل الله عز وجل الّا إلى نبي فقل: أهذا الأمر الحكيم الذي يفرق فيه هو من الملائكة والروح التي تنزل من سماء إلى سماء أو من سماء إلى أرض؟ فإن قالوا: من سماء إلى سماء فليس في السماء أحد يرجع من طاعة إلى معصية، فإن قالوا: من سماء إلى أرض وأهل الأرض أحوج إلى ذلك فقل: فهل لهم بد من سيد يتحاكمون اليه؟ فإن قالوا: فإن الخليفة هو حكمهم، فقل: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ...﴾ [البَقَرَة: ٢٥٧] ولعمري ما في الأرض ولا في السماء ولي لله عز ذكره إلا وهو مؤيد ومن أيد لم يخطىء وما في الأرض=

القدر، فبعض الأمر مفروق عند ولي الأمر وهو الأصل الرسالي الذي تحتاجه الأمة ويحتاجه ولي الأمر في أمره، وبعض غير مفروق وهو حكيم يحتاجه ولي الأمر في الأمة في كل سنة، وبعضه حكيم عند الله لن يفرق لأحد، ولا يعني كل أمر إلّا الأوسط من حكيم الأمر، كما عبر عنه في القدر بالبعض: ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾(١) تنزل الملائكة والروح به لفرقه بإذن ربهم «إنه لينزل في ليلة القدر إلى ولي الأمر تفسير الأمور سنة سنة يؤمر فيها في أمر نفسه بكذا أو كذا وفي أمر الناس بكذا وكذا وإنه ليحدث لولي الأمر سوى ذلك كل يوم علم الله الخاص والمكنون العجيب المخزون مثل ما ينزل في تلك الليلة من الأمر»(٢).

و﴿أَمْرٍ﴾ هنا كما في القدر يعم أمر الفعل وأمر الحكم مقابل النهي، وأمر الشيء ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾(٣) ينزل مثلث الأمر الحكيم فيفرقه لولي الأمر عن حكمته إلى تفصيله، فلكل سنة من سنِّي الأمة أمور وأوامر حكيمة ليست من صلب الشرع وأصله، يفرقها الله تعالى لولي الأمر، نبياً في زمنه، وإماماً في زمنه، مما يدل على تقاسم الأمر لدى ولي الأمر، من دائب هو لزام ولايته وإمرته على المسلمين رسالة وإمامة،

= عدوالله عز ذكره إلا وهو مخذول ومن خذل لم يصب كما أن الأمر لا بد من تنزيله من السماء يحكم به أهل الأرض، كذلك لا بد من وال - فإن قالوا: لا نعرف هذا - فقل لهم قالوا: ما أجبتم أبي الله عَزَّوَجَلَّ بعد محمد ﷺ أن يترك العباد ولا حجة عليهم.

(١) سورة القدر، الآية: ٤.

(٢) عن الباقر عليه السلام قال قال الله عَزَّوَجَلَّ في ليلة القدر ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدّخَان: ٤] قال: ينزل فيها كل أمر حكيم والمحكم ليس بشيئين إنما هو شيء واحد فمن حكم بما ليس فيه اختلاف فحكمه من حكم الله ومن حكم بأمر فيه اختلاف فرأى أنه مصيب فقد حكم بحكم الطاغوت، إنه لينزل... ثم قرأ ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ...﴾ [لقمَان: ٢٧] (نور الثقلين ٤: ٤٢٢ ح ١١ عن أصول الكافي).

(٣) سورة الحجر، الآية: ٢١.

ومن غيره وهو لزامه المتجدد في كل عام، «ولو كان للنبي ﷺ دون غيره لكان الخطاب يدل على فعل ماض غير دائم ولا مستقبل، ولقال: نزلت الملائكة وفرق كل أمر حكيم، ولم يقل: تنزل الملائكة ويفرق كل أمر حكيم»[(١)]. ولقد أمرنا أن نحاجج ناكري ولاية الأمر الدائبة بسورة القدر والدخان «فإنها لولاة الأمر خاصة»[(٢)].

---

(١) نور الثقلين ع: ٦٢٦ ج ٢٤ في كتاب الاحتجاج عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث طويل بعد ذكر الحجج قال السائل: من هؤلاء الحجج؟ قال: هم رسول الله ﷺ ومن حلّ محله من أصفياء الله الذين قرنهم الله بنفسه ورسوله وفرض على العباد من طاعتهم مثل الذي فرض عليهم ميثاقاً لنفسه وهم ولاة الأمر الذين قال الله فيهم: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] وقال فيهم: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣]، قال السائل: ما ذاك الأمر؟ قال عليه السلام: الذي تنزل به الملائكة في الليلة التي يفرق كل أمر حكيم من رزق وأجل وعمل وحياة وموت وعلم غيب السماوات والأرض والمعجزات التي لا تنبغي إلا لله وأصفيائه والسفرة بينه وبين خلقه وهم وجه الله الذي قال: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥] هم بقية الله يعني المهدي (عجل الله فرجه) الذي يأتي عند انقضاء هذه لنظرة فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً ومن آياته الغيبة والاكتتام عند عموم الطغيان وحلول الانتقام، ولو كان هذا الأمر الذي عرفتك بيانه للنبي ﷺ دون غيره لكان الخطاب يدل...

(٢) نور الثقلين ٤: ٦٢٢ ح ١٢ - في أصول الكافي بإسناده إلى أبي جعفر عليه السلام: قال: يا معشر الشيعة خاصموا بسورة ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ﴾ تفلحوا فوالله انها لحجة الله تبارك وتعالى على الخلق بعد رسول الله ﷺ وإنها لسيدة دينكم وإنها لغاية علمنا، يا معشر الشيعة خاصموا بـ ﴿حم ۝ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝﴾ [الدخان: ١-٣] فإنها لولاة الأمر خاصة بعد رسول الله ﷺ يا معشر الشيعة يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤] قيل: يا أبا جعفر، نذيرها محمد ﷺ قال: صدقت - فهل كان نذير وهو حي من البعثة في أقطار الأرض؟ فقال السائل: لا - قال أبو جعفر عليه السلام: أرأيت بعيثه أليس نذيره كما أن رسول الله ﷺ في بعثته من الله عز وجل نذير؟ فقال: بلى - قال: فكذلك لم يمت محمد إلا وله بعيث نذير، قال: فإن قلت: لا - فقد ضيع رسول الله ﷺ من في أصلاب الرجال من أمته، قال: وما يكفيهم القرآن؟ قال: بلى إن وجدوا له مفسراً، قال: وما فسره رسول الله ﷺ؟ قال: بلى قد فسره لرجل واحد وفسّر للأمة شأن ذلك الرجل وهو علي بن أبي طالب عليه السلام والحديث طويل أخذنا منه موضع الحاجة.

وعلّ ﴿حَكِيمٍ﴾ هنا تعني الحكمتين: ١ - صاحب الحكمة والمصلحة، ٢ - وغير المفروق، ففرقه هو عن حكمته الثانية ليتضح الأمر لولي الأمر.

إن كل أمر حكيم أمرٌ وفرقه أمرٌ، وهما ليسا من عند ولي الأمر ولا الملائكة والروح ولا أيٌّ من الخلق، وإنما ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾: أمر الإذن في تنزُّلهم على ولي الأمر، وأمر الفرق لكلٍّ أمر حكيم، أمر التشريع لفرق شرعة حكيمة، وأمر التكوين لشرعة تكوينية حكيمة، أم أي أمر يحتاجه في الأمر في إمرته على الأمة، فكما أن شرعة التكوين والتشريع التي تتبنى ولاية الأمر رسالة وإمامة ليست إلّا من عند الله، كذلك الأمر فيهما سنوياً ليس إلّا من عند الله، ولاية دائبة، وعلى هامشها ولاية سنوية!.

وعلّ ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ تدل على دوامة ليلة القدر منذ بزوغ الرسالات الإلهية حتى آخر زمن التكليف، حيث تضرب إلى أعماق الماضي الرسالي، رسالة ذات بعدين: نزول كتاب الشرعة، ومن ثم فرق كل أمر حكيم في كل سنة، ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ رسل الوحي، ورسل القدر لفرق الأمر! وقد تعني ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ الرسالة الأولى وهي الدائبة الأصيلة، ثم ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ الرسالة الثانية السنوية، فالأولى خاصة بالرسل والثانية تعم أولي الأمر، طالما الرسل يجمعونهما.

فـ ﴿إِنَّا كُنَّآ﴾ هنا وهناك تضم دوامة أمر الولاية إلى أمر الرسالة منذ بزغت الرسالة، فلتكن ليلة القدر دائبة عبر الرسالات والولايات منذ البداية حتى النهاية القيامة.

أو أن الأولى تخص الرسالة والثانية تعمها والولاية، ولكنما الرسالة في الولاية ليست في أصل الشرعة وبوحي، وإنما في فرق كلٍّ أمر حكيم بإلهام على هامش الرسالة.

ومهما يكن من أمر فليلة القدر المحمدية تختلف عن القدر لسائر الرسل

وولاة أمرهم، في قدر الأمر المفروق لهم، والكتاب النازل عليهم، والملائكة المتنزلة إليهم: فإن ﴿كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ و﴿كُنَّا مُرۡسِلِينَ﴾ إنما تثبت أصل القدر، لا قدر القدر وكيفيته، إذاً فالملائكة والروح خاصة بهذه الرسالة السامية، كما أن مادة الوحي وكيفيته هنا تختلف اختلافاً شاسعاً عما هناك رغم الاشتراك في أصل الوحي.

وكما الرسالة المحمدية وولايتها هي المركز الرئيسي لسائر الرسالات والولايات، كذلك قدرها والملائكة والروح فيها وأمرها بفرقها، ولذلك ترى خماسية الرحمة تربط بالنازلة على محمد ﷺ:

﴿رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٦﴾:

١ - ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ...﴾ ٢ - ﴿إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ﴾، ٣ - ﴿فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ﴾، ٤ - ﴿أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ﴾، ٥ - ﴿إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ﴾!: ﴿رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ...﴾.

فكما أن: ١ - نزول القرآن، ٢ - وفرق كل أمر حكيم في قدرك، ٣ - من عند الله، هي ﴿رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ﴾ كذلك الإنذار في الرسالات مع رسالتك، ورسالات القدر فيها مع قدرك، هما أيضاً ﴿رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ﴾!

فهما إذاً نابعتان من كوثرك جاريتان طول التاريخ الرسالي في سواقي الرسالات وولايات الأمر حيث «فعلهم فعله وأمرهم أمره»[(١)].

---

(١) تفسير البرهان ٤: ١٥٩ ح ٢ - الكافي عن علي بن إبراهيم عن عمر بن أذينة عن الفضيل وزرارة ومحمد بن مسلم عن حمران أنه سأل أبا جعفر عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ﴾ [الدّخان: ٣] قال: نعم ليلة القدر وهي في كل سنة في شهر رمضان في عشر الأواخر فلم ينزل القرآن إلا في ليلة القدر قال الله عز وجل: ﴿فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدّخان: ٤] قال: يقدر في ليلة القدر كل شيء يكون في تلك السنة إلى مثلها من قابل من خير وشر وطاعة ومعصية ومولود وأجل ورزق، فما قدّر في تلك السنة وقضي فهو المحتوم ولله عز وجل فيه المشية قال: قلت: ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾ [القدر: ٣] أي شيء عنى=

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ دعوات المرسلين قبلك بشأنك، كإبراهيم الخليل وأضرابه، سميع كل الدعوات الصالحة لليالي القدر وطول السنة، سميع ألسنة القال والاستعداد والحال في صالح الأقوال والأحوال.. ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ حاجيات ومتطلبات الأمم فرادى وجماعات.

﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٧﴾:

ذلك وكأنما الرحمات الربانية لرب السماوات والأرض وما بينهما مجموعة في الرسول محمد ﷺ فناشئه عنه بإذن الله إلى الكائنات، فالرب الإله هو أولاً ربك، ومن ثم هو ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾!.

وإشارة ثانية في هذا الانتقال - تهدم صرح مختلف الربوبيات المزعومات - أن ربه هو رب الأرض والسماوات ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ بالرب الإله، حيث الشرك في الربوبيات مع العلم أن ربك هو خالق الكون أجمع، إنه ينافي الإيقان بربوبيته، فالألوهية الوحيدة لزامها الربوبية الوحيدة.

= بذلك؟ قال: العمل الصالح فيها من الصلاة والزكاة وأنواع الخير من العمل في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر ولولا ما يضاعف الله تبارك وتعالى للمؤمنين ما بلغوا ولكن الله يضاعف لهم الحسنات، والطبرسي في الاحتجاج عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث طويل قال عليه السلام فيه: وإنما أراد الله بالحق إظهار قدرته وإبداء سلطانه وتبيين براهين حكمته فخلق ما شاء كما شاء وأجرى فعل بعض الأشياء على أيدي من اصطفى من أمنائه فكان فعلهم فعله وأمرهم أمره كما قال: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] وجعل السماء والأرض ووعاء لمن يشاء من خلقه ليميز الخبيث من الطيب مع سابق علمه بالفريقين من أهلهما وليجعل ذلك مثالاً لأوليائه وأمنائه وعرّف الخليفة فضل منزلة أوليائه وفرض عليهم من طاعتهم مثل الذي فرضه منه لنفسه وألزمهم الحجة بأن خاطبهم خطاباً يدل على انفراده وتوحيده وأبان لهم أولياء أجرى أفعالهم وأحكامهم مجرى فعله فهم العباد المكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون هم الذين أيدهم بروح منه وعرّف الخلق اقتدارهم بقوله: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ۝٢٧﴾ [الجن: ٢٦-٢٧] وهم النعيم الذي يسأل عنه إن الله تبارك وتعالى أنعم بهم على من اتبعهم من أوليائهم.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٨ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ يَلۡعَبُونَ ۝٩﴾:

ربوبية وحيدة جامعة للكون أجمع من سماواته وأرضه وما بينهما، ولأهل الكون أجمع ﴿رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ ﴿بَلۡ هُمۡ﴾ المشركون ﴿فِي شَكّٖ﴾ من وحدة الربوبية رغم الاعتراف بوحدة الألوهية ﴿يَلۡعَبُونَ﴾ لعبة بساحة الألوهية كأنه اقتسم ربوبية ما هو إلهه وخالقه، بينه وبين خلقه!

﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ۝١٠ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝١١﴾:

لا نرى الدخان في سائر القرآن إلّا هنا وفي فصّلت ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾(١) أترى أنهما واحد أو من سنخ واحد أن ترجع السماء إلى ما كانت دخاناً وهو المستصحب مع اللهيب ﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾(٢)؟ قد يكون هذا صحيحاً في نفسه كما ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ﴾(٣) - ومنه الرجوع إلى ما ابتدأت دخاناً - قد تأتي له شاهداً، ولكن يوم الدخان هذا هو قبل القيامة الكبرى، فهي تتلوه: ﴿يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾(٤) فبطشة الدخان ليست من الكبرى، ثم ولا كشف للعذاب يومها ولا قليلاً، ويوم الدخان ﴿إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ﴾(٥) فبطشة الدخان قد تكشف قليلاً وهي في نفسها أقل من الكبرى، فليست هي الأخرى! وقد يعني بطش الدخان المبين العذاب الأدنى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ لَعَلَّهُمۡ

---

(١) سورة فصلت، الآية: ١١.
(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٤٨.
(٣) سورة الطارق، الآية: ١١.
(٤) سورة الدخان، الآية: ١٦.
(٥) سورة الدخان، الآية: ١٥.

﴿يَرۡجِعُونَ﴾[١] أو أنه العذاب دون الأكبر وليس الأدنى، اللهم إلّا أن يُعنى من الأدنى ضمنها، قياساً إلى الأكبر.

أترى بعدُ ما هو هذا الدخان ومتى؟ هل إنه مضى فيما مضى أو يأتي كشرط من أشراط الساعة الكبرى؟ لا نعرف فيما مضى دخاناً يغشي الناس كُلَّا ولا جُلًّا أو بعضاً من السماء كعذاب أليم، فعلّه من أشراط الساعة كما يروى عن نبي الساعة»[٢].

وقد وصف ذلك الدخان بثلاث: ١ - ﴿مُّبِينٍ﴾، ٢ - ﴿يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ﴾، ٣ - ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ مما يؤكد أنه من أشراط الساعة المستقبلة، فـ ﴿مُّبِينٍ﴾ قد يعني إبانة الدخان عن أمر غير مبان وأهمه الساعة، فدخان الساعة رجعٌ للسماء إلى ما كانت من دخان الغاز، ودونه دخانٌ من أشراط الساعة، كما انشقاق القمر من قبل هو من أشراط انشقاقه عند الساعة، وأين دخان من دخان وانشقاق من انشقاق، اللهم إلّا أنهما من أشراطها.

---

(١) سورة السجدة، الآية: ٢١.

(٢) الدر المنثور ٦: ٢٩ - أخرج ابن جرير عن حذيفة بن اليمان مرفوعاً أوّل الآيات الدجال ونزول عيسى ونار تخرج من قعر عدن أبين تسوق الناس إلى المحشر تقيل معهم إذا قالوا والدخان قال حذيفة: يا رسول الله ﷺ وما الدخان؟ فتلا رسول الله ﷺ: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ﴾ [الدّخَان: ١٠] يملأ ما بين المشرق والمغرب يمكث أربعين يوماً وليلة، أما المؤمن فيصيبه منه كهيئة الزكمة وأما الكافر بمنزلة السكران ليخرج من منخريه وأذنيه ودبره، وأخرج ابن جرير والطبراني بسند جيد عن أبي مالك الأشعري قال قال رسول الله ﷺ: إن ربكم أنذركم ثلاثاً الدخان يأخذ المؤمن منه كالزكمة ويأخذ الكافر فينفخ حتى تخرج من كل مسمع منه والثانية الدابة والثالثة الدجال، وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: يهيج الدخان بالناس. وأخرج مثله عبد بن حميد وابن جرير عن الحسن، قال بلغني أن رسول الله ﷺ قال:... وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن علي عليه السلام قال: إن الدخان لم يمض بعد - ثم ساق مثله..
وفي المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي ٢: ١١٧ «طلوع الشمس من مغربها أو الدخان أو الدجال» م فتن ١٢٨، ٣٩، ٤٠، ١٢٩، د ملاحم ١٢، ت فتن ٢١، جه ٢٥، ٢٨، حم ٢، ٣٢٤، ٣٣٧، ٣٧٢، ٤٠٧، ٤٤٦، ٥١١، ٤، ٦، ٧.

و﴿يَغْشَى ٱلنَّاسَ﴾ كـكـل: ﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَـٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾(1) والساعة غاشية ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ﴾(2) ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(3).

يغشاهم ذلك الدخان أدنى من غشية الساعة، فيشملهم عذاباً ﴿هَـٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾! وترى الطغاة هم الذين يستحقون غشية العذاب الأليم هنا ويوم الدين، فما بال التقاة يغشاهم معهم هنا دون يوم الدين؟.

علّه لهم عذاب دونما للطغاة تخفيفاً عنهم وكما يروى عن الرسول ﷺ يأخذ المؤمن منه كالزكمة وأما الكافر بمنزلة السكران يخرج من منخريه وأذنيه ودبره، فينتفخ حتى يخرج من كل مسمع منه(4)! فقد اختلف عذاب الدخان هنا بين المؤمن والكافر وكما يختلف في قيامة التدمير ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾(5).

وحتى إذا لم يختلف عذاب الدخان هنا والزلزال هناك، فهو للكافر عذاب قبل العذاب الأكبر، وللمؤمن عذبٌ حتى يخفف عنه من العذاب الأكبر، وكما في الزلازل والبركانات التي لا تميّز بين مؤمن وكافر! وقد يشير ﴿يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَـٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ إلى الأكثرية الساحقة من نسناس الناس حينذاك فإنه من أشراط الساعة القريبة إلى الرجعة وقيام المهدي من

(١) سورة يوسف، الآية: ١٠٧.
(٢) سورة الغاشية، الآية: ١.
(٣) سورة العنكبوت، الآية: ٥٥.
(٤) المصدر في الصفحة السابقه برقم (٢).
(٥) سورة الحج، الآيتان: ١، ٢.

آل محمد ﷺ الذي به يملأ الله الأرض قسطاً وعدلاً بعدما ملئت ظلماً وجوراً.

وقد يعني دخان السماء الغاشي ما يحصل في الحرب العالمية الثالثة، التي يذهب فيها ثلثا الناس أو ثلاثة أرباعهم، أو سبعة أو تسعة أعشارهم حسب مختلف الحديث ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾[1] ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾﴾[2].

فنسل يأجوج ومأجوج من كل حَدَب مرتفع، تهجّماً على من تحت كل حدب، قد يعمل دخاناً غاشياً كعذاب أليم، وكما نرى الطائرات الحربية كيف تشعّل ناراً ودخاناً في كل حَدَب؟.

ومهما يكن من شيء فدخان السماء الغاشي كلّ إنسان قبل الساعة هو من أشراط الساعة، سواء أكان من هذه الحرب العالمية، والنسل اليأجوجي، أماذا من عوامل الدخان بشرياً أم إلهياً، اللّهم لا علم لنا إلّا ما علمتنا!

وترى ما هو - إذاً - لسان حال الناس وقالهم، أفهم تائبون وإلى ربهم آئبون ومن بعد الغفلة يتذكرون؟.

﴿رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾:

فمن الناس - حينئذٍ - النسناس الخناس، المتولون عن الرسول

(١) سورة الأنبياء، الآيتان: ٩٦، ٩٧.
(٢) سورة الكهف، الآيتان: ٩٨، ٩٩.

القائلون إنه مجنون، يقولون: ﴿رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ نؤمن الآن أو آمنا وهم كاذبون، و﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ حتى يؤمنوا وقد تعرّق في أعماقهم الكفر حيث ﴿وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾: لكلٍّ حقٌّ كالشمس في رابعة النهار ﴿ثُمَّ﴾ بعد البيان ﴿تَوَلَّوْاْ عَنْهُ﴾ وازدادوا كفراً حيث ﴿وَقَالُواْ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ بدل أن يقولوا «معلّم عاقل»!

ورغم أننا عالمون بكيدهم في استكشاف العذاب وكيدهم في دعوى الإيمان ﴿إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ قَلِيلاً﴾ تحقيقاً لما التمستم وإظهاراً لما كذبتم وكدتم ﴿إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾ إلى ما كنتم ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾[1] وكما يعود تطهيراً للأرض ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[2] فذوق العذاب هو لمسه، وكشف العذاب يعم قبل اللمس وبعده، أم لذوقه، دركات عدة بعضها تلو بعض!

وأما الناس المؤمنون أم غير المكذبين من دونهم فقد لا يستكشفون العذاب، لأنهم ليس لهم عذاباً، أو يرونه تخفيفاً لهم عن آثام لهم فيقبلون، وإلى ربهم يُقبلون!.

ثم لا يكفي فريق النسناس ذوق العذاب الأدنى وعوده - بل: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ منهم!

وترى ناكرو الرب إلحاداً وإشراكاً كيف يستكشفون العذاب وهم في أعمق الكفر وأحمقه؟.. إنها نداء من عمق الفطرة عندما تتقطع الأسباب، فيظهر عنها ما تخفى تحت ستارات الذنوب والشهوات، وكما الله ينبّه الغافلين ويوجّههم إلى تلك الحالة، لمّا ﴿جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨.
(٢) سورة السجدة، الآية: ٢١.

مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ . . . ﴾[١].

وكيف يكشف الله عنهم العذاب قليلاً وهو يعلم كذبهم ﴿إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ والإيمان عند رؤية البأس لا ينفع؟ إنه ليس من منافع الإيمان الكاذب حيث لم يُتقبّل، وإنما هو تأجيل للعذاب حجة عليهم ولمن دونهم إنهم كاذبون، فكشف العذاب هنا من أصله هو من منافع الإيمان، وكشفه قليلاً هو من حجج اللّاإيمان! فتنة عليهم وأخرى لغيرهم[٢].

ومن ثم كيف تُحيل ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ ذكرى الإيمان، بأن تولوا عن الرسول المبين وقالوا معلم مجنون؟ إنه استحالة بالاختيار، حيث زاغوا عن بيان ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[٣] ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[٤] ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾[٥] ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ﴾[٦].

وترى ﴿إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا﴾ تعني تقليل العذاب كشفاً عن وطأته، أم تقليل الزمان كشفاً عن أصله؟ قد تعني «قليلاً» كلتا القلتين إذ تحملهما أدبياً ويناسبانه معنوياً، أو أن كشف العذاب يقتضي نفيه عن أصله زمناً «قليلاً» ﴿إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾ بعد قليل، فالقلة الزمنية مقصودة على أية حال، والقلة

---

(١) سورة يونس، الآيتان: ٢٢، ٢٣.
(٢) عليهم فتنة شر أن يبتلوا بعذاب أكبر ويظهر كذبهم لمن لم يظهر له أنهم كاذبون، وفتنة خير لغيرهم انتباها.
(٣) سورة النمل، الآية: ١٤.
(٤) سورة الصف، الآية: ٥.
(٥) سورة البقرة، الآية: ٧.
(٦) سورة النساء، الآية: ١٥٥.

الأخرى مشكوكة، أم إنها تقليل للفتنة والحجاج عليهم ولمن سواهم، فلتكن قلة زمنية لا غيرها!.

وأمّا ﴿مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ فمجنونها يفسر معلَّمها أن ليس تعليماً إلهياً حيث المشركون لم ينسبوا إلى الله فرية الجنون أم تعليم الجنون، فإنما هو تعليم بشري في سحر وجنّة، أو في غيرهما: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾(١).

﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ انتقاماً يستحقون، جزاءً وفاقاً بما كانوا يعملون، حيث البطشة الدنيا هي ما دون الكبرى مهما كانت كبيرة.



(١) سورة النحل، الآية: ١٠٣.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾﴾

﴿۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾﴾:

فتنة سالفة قبل فتنتهم، من جنات وعيون وزروع ومقام كريم، ونعمة كانوا فيها فاكهين، وأن جاءَهم رسول كريم، وإنّها لفتنة كبرى أن يصبح الإنسان في قوة ونعمة وثراء ثم يأتيه رسولٌ من الله يهدّده بطغواه فيها ويحدُ له تقواه.

وهذه من النصوص على الرسالة العالمية لموسى الرسول ﷺ إذ جاء قوم فرعون، كعديد أمثالهم، وهكذا تقتضي كرامة الرسالة وسعتها ألّا تخص قوماً دون سواهم، مهما ركزت على قوم دون آخرين كما في بني إسرائيل،

﴿وَجَآءَهُمۡ رَسُولٞ كَرِيمٌ﴾ برسالة كريمة، وهم لئام مستكبرون، ومن ثم بنو إسرائيل لئام مستضعفون إلّا شذَّر منهم نبيون أم مؤمنون، وما وُصف رسول بشخصه أنه كريم إلّا موسى ومحمد ﷺ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾[1] وقرآنه: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾[2] طالما الرسل بوجه عام: ﴿سَفَرَةٖ ١٥ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ ١٦﴾[3] وعلّ هذا الاختصاص فيهما لموضع اللئامة المنقطعة النظير في قوم موسى وهذا البشير النذير.

وما هي دعامة الرسالة الموسوية إلى فرعون وملئه، في اختصار دون احتصار؟ إنها:

﴿أَنۡ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ١٨ وَأَن لَّا تَعۡلُواْ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ١٩﴾:

إنها تختصر في سلبية الفرعنة والاستكبار على عباد الله وعلى الله، وما لم يتحقق السلب فلا دور للإيجاب، فـ ﴿أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِۖ﴾ تطلّبٌ أوّل من برثنة الفرعنة هو تخلية السبيل من عبادِهِ لله استعبدهم فرعون وملأه، إذ جعلوهم عبيداً لهم من دون الله، ولا يتضرر من هذه السلطة إلّا من تحت السلطة وهم بنو إسرائيل المستضعفون المستعبدون، فليبدأ بهم تخليصاً لهم عن المستعبدين، ومن ثم يرجعهم إلى عباد رب العالمين، فما لم يخرج الإنسان من عبودية من سوى الله، ليس ليصبح عبداً لله.

ثم ﴿وَأَن لَّا تَعۡلُواْ عَلَى ٱللَّهِۖ﴾ تطلُّب ثان، فإن فرعون كان عالياً من المسرفين، على عباد الله استعباداً، وعلى الله ادعاءً ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾[4] فهو الطاغوت الذي يطغى على عباد الله ويطغى على الله!:

---

(١) سورة الحاقة، الآية: ٤٠.
(٢) سورة الواقعة، الآية: ٧٧.
(٣) سورة عبس، الآيتان: ١٥، ١٦.
(٤) سورة النازعات، الآية: ٢٤.

يعلل الأمر الأول بـ ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ رسول لكم من الله أحمل أمانة الله، فأدوا إليّ عباد الله لأحقق فيهم ما ائتمنت من الله، وحتى إذا كانوا هؤلاء عباداً لكم مملوكين، فالله يملكهم وإياكم، وقد أرسلني لاستدعائهم منكم تخليصاً لاستعدائكم عليهم.

ويعلل الثاني ﴿وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ﴾ بـ ﴿إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ ألّا سلطان لكم على الله وعباده، وألّا إله إلّا الله وأني رسول الله، سلطان يبين صدق ما أقول.

فالعلوّ الظالم أياً كان، على عباد الله وعلى الله، إنه رذيل قبيح، تطارده الرسالات الإلهية كأصل أصيل من أصولها، وهذا الرسول الكريم يُؤمر أولاً بسلب العلو الأوّل، ومن ثم الثاني، فإن العباد هم المستاؤون المتضررون من هذا العلوّ كواقع خطير، ولكنما الله لا يعلى عليه إلّا في توهمات واهية، تُركِّز الرسالة الإلهية على سلبها ثانية، ولكي لا يعلو على عباد الله بتركهم العلو على الله، وتعبدّهم لله!

ثم «ليس عباد الله» هنا لمحة إلى كرامتهم في عبادة الله لموقفهم المتخلف طول تاريخهم، وإنما هي تعريضة بآل فرعون أن اتخذوهم عباداً لهم، فالواجب الرسالي تخليصهم عن أسر العبودية لغير الله، حفاظاً على ساحة الربوبية وتحريراً لمستضعفي عباد الله!

﴿وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ﴾[(١)] ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾[(٢)] وتحذراً من خلفيات هذه التطلُّبات الثقيلة على آل فرعون يستعيذ بالله أن يرجموه، وقد كان عذاب الرجم عندهم أشد العذاب، وهذا الرسول الكريم لا يترك أو يؤخر دعوته خوف الرجم، ولا يعوذ بهم من عذاب الرجم، وإنما:

---

(١) سورة الدخان، الآيتان: ١٧، ١٨. (٢) سورة طه، الآية: ٤٧.

﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾﴾:

«عذت» الماضي لا «أعوذ» الحال أو المستقبل، تدليلاً على أن زاده في دعوته عوذ الرب فإنه رسول الرب فليُعذه ربه في هذه السبيل الشائكة الفاتكة وكما أعاذ!.. وآخر المطاف في دعوته:

﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾﴾:

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[1] فلا تتعرضوني برجم أم ماذا؟ كما لا أحملكم على ما أدعوا كرهاً دون اختيار ﴿فَاعْتَزِلُونِ﴾ فإنما شأني بعد كمال الدعوة مع ربي:

﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾:

أجرموا قطعاً لثمرات الإنسانية الحرة قبل إيناعها، وفصلوا عنها كافة معداتها، والرسالة حياة جماهيرية وسلالة من ثمرات الإنسانية هم مجرموها وقاطعوها، يا رب أنت بعثتني للإثمار الإيناع لاستعدادات خاملة كرماً على الإنسانية جمعاء ﴿وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ وهم برجمهم المهدّد مجرمون هذه البعثة الكريمة فأنت وشأنك يا رب! فلا مخلص لي في أمرك إلّا بأمرك يا رب!

هنالك تأتي الإجابة فور الدعاء كأنها آتية مع الدعاء، ولمّا يصل أمرك إلى ما وصل:

﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾:

«أسر بهم» فراراً عن تجدد حصرهم وأسرهم إياكم، ولأن سراةَ كل شيء أعلاه، فالإسراء ليلاً هو السير بهم في مرتفع الليل ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ رغم ظلام الليل وارتفاعه:

---

(١) سورة الكافرون، الآية: ٦.

﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًاۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾﴾:

ولماذا هذا السريّ السريُّ في مرتفع الليل؟ ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ على أية حال، فليكن الفرار ليلاً لكي يبطئوا عن اتبّاعكم فلا يلحقوكم، وإذا اقتربوا إليكم بحراً، ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًاۖ﴾ لـ ﴿إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ في اتباعهم إذا وجدوه رهواً!.

والرّهو هو السكون، وهو الفرجة الواسعة، وكيف يترك البحر ساكناً على التطامه وتموّجه؟ إنه ضرب بعصاه البحر: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾[1] وهذا المنفلق أصبح طريقاً يَبَساً: ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا﴾[2] وعلّ رهو البحر هو طريقه اليبس بفرجة واسعة، إذ لا ماءَ فيه حتى يلتطم ولا ضيق حتى يصطدم، أم ورهو سائر البحر الماء مدَّ البصر من الطريق اليبس دفعاً عن الرهب،

هنا يؤمر موسى أن يترك البحر في رَهوه أم رهويه كيلا يهابه آل فرعون، فيدخلوه لكي يصبحوا ﴿جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ وقد حصل ما أراد الله من غرق آل فرعون المتبقين وإنجاء بني إسرائيل المتبَعين! وقد تلمح ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ﴾ أن موسى أراد بعد الخروج عن البحر أن يرجعه إلى ما كان صدّاً عن آل فرعون، فأمره الله بترك البحر رهواً ﴿إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ أتركه لإغراء فرعون فإغراقه، وهكذا ينفذ قدر الله من خلال الأسباب جلية وخفية، لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى!

هنا يطوى شريط حياة الطغاة الشريرة في إيحاءات قصيرة، تعقيباً عليه يشي بهوان فرعون الذي كان يشمخ بخرطومه فيطأطئ له المستخفون طاعة عمياء وعبادة طخياء، تاركاً كل ثرواته ونعماته.

---

(١) سورة الشعراء، الآية: ٦٣.
(٢) سورة طه، الآية: ٧٧.

﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾﴾:

تركوا كل كريم وكريم، إذ تركوا الرسول الكريم، ونعمة لا نِعمة، حيث النِّعمة هي الحالة الحسنة من مال أو حال، ومن حُسنها بقاؤها في كل النشآت فإنها هيئة، والنَّعمة هي التنعم المَرة ثم انقطاع فإنها مرُة، وهي للمتنعمين بها خاصة بالدنيا أيَّاماً أم بالتمام ثم تنقطع عنهم بالمرة وتصبح بعدها مُرَّة، ولا نجد النعمة في سائر القرآن إلّا هنا!

فهؤلاء الحماقى هم الذين يبدلون نِعمة الله نَعمة فنقمة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾(١).

تلك النعمة الجنات والعيون وزروع ومقام كريم، هم كانوا فيها غريقين فاكهين: يتعاطون فيها الفكاهة ومختلف ألوان الشهوة بكل تفاهة ورذالة وحيونة

﴿كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾﴾:

﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾(٢) ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾(٣)!

ترى وهل أورث بنو إسرائيل كل ما كان لفرعون وملئه وحتى ﴿وَنَعْمَةٍ

---

(١) سورة إبراهيم، الآيتان: ٢٨، ٢٩.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٣٧.
(٣) سورة القصص، الآيتان: ٥، ٦.

كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ﴾؟ علّه لا! حيث النّعمة مضلّلة ومن مقامهم استعلاء على الله واستعبادٌ لعباد الله!

أو علّه نعم، حيث النَّعمة هي النِّعمة التي تبدّل بكفرانها والكفر بها نَعمةً، فإرث النَّعمة للصالحين منهم نِعمة، وللطالحين نعمة، وكما المقام الكريم السّلطة، كلٌّ يعاملها حسب البُغية والشاكلة، وليس لزام الإيراث نقل عين الميراث، وإنما عزل قوم ونقل آخرين إلى ما كانوا يملكون، على تحول وتبدل أماذا؟

﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾:

ترى وهل تبكي السماء والأرض على المؤمن لكيلا تبكي على الكافر وما بكاؤهما؟ أجل وكما يروى عن الرسول ﷺ بكاءً عليه وتحزناً من مواضع صلواته ومصاعد أعماله[1] ولأن البكاء هي التحزن البادي على وجه الباكي، وانقطاع عمل المؤمن بموته انقطاع لما يصعد إلى السماء من أعماله ولمّا ينزل إلى الأرض من بركاته، فكأنهما إذاً تبكيان، وبنفس الحجة هما

---

(١) الدر المنثور ٦: ٣٠ - أخرج الترمذي وابن أبي الدنيا في ذكر الموت وأبو يعلى وابن أبي حاتم وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية والخطيب عن أنس قال قال رسول الله ﷺ: «ما من عبد إلّا وله في السماء بابان باب يصعد منه عمله وباب ينزل عليه من رزقه فإذا مات فقداه وبكيا عليه وتلا هذه الآية: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [الدخان: ٢٩] وذكر أنهم لم يكونوا يعملوا على وجه الأرض عملاً صالحاً يبكى عليهم ولم يصعد لهم إلى السماء من كلامهم ولا من عملهم كلام طيب ولا عمل صالح فتفقدهم فتبكي عليهم.

وأخرج ابن أبي الدنيا وابن جرير عن شريح بن عبيد الحضرمي مرسلاً قال قال رسول الله ﷺ: إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً، ألا لا غربة على مؤمن ما مات مؤمن في غربة غابت عنه فيها بواكيه إلا بكت عليه السماء والأرض ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ ثم قال: انهما لا يبكيان على كافر.

واخرج ابن المبارك وعبد بن حميد وابن أبي الدنيا وابن المنذر من طريق المسيب بن رافع عن علي ؑ قال: إن المؤمن إذا مات بكى عليه مصلاه من الأرض ومصعد عمله من السماء ثم تلا هذه الآية.

على الكافر يضحكان، حيث تنقطع أعماله التي كانت تسوّد كتاب الأرض والسماء، وتزعج كُتَّابهما الذين يستنسخونها!

ومن ثم فأهل السماء والأرض - المطلعون على وفاة المؤمن - هم عليه باكون وعلى الكافر ضاحكون! ثم ومن البكاء الاستنصار، الذي هو كائن من أهل الله للمؤمن وبائن عن الكافر!

ثم المؤمن ولا سيما العالم إذا مات ثلم ثلمة دون الكافر، وقد يمثلون خلو الدار عن سكانها وقُطّانها، بأنها باكية عليهم ومتوجعة لهم لانقطاع أسباب النعمة والأنسَة عنها، ولكنما الكافر حياته عذاب على الناس، فلا تبكي عليه السماء والأرض، إذ لا أثر له صالحاً حتى ينقص بفقدانه، ولو كانتا من الجنس الذي يصح منه البكاء لم تبكيا عليهم ولم تتوجعا لهم إذ كان الله عليهم ساخطاً، ولهم ماقتاً، وحياتهم عذاب على أهل السماوات والأرض.

كل هذه البكاء ثابتة للمؤمن، منفية على الكافر ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴾ حيث أغرقهم الله دون إنظار وما كانوا منتصرين.

المستضعفون وهم دوماً الأكثرية الساحقة، ومن معهم من رسل الله وملائكة الله و سائر المؤمنين، هم كلهم يفرحون ويرتاحون لموت الكافر ويبكون لموت المؤمن.

فهناك بكاءٌ للسماء والأرض على المؤمن، كلما ازداد إيمانه ازدادت حيث تحمرُّ كما احمرَّت ليحيى بن زكريا وللحسين عليه السلام [1] وبكاءٌ لأهل

---

(١) الدر المنثور ٦: ٣٠ وأخرج ابن أبي حاتم عن عبيد المكتب عن إبراهيم (رضي الله عنه) قال: ما بكت السماء منذ كانت الدنيا إلّا على اثنين، قيل لعبيد: أليس السماء والأرض تبكي على المؤمن؟ قال: ذاك مقامه وحيث يصعد عمله، قال: وتدري ما بكاء السماء؟ قال: لا - قال: تحمر وتصير وردة كالدهان، إن يحيى بن زكريا لما قتل احمرت السماء وقطرت دماً وإن الحسين بن علي عليه السلام يوم قتل احمرت السماء، وأخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن زياد =

السماوات والأرض، ولكِتاب الأعمال وكُتّابه، وللحياة الصالحة حيث البكاء تحزُّن بانتقاص في الحياة، وانتقاض في سنن الحياة، وبكاءُ كل شيء بحسبه!

وهناك ضحكٌ لها كلها لموت الكافر، كلما ازداد كُفراً ازدادت ضحكاً وضحك كل شيء بحسبه، وترى هلّا يبكي على الكافر حتى الكفار، الذين كانت لهم حظوة وشهوة من حياته؟ : : مورد الآية هم آل فرعون وقد استأصلوا بالغرق، ومن ورائهم مستضعفون من بني إسرائيل وسواهم وهم يضحكون.

ثم وسائر الكفار الذين يموتون عن أمثالهم، فقليل بواكيهم والضاحكون

= قال: لما قتل الحسين احمرت آفاق السماء أربعة أشهر.

أقول: ومن طريق أصحابنا روي بكاء السماء على يحيى وعلى الحسين عليهما السلام. القمي في تفسيره قال حدثني أبي عن حنان بن سدير عن عبد الله بن الفضل الهمداني عن أبيه عن جده عن أمير المؤمنين صلوات الله عليه قال: مر عليه رجل عدو لله ولرسوله فقال: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٩] ثم مرّ عليه الحسين بن علي عليه السلام فقال: لكن هذا لتبكين عليه السماء والأرض، وما بكت السماء والأرض إلا على يحيى بن زكريا وعلى الحسين بن علي عليهما السلام، وفي كتاب المناقب لابن شهرآشوب عن الباقر عليه السلام أن علياً عليه السلام خرج قبل الفجر متوكئاً على عنزه والحسين عليه السلام خلفه يتلوه حتى أتى خلفه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم قال: إن الله تعالى ذكر أقواماً فقال: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ والله ليقتلنه ولتبكين السماء عليه.

وفيه عن الصادق عليه السلام بكت السماء على الحسين أربعين يوماً بالدم وفيه عن إسحاق الأحمر عن الحجة عليه السلام حديث طويل في أواخره: وذبح يحيى عليه السلام كما ذبح الحسين ولم تبك السماء والأرض إلّا عليهما (نور الثقلين ٤: ٦٢٧ - ٦٢٨). وفي تفسير البرهان ٤: ١٦١ ج ٤ عن القمي عن أمير المؤمنين عليه السلام في الرحبة وهو يتلو هذه الآية إذ خرج عليه الحسين بن علي عليه السلام من بعض أبواب المسجد فقال: أما هذا سيقتل وتبكي عليه السماء والأرض.

وفيه خرج أمير المؤمنين عليه السلام فجلس في المسجد واجتمع أصحابه حوله فجاء الحسين عليه السلام حتى قام بين يديه فوضع يده على رأسه فقال: يا بنيّ إن الله عيّر أقواماً بالقرآن فقال: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴾ وايم الله لتقتلن من بعدي ثم تبكيك السماء والأرض.

عليهم كثير، وبكاء السماوات والأرض يعني الكون كله بمن فيه وما فيه، والشذاذ الباكون على الكافرين، ليسوا السماوات والأرض، بل وليسوا منها بحق حيث لا يعتبرون شيئاً!

ثم «فما بكت» إضافة إلى ما عنته، قد تعني السخرية بهم حيث كانوا يستعظمون أنفسهم، ويعتقدونهم إن ماتوا بكت عليهم الدنيا رغم ما ضحكت، كما نراها تضحك وحتى أهلوها الوارثون لها على فجارها، حيث يستغلونها بما يستقلون بها!

إذاً فذلك تعبير يلقي ظلال الهوان على هؤلاء الطغاة المتطاولين حيث ذهبوا ذهاب النمال، وهم كانوا يطؤون الناس وطأ النعال، أرواح خبيثة منبوذة في الكون، لمّا تنقطع عنه وتستروح فهو يستريح، فإنهم عذاب للكائنين مهين، ثم في الصفحة المقابلة لهم بنو إسرائيل الوارثون:

﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾:

قد يأتي العذاب رحمة رغم كونه زحمة كما للذين يستشهدون في سبيل الله أو يُؤذون دون مهانة في هذه السبيل، وهذا رغم كونه عذاباً ليس من عذاب الله، وإنما عذاب الشيطان ولم يأت في القرآن بصيغة العذاب اللهم إلا أذىً في الله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾[1]:

وقد يأتي من الله تذكيراً ولعلهم يرجعون: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[2] ومنه مهين ومنه غير مهين:

وقد يأتي مهيناً بما قدمت أيدينا وأن الله ليس بظلام للعبيد، وقد كان

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ١٠.

(٢) سورة السجدة، الآية: ٢١.

فرعون من العذاب المهين، حيث أهان كرم الإنسانية باستعبادها، استخفافاً لها ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾[1] في بني إسرائيل قتلاً وفتكاً واستعباداً لرجالهم واستحياءً لنسائهم: ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[2] ﴿وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾[3].

﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا﴾ تأكيدات ثلاث[4] أنه نجاهم من العذاب المهين - «من فرعون» ولماذا؟ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ عالياً على عباد الله استعباداً لهم وعلى الله ادعاءً للربوبية العليا، مسرفاً في علوّيه، وليس الله ليصبر على هكذا هتك وفتك لساحته وعباده، اللّهم إلّا امتحاناً للعلات على علّاتهم وامتهاناً لمن تخاذلوا أمامهم على علّاتهم:

إن العلو الاستعلاء بغير حق وفي إسراف هو من أهون العذاب المهين لجماهير المستضعفين. ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾[5] ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[6] ولقد أسرف في علوه حتى على الله مساً مهيناً من كرامة الله ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾[7]. فهنالك نجاة لبني إسرائيل من هذا العذاب المهين، ومن ثم اختيار لهم على علم على العالمين:

﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾﴾:

اختيار إلهي انتخاباً لخير الموجودين في ذلك الزمن، و«على علم»

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٥٤.
(٢) سورة القصص، الآية: ٤.
(٣) سورة البقرة، الآية:
(٤) هي لـ - قد - نا. فإن (نا) جمعية الصفات أنه تعالى بهذا الجمع العظيم نجاهم.
(٥) سورة يونس، الآية: ٨٣.
(٦) سورة القصص، الآية: ٤.
(٧) سورة النازعات، الآيتان: ٢٣، ٢٤.

بحالهم ومسيرهم ومصيرهم، وبخيرهم وشرهم، والله يعلم أنهم سوف يصبحون من أفسد المفسدين، لحد قلّما نجد أقواماً في التاريخ الرسالي - فيما يقصه القرآن - كأمثالهم فيما أفسدوا.

ولكنه لما يعلمه الله أنهم على حالهم واستقبالهم من أفضل العالمين وأحقهم بالانتصار حيث استضعفوا بالفرعنة الجبارة وهم موحدون، وأن فيهم أنبياء صلحاء مهما حصل بينهم من انحراف وانجراف وتلكّؤ والتواء: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ۝٦﴾[1].

لقد كان ذلك اختياراً مؤقتاً باختبار وحتى في الآيات التي أوتوها بلاء مبيناً:

﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ۝٣٣﴾:

وهي الآيات التي خصتهم دون آل فرعون، إذ كانت في غرقهم كفلق البحر، أو بعد غرقهم كانبجاس العيون من الحجر، ونتق الجبل، وإنزال المن والسلوى عليهم، وبنتيجة اختبارهم وسقوطهم في هوّات الضلالة والإفساد سلبت عنهم النبوة إلى نبي اسماعيلي، وبعث عليهم من يشردهم ويسومهم سوءَ العذاب إلى يوم القيامة ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[2].

و﴿مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ﴾ تلميحة بينة أن هذه الآيات المعجزات كانت بطيّاتها بلاءٌ مبين يبين مدى إيمانهم أو كفرهم وكفرانهم.

---

(١) سورة القصص، الآيتان: ٥، ٦.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٦٧.

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾﴾ :

.. عرض لقيلة شائنة عن شأن الموت والحياة لغير الموحدين من مشركين وملحدين، القيلة التي سوف يستنكرونها يوم الدين إذ يعترفون بكرور الموت والحياة مرتين مرتين: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾[1] [2] وهم كانوا بها كافرين، ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾؟[3].

فـ ﴿إِنْ هِيَ﴾ العاقبة أو النهاية أو - وبأحرى - الموتة ﴿إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى﴾ فلا ثانية لها: أن نموت عن حياة برزخية هي بعد الموتة الأولى ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ﴾ عن الموتة الثانية.

فقد ينكر هؤلاء الناكرون أية حياة بعد الأولى ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾[4] رغم أنهما إحياءان!.. أو ينكرون أيّة إماتة بعد الأولى ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ﴾ كما هنا.

فنكران الموتة الثانية نكران للحياة البرزخية بعد الموت، حيث الموتة الثانية تستلزم حياة بين الموتتين، ثم ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ﴾ نكران للحياة الآخرة بعد الموتة الثانية.

فـ ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا ... وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾[5] نكران للحياة الأخرى و﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ﴾ نكران للحياتين بعد الموت، والحياة البرزخية ضرورة كما الحياة الأخرى.

---

(١) سورة غافر، الآية: ١١.
(٢) راجع تفسير الآية من سورة المؤمن ستجد بحثه المفصل.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٨.
(٤) سورة المؤمنون، الآية: ٣٧.
(٥) سورة الأنعام، الآية: ٢٩.

فهنالك إماتتان وإحياءان، إحياء أول للحياة الدنيا ثم إماتة عنها فحياة برزخية، ثم إماتة ثانية ومن ثم إحياء ثان للأخرى، هم يعترفون بهما يوم الدين، وهم أولاء ينكرونها يوم الدنيا!».

هم هكذا يدعون دون برهنة على دعواهم، ولا يصدقون أية برهنة إلّا أن يؤتى بآبائهم:

﴿فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٦﴾﴾:

أفإتياناً بهم أحياء لكي تثبت نشرة بعد موتة؟ فلماذا آباؤهم وهم لا يعرفونهم عياناً! وهم بمشهد متواتر من حياة بعد موت نباتية وحيوانية، ثم النشرة ليست إلّا في الأخرى جماهيرية، وفي الرجعة جمهرات خاصة، وليس صدق القول في النشرة يحصر في نشر الآباء، ثم ولا يثبت نشرهم إلى الحياة الدنيا نشرهم إلى الأخرى إلا إمكانية بالمماثلة، وهي حاصلة عملياً وواقعياً!

أو إتياناً بهم ليسألوهم هل هناك نشرة بعد الموتة، وهم كأمثالهم في نكرانها! وحتى إذا صدقوها كيف هم يصدّقون وحملة الوحي يكذّبون، وإذا تكذّبون حملة الوحي بآياتهم المعجزات وأنتم تعرفونهم فأنتم أولى تكذيباً لآبائكم وأنتم لا تعرفونهم، ولو عرفتموهم فلا حجة في أقوالهم إلّا أنهم آباؤكم، تقليداً أعمى، وتقديماً لقولة الموتى!

وهذه خرافة تتكرر وشريطة تعاد على ألسن الناكرين ليوم الدين: من الذي مات ثم رجع حتى يخبرنا عن الحياة الأخرى؟ يسألونه كأن لا جواب لهم إلّا نكرانها، وليس تصديقها محصوراً في أخبار الموتى، وإنما تتبع أدلتها العقلية والواقعية الأخرى في إمكانية الحياة الحساب وضرورتها دون أن يثبتها قولات الموتى، أو تنفيها هي أم أموراً أخرى.

فإن هي إلا طنطنات وشنشنات يهرفها الخارفون وينكروها العارفون، فإن لكل مدلولٍ دليلاً يخصه دون ما يتعنّته الناكرون.

إنهم يغفلون أو يتغافلون عن حكمة النشرة الحساب، أنها للوصول بالصالحين إلى النهاية الكريمة التي تهيؤوا وتأهلوا لها في الرحلة الدنيا، والوصول بالطالحين إلى النهاية الحقيرة الذليلة التي قدّموا لها من حياتهم الرذيلة، وخطواتهم المرتكسة في الحمأة القذرة.

إذاً فدور البعث والنشور ليس إلّا بعد انقضاء الحياة الأرضية كلها، دون أن تكون لعبة تتم حسب أيّة رغبة أو نزوة وتهوسة لفرد أو جماعة، كي يصدقوا بالحياة الآخرة ولن يصدقوها مهما غرقوا في واقع الأدلة.

هنا وقبل توجيههم إلى أدلة قاطعة على ضرورة الحياة الحساب، يلمس قلوبهم المقلوبة بلمسة ضريعة سريعة عن مصارع مسارع لِمَن قبلهم كقوم تبع:

﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾:

تبَّع هذا هو أسعد الحميري من الملوك الحميريين باليمن، لا نجد له ذماً في القرآن إلّا لقومه، مما يلمح إلى إسلامه وكما يروى عن الرسول ﷺ: «لا تسبوا تبعاً فإنه كان قد أسلم»[١] «وهو أوّل من كسا الكعبة»[٢].

---

(١) الدر المنثور ٦: ٣١ - أخرج أحمد والطبراني وابن أبي حاتم وابن مردويه عن سهل بن سعد الساعدي قال قال رسول الله ﷺ: لا تسبوا . . ، وأخرج ابن المنذر وابن عساكر ووهب بن منبه قال: نهى رسول الله ﷺ عن سب أسعد وهو تبع قيل وما كان أسعد؟ قال: كان على دين إبراهيم.

(٢) المصدر أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: لا تسبوا أسعد الحميري وقال: هو أول من كسا الكعبة، وروي في المجمع عن الوليد بن صبيح عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن تبعاً قال للأوس والخزرج: كونوا هاهنا حتى يخرج هذا النبي ﷺ أما أنا لو أدركته لخدمته وخرجت معه.

فهنا قوم تبع، وفي (ق) ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾[١].

قوم تبع كانوا خيراً منهم قائداً فتخلفوا عنه، وأكثر منهم نعمة فبدلوها نَعمة ونقمة فاستحلوا دار البوار جهنم يصلونها وبئس القرار، ومن قبل ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ فلا سبيل لكم إلّا الهلاك.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾:

توجيه بعد تهديد إلى برهان لضرورة الحياة الأخرى، أن لولاها لكان خلق السماوات والأرض وما بينهما باطلاً ولعبة، ولكنما الإله الحق لا يأتي إلّا بالحق، وحق الخلق لزامه حق الحياة الحساب.

إن خلقها لعباً لهوٌ في الخلق، وضلال بعيد عن غاية الخلق: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾[٢].

إذاً فالخلق دون الحياة الحساب لعب وهو لهو بالخلق مستحيل على الله في بعدين لو أراده - ولن -! لاتخذه من لدنه دون خلقه، حيث اللهو بهم ظلم في ظلم وما الله بظلام للعبيد!.

أترى لماذا اللعب اللهو في خلقهما لولا الحياة الحساب؟ لأن الخلق فيهما، بينهم ظلامات وتعديات، وتخلّفات عن شرعة الحق، وبينهم استكبارات واستضعافات، وفيهم من يعدل وما أقلهم، والخلق الحق والخالقية الحقة العادلة تقتضي الجزاء الوفاق لكل كما يعمل، فإنه قدير عليم وعدل حكيم، فإذ لا نرى الجزاء الحساب هنا فلتكن حياة أخرى بعدها

---

(١) سورة ق، الآية: ١٤.

(٢) سورة الأنبياء، الآيات: ١٦-١٨.

لتجزى فيها كل نفس بما تسعى، ولولاها لكان الخلق لعبة ولهواً وعبثاً: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[1].

ولأن الخالق هادف غير لاهٍ أو لاعب أو عابث، وأن القصد والتصميم لائح من الخلق، وأنه عدل حكيم، فلتكن هناك حياة أخرى بعد الأولى إذ ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾:

﴿مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾:

أكثرية ساحقة من ناس هم في الحق نسناس لا يعلمون أن لهذا المطاف نهاية، أترى أن هذه الرحلة القصيرة على هذه الكوكبة الصغيرة للإنسان أم أياً كان من الخليقة، في هذا الكون الشاسع الواسع المستخدم لتكامله، كل ذلك تصبح هباءً خواء، دون أية نهاية مقصودة؟

إن الخلق الحق، البعيد عن أي باطل، كيف يحمل باطل اللعب واللهو العبث، في اتساعة دونما حاجة في هذه القصيرة، وفي عدم الحياة الحساب في النهاية.

﴿مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ سبباً وملابسة وغاية، فالخلق إذاً في مثلث الحق، فلو لم يكن حساب أصبح في مثلث الباطل ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

«لا يعلمون» الحق الذي خلقتا به، لا جهلاً ذاتياً قاصراً فهم معذورون، فإنما تجاهلاً وتغافلاً مقصراً فهم مسؤولون!

لا يخفى على ذي حجى أن الفعل من العالم الحكيم هادف قاصد؟ فهل الله يخلق ثم يهرج ويمرج بين خلقه دونما شرعة تضبطهم هنا، وحياة أخرى للحساب يجازيهم فيها هناك؟

(١) سورة المؤمنون، الآية: ١١٥.

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَـٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾:

إنه يوم الفصل بين المحشورين بانفصال العقائد والأعمال، رغم أنه يوم الوصل بين المحشورين فإنه ميقاتهم أجمعين من الأوّلين والآخرين والخيّرين والشّريرين.

فالولاية الواصلة يوم الدنيا في غير الله هي الفاصلة يوم الدين حيث لا يغنى مولى عن مولى شيئاً، اللهم إلّا ولاية الله بين من يتولاه فهي قد تغني شفاعة بإذن الله لمن يشاء ويرضى.

فلا ولاية ولا نصرة هناك إلّا من الله وبإذنه و﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَـٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا﴾(١) فهناك يُنصرون دون إغناء، فإنه الاستقلال وليس إلّا لله، والنصرة دون استقلال فهي حاصلة بشفاعة صالحة.

والمولى هنا هو الذي يلي أمر صاحبه وهو صاحبه الذي يتولى أمره، فالأول هو الأول والثاني هو الثاني، ولماذا لا إغناء هناك ولا نصرة؟ ولا.. إذ ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾(٢) ولا ينصرون: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَـٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾(٣).

﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾﴾:

فمن رحمه الله يغنيه الله وهو المؤمن و﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾(٤) ومن رحمه الله ينصره الموالي في الله شفاعة بإذن الله ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾(٥).

---

(١) سورة مريم، الآية: ٨٧.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٦٦.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٤٨.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٥٧.
(٥) سورة يونس، الآية: ٣.

فـ ﴿إِلَّا﴾ هنا استثناء عن ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ دون «لا يغني» فـ «شيئاً» في سياق نفي الغنى ينفي كل غنى في كل شيء فلا يستثنى، ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ دون شيئاً، يقبل استثناءً لمولىً في شيء كما يشاء الله ويرضى، فالنصرة المساعدة هي موضع الشفاعة على شروطها، دون الغنى المستقلة لمن ليست له أية أهلية للرحمة الإلهية، فالشفيع لا يغني ولا يكفي وإنما ينصر، فإنه تعالى هو الكافي المغني لا سواه ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾[1] اللهم إلّا غنى بالله كما يروي عن الصادق عليه السلام [2] وفي النجم تصديقه: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ﴾[3] فلا يغني أحدٌ إلّا بالله وحتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾[4].

﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب فلا مغني سواه - و﴿الرَّحِيمُ﴾ قد ينصر سواه بإذنه دون أن يغنيه، فالعزة تُحصر فيه حسراً عن سواه، والرحمة قد تكون بإذنه وهي الشفاعة لسواه.

أجل وفي يوم الفصل يتجرد وينفصل الناس من كل سناد لهم في

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٣٦.

(٢) نور الثقلين ٤: ٦٢٩ ج ٣٩ في أصول الكافي أحمد بن مهران عن عبد العظيم بن عبد الله الحسني عن علي بن أسباط عن إبراهيم بن عبد الحميد عن زيد الشحام قال قال لي أبو عبد الله عليه السلام: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ﴾ [الدّخان: ٤٢] نحن والله الذي استثنى الله فكنا نغني عنهم، أقول: يعني الغنى بالله وهي الشفاعة النصرة دونما استقلال.
والمصدر ح ٤٠ عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال لأبي بصير: يا أبا محمد والله ما استثنى الله عن ذكره بأحد من أوصياء الأنبياء ولا اتباعهم ما خلا أمير المؤمنين وشيعته فقال في كتابه وقوله الحق: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ ﴿٤٢﴾﴾ يعني بذلك علياً وشيعته أقول: فعلي وأضرابه من المعصومين هم المولى الشافع والشيعة هم المولى الثاني.

(٣) سورة النجم، الآية: ٢٦.

(٤) سورة يوسف، الآية: ٦٧.

الأرض، من كل قرابة وولاية وآصرة، عائدين إلى ربهم فرادى كما خلقوا أوّل مرة، اللهم إلّا شفعاً برحمة الله لا سواه ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾!

﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ﴾ تعم المولى الناصر الشافع[1] والمنصور المشفع له، حيث المستثنى منه يعمهما ﴿مَوْلًى عَن مَّوْلًى﴾.

﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾:

﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾﴾[2] ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾[3].

إن الأُثماء الظالمين الضالين المكذبين، نزلهم الطعام زقوم يوم الدين، زقوم يأكل زقوماً وذلك عذاب مهين!.

وإنها من الشجرة الملعونة في القرآن يوم الدين، هي أُكلٌ للشجرة الملعونة في القرآن يوم الدنيا، ملعونة بملعونة وزقوم في زقوم، وما أدراك ما زقوم!

إن جرس اللفظ يلمح بجرس المعنى، فكما اللفظ كأنه خنقة الحُلوق كذلك الواقع خنقاً للحلوق وغلياً في البطون ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾

---

(١) نور الثقلين ٤: ٦٣٠ ح ٤١ في تفسير القمي في الآية قال: من والى غير أولياء الله لا يغني بعضهم عن بعض ثم استثنى من والى آل محمد فقال: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الدخان: ٤٢] ثم قال: إن شجرة الزقوم طعام الأثيم، نزلت في أبي جهل بن هشام وقوله عزّ وجلّ: قال: المهل الصفر المذاب، يغلي في البطون كغلي الحميم، هو الذي قد حمي وبلغ المنتهى.

(٢) سورة الصافات، الآيات: ٦٢ - ٦٥.

(٣) سورة الواقعة، الآيات: ٥١ - ٥٦.

فإنها تطلع كخلفيّة لرؤوس الشياطين، فهي إذاً طعام لرؤوس الشياطين، رؤوس للشياطين ورؤوس الشياطين: حملة رايات الشيطنات من الجنة والناس أجمعين.

فهناك مثلث من الزقوم: اسماً في جرس اللفظ، وسمة في شاكلة الواقع، ووصمة في فاعلية تنطبق حذو النعل بالنعل والقذة بالقذة على مثلث الشيطنات أسماء وسمات ووصمات.

والزقم هو الكريه في المنظر والمطعم والريح، فالزقوم هو المبالغ في ذلك، فلا طعام في النار أكره من الزقوم، كما ليس في النار أكره من ذلك الأثيم!

وأنه «كالمهل» المذاب من النحاس والرصاص أو دردي الزيت ﴿يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ﴾ فأحرى به أن يُغلي فيصبح منه البطون غلياً على غلي ﴿كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ﴾ البالغ في الحمّة»[1] مما يحمُّ، وإذا ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾[2] فماذا يصنع حميم الزقوم؟!

﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾:

أمر صارم من الجبار الحكيم، إلى زبانية الجحيم، باعتقال جبار لئيم وهو في زعمه العزيز الكريم ﴿خُذُوهُ﴾ أخذ الاعتقال، وشدّوه في كل إهانة ومهانة على أية حال، وهو في حالة الفرار ولات حين فرار ﴿فَٱعْتِلُوهُ﴾ خذوه

(١) نور الثقلين ٤: ٦٣٠ ح ٤١ في تفسير القمي في الآية قال: من والى غير أولياء الله لا يغني بعضهم عن بعض ثم استثنى من والى آل محمد فقال: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الدّخان: ٤٢] ثم قال: إن شجرة الزقوم طعام الأثيم، نزلت في أبي جهل بن هشام وقوله عزّوجلّ: ﴿كَٱلْمُهْلِ﴾: قال: المهل الصفر المذاب، ﴿يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾ [الدخان: ٤٥-٤٦] وهو الذي قد حمي وبلغ المنتهى.

(٢) سورة محمد، الآية: ١٥.

بمجامعه وجرّوه بقهر ﴿إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾: وسطه وعمقه وكأنه دركه الأسفل المحيط به سائر الجحيم، ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾[١] فإن الجحيم طبقات متداخلة كروية أماهيه، بعضها فوق بعض، مما يزيد كل تاليةٍ عذاباً حتى الدرك الأسفل في المركز الرئيسي منه، كما الكرة الأرضية ذات الحرارة في أعماقها، حيث الأسفل منها مركزها وهي أحرّ من سائر أطباقها.

ولأن أصل الحرارة في الجحيم هو في أصل الجحيم، فأهل الأصل هم صلاؤه والباقون بهم يصطلون: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾﴾[٢] اجعلوه صلاءة الوقود، ثم ماذا بعد الأخذ القتل والجذب والدفع؟

﴿ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ﴾ كما هم صبوا فوق رؤوس المستضعفين من عذاب الحميم، استكباراً عليهم واستخفافاً واستحماراً لهم فأصبحت رؤوسهم خاوية عن الهدى حاوية لكل ردىً، ومن ثم تأنيب وترذيل:

﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ كلمة تقال له حين العذاب، عذاباً فوق العذاب، حيث كنت يوم الدنيا تراك عزيزاً[٣]:

تتغلب على من سواك - كريماً: كأنك المنعم على من سواك لا سواك، وحتى إذا كانت قيامة فأنت أنت لك الحسنى دون من سواك: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾[٤] ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾[٥]: ﴿ذُقْ﴾ ولمّا يصلك

(١) سورة التوبة، الآية: ٤٩.
(٢) سورة الحاقة، الآيتان: ٣٠، ٣١.
(٣) في جوامع الجامع روي أن أبا جهل قال لرسول الله ﷺ: ما بين جبليها أعز ولا أكرم مني.
(٤) سورة فصلت، الآية: ٥٠.
(٥) سورة الكهف، الآية: ٣٦.

العذاب الحساب، وإنما ذوق العذاب! وهذا من جزاء العزيز دونما عزة، والكريم دونما كرامة، وإنما ذلة ولآمة بلا هوادة!

﴿إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ﴾ وتترددون في تكلّف النكران، حيث البينات من كلّ الصنوف واضحة الدلالة على ضرورة الحياة الحساب وضح النهار، ولكنكم ﴿كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ﴾ تحميلاً على فِطَركم وعقولكم حيث لا تتحمل مثل ذلك النكران إلّا تكلّفاً، والافتعال تكلّف للفعل!

هذا مصير الأُثماء ورؤوس الشياطين، فما مصير المتقين؟

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾﴾:

فكما الطغوى تجعل أهلها في اضطراب مهين، كذلك التقوى تجعل أهلها في مقام أمين، يوم الدنيا ويوم الدين، حيث العقبات السوء من الآثمين يوم الدنيا التي تتربص دوائرها بالمتقين، لا تحسب اضطرابات لهم أمام الأمن الأمين لهم يوم الدين، ومن قبل وهم في الدنيا لهم الأمن في ضمائرهم ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[1] ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[2] فإنه في «حزب الله بالتقوى من كل بلية»[3] ومن ثم لهم كمال الأمن في الدولة الاخيرة المهدوية: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾[4] أمنٌ بعد أمن هنا وثالث يوم الدين:

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٢٨.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٨٢.

(٣) نور الثقلين ٤ : ٦٣٠ ح ٤٦ في أصول الكافي محمد بن يحيى عن أحمد بن محمد بن عيسى عن ابن محبوب عن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: أي عبد أقبل قبل ما يحب الله عزّ وجلّ أقبل الله قبل ما يحب ومن اعتصم بالله عصمه الله ومن أقبل الله قبله وعصمه لم يبال لو سقطت السماء على الأرض أو كانت نازلة على أهل الأرض فشملتهم بلية كان في حزب الله بالتقوى من كل بلية أليس الله عزّ وجلّ يقول: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ [الدّخان: ٥١]؟.

(٤) سورة النور، الآية: ٥٥.

﴿فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٢ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ۝٥٣ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ۝٥٤ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ۝٥٥﴾:

﴿جَنَّٰتٍ﴾ تجري من تحتها الأنهار ﴿وَعُيُونٍ﴾ إضافة إلى الأنهار ﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ﴾ الحريرة الرقاق «و» من «إستبرق» الحريرة السّماك، يلبسونها متقابلين ويجلسون متقابلين، إخوة متقين متقابلين لإخوة متقين، ثم وهم مع أزواجهم متقابلين.

«كذلك» المقام الأمين - ثم ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ رجالاً لهم منهن زوجات كما لهم من المؤمنات زوجات، وهنَّ أفضل من الحوريات ﴿يَدْعُونَ﴾ المتقون رجالاً ونساء ﴿بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ﴾ من الفكاهة والفاكهة ﴿ءَامِنِينَ﴾ بكل أمن دونما اضطراب، ويأمنون أضرارها.

﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٥٦ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٥٧﴾:

أترى أن الموتة الأولى - وهي عن الدنيا إلى البرزخ - هم ذاقوها في الجنة؟ فلا يذوقون فيها موتة ثانية[1]. ولا موت في الجنة فضلاً عن الأولى التي هي قبل البرزخ والجنة!

إنه استثناء منقطع يستأصل عن الجنة أيّة موتة فيها فإنها دار الخلود، وما أجمله تأكيداً لاستئصالةِ استثناء ما مضى عما قد يظن أنه يلحق، فهو إذاً تأكيد ذو بعدين.

وترى هل الموتة واحدة قبل الجنة هي الأولى؟ فلماذا الأولى وهي

(١) ولئن سأل سائل هب أن أهل البرزخ يصعقون موتة كما الكافرون أو غشية كما المؤمنون، فما للأحياء الذين يموتون موتتهم الأولى بهذه الغشية؟ فالجواب أن المؤمنين وهم الأكثرية الساحقة لا يموتون إلّا مرة واحدة، وسواهم قد تتكرر موتتهم فالأولى بهذه الصعقة والثانية بإماتة خاصة بين الصعقتين.

تلمح لغير الأولى؟ وإذا كانت واحدة فلتكن ﴿إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ لا الأولى.

ثم هي مرتان كما حملتهما الآيتان، واحدة تنذر بمن يحصرها في الأولى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ...﴾[(١)] والأخرى تثبت الموتة الثانية ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾[(٢)] إذاً فكيف لا يذوقون فيها إلّا الموتة الأولى؟

علّ الثانية - وهي عن الحياة البرزخية إلى الأخرى - تخص غير المؤمنين كما الآيتان لا تدلانها إلّا لهم دون المؤمنين، فالصعقة العامة بالنفخة الأولى هي للكافرين موتة ثانية، وللمؤمنين دون موتة بصعقة، ولمن شاء الله لا صعقة ولا موتة: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾[(٣)] [(٤)].

أو علّ ذوق الموت يعني ذوق ألمه، فالكافر يذوقه في الموتة الثانية كالأولى، والمؤمن لا يذوقه في الثانية لأنه في رحمة الله مهما مات ثانية، رغم ذوقه في الأولى، حيث الدنيا دار بلاء وعناء.

وعل ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ﴾ يعني فضل الجنة، وفضلاً قبلها أنهم لم يذوقوا

---

(١) سورة الدخان، الآيتان: ٣٤، ٣٥.
(٢) سورة غافر، الآية: ١١.
(٣) سورة الزمر، الآية: ٦٨.
(٤) الدر المنثور ٦ : ٣٤ - أخرج ابن مردويه عن أنس ﷺ عن النبي ﷺ قال: يجاء بالموت يوم القيامة في صورة كبش أملح فيوقف بين الجنة والنار فيعرفه هؤلاء ويعرفه هؤلاء فيقول أهل النار: اللهم سلط علينا ويقول أهل الجنة: اللهم إنك قضيت أن لا نذوق فيها الموت إلا الموتة الأولى فيذبح بينهما فييأس أهل النار من الموت ويأمن أهل الجنة من الموت، أقول يأس أهل النار هو من الموت فيها وهي باقية تخفيفاً عن العذاب. وأما الموت المطلق: بعد تكملة العذاب فواقع قضية عدل الله، ثم قوله ﷺ ويقول أهل الجنة.. دليل على اختصاص.. لا يذوقون.. بأهل الجنة - فقد يذوقه أهل النار كما بيناه..

الموتة الثانية، حيث لم يموتوا ثانية أو لم يذوقوا ألمها و﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

مما لا يريبه شك أن ﴿مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ وهم أكرم الأكرمين على الله، هم لا يذوقون الموتة الثانية، ثم من دونهم من المؤمنين بالله قد لا يموتون وإن صعقوا، وقد يموتون دون ذوق لألمه.

ولأن ﴿لَا يَذُوقُونَ...﴾. من ميّزات أهل الجنة وكما في الصادقي «وأحياء لا يموتون»[(١)] فليذق أهل النار موتة ثانية أمّاهيه بعد الأولى، منها الموتة الثانية وهي عن البرزخ، ومنها موتاتهم المستمرة في حياتهم الجهنمية.. ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾[(٢)] فرغم أنهم لا يموتون في النار فوتاً - اللهم إلّا مع النار - فحياتهم لا تشبه الحياة، وأنها أشر من الموت، حيث يذوقون دونما انفصال أخطر بواعث الموت.

إذاً فللكافر بعد الموتة الأولى موتات: عن الحياة البرزخية إلى

---

(١) نور الثقلين ٤ : ٦٣٣ ح ٥٧ في أصول الكافي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام أنه قال حاكياً عن القرآن يأتي الرجل من شيعتنا الذي كان يعرفه ويجادل به أهل الخلاف فيقوم بين يديه فيقول ما تعرفني؟ فينظر إليه الرجل فيقول: ما أعرفك يا عبد الله! قال: فيرجع في صورته التي كانت في الخلق الأول فيقول: ما تعرفني؟ فيقول: نعم - فيقول القرآن: أنا الذي أسهرت ليلك وانصبت عيشك وفي سمعت الأذى ورجمت بالقول في ألا وإن كل تاجر قد استوفى تجارته وأنا وراؤك اليوم، قال: فينطلق به إلى رب العزة تبارك وتعالى فيقول: يا رب عبدك وأنت أعلم به قد كان نصباً فيّ مواظباً عليّ يعادي لسببي ويحب فيّ ويبغض فيقول الله عزّ وجلّ: ادخلوا عبدي جنتي واكسوه حلة من حلل الجنة وتوّجوه بتاج فإذا فعل به ذلك عرض على القرآن فيقال له: هل رضيت بما صنع بوليك؟ فيقول: يا رب إني أستقل هذا له فزده مزيد الخير كله فيقول عزّ وجلّ: وعزتي وجلالي وعلوي وارتفاع مكاني لأنحلن له اليوم خمسة أشياء مع المزيد له ولمن كان بمنزلته، ألا أنهم شباب لا يهرمون وأصحاء لا يسقمون وأغنياء لا يفتقرون وفرحون لا يحزنون وأحياء لا يموتون ثم تلا هذه الآية ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الدخان: ٥٦].

(٢) سورة الأعلى، الآية: ١٣.

الأخرى، ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ ومن ثم الموت المطلق مع النار حيث تموت النار بمن فيها كما حققناه في مباحث الخلود في النار.

وهلّا يكون في الجنة نومٌ كما ليس فيها موت، قد يكون رياحةً، وقد لا يكون لأنه أخ الموت ولأنه من ذوق الموت، فالموتة الأولى والثانية معهما موتات النوم، والجنة ليس فيها موت ولا نوم(١).

ولكن قد تدلنا على نومهم الراحة آية المقيل: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾(٢) فإنه نوم نصف النهار، ولكنها تعني مقيل البرزخ قبل القيامة بدليل التالية لها: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾(٣) ثم اللهم لا علم لنا إلّا ما علمتنا.

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾:

هل إن تيسير القرآن بلسانه تسهيل لتفهمه على ضوء اللغة العربية؟ وقد تكون صعبة لا ميسّرة! وحتى إذا كان القرآن ميسّراً بالعربية فـ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ لا تختص بالعرب و﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾(٤) ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾(٥)!

والحل أن اللسان غير اللغة، فمهما كانت لغته عربية وهي خير اللغات وأيسرها تفهّماً، ولكنما اللسان الرسالي المحمدي ﷺ له موقعه الخاص في ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ

---

(١) الدر المنثور ٦: ٣٤ - أخرج البزار والطبراني في الأوسط وابن مردويه والبيهقي في البعث بسند صحيح عن جابر رضي الله عنه قال: قيل يا رسول الله ﷺ! أينام أهل الجنة؟ قال: لا - النوم أخ الموت وأهل الجنة لا يموتون ولا ينامون.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٢٤.

(٣) سورة الفرقان، الآية: ٢٥.

(٤) سورة التكوير، الآيتان: ٢٧، ٢٨.

(٥) سورة القمر، الآية: ١٧.

﴿قَوۡمٗا لُّدّٗا﴾[(١)] ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ﴾[(٢)] وقوم أولي العزم من الرسل هم العالمون أجمع، فلا بد لكلّ من لسان يفهمه العالمون أجمعون، فليست إذاً هي اللغة.

فقد تكون اللغة صعبة واللسان ميسّر، أو اللسان صعباً واللغة ميسّرة، والقرآن ميسّر في البعدين لساناً ولغة، حتى إذا لا تعرف اللغة فلتعرف اللسان الذي يترجم اللغة، وهكذا القرآن.

﴿فَٱرۡتَقِبۡ إِنَّهُم مُّرۡتَقِبُونَ ۝٥٩﴾:

ماذا يرتقب الرسول وماذا يرتقبون؟ إنه يرتقب خلفيّة رسالته ومفعوليتها، وهم مرتقبون به دوائر السوء.

وارتقب رحمة ربك وما وعد المتقين من مقام أمين، إنهم مرتقبون لك خلافه من الموت الفوت وفي الحق يرتقبون شجرة الزقوم.

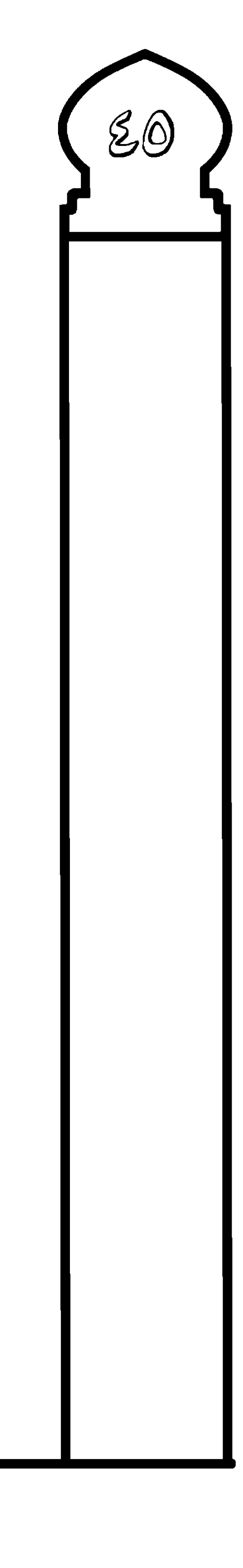
وارتقب عاقبة أمرك اليسر وهم مرتقبون عاقبة أمرهم الإمر ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ﴾[(٣)].

وارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين ﴿إِنَّهُم مُّرۡتَقِبُونَ﴾ وهنالك فليخسر المبطلون.

فكلٌّ يرتقب نتائج أعماله شاء أم لم يشاء، يوم الدنيا ويوم الدين، وما عليك إلا البلاغ المبين.

---

(١) سورة مريم، الآية: ٩٧.
(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٤.
(٣) سورة هود، الآية: ٩٣.



سُورَةُ الجَاثِيَة



مكيّة وآياتها سبع وثلاثون

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ (١) تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ (٢) إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ (٣) وَفِي خَلۡقِكُمۡ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ (٤) وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ (٥) تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤۡمِنُونَ (٦) وَيۡلٞ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ (٧) يَسۡمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٖ (٨) وَإِذَا عَلِمَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا شَيۡـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ (٩) مِّن وَرَآئِهِمۡ جَهَنَّمُۖ وَلَا يُغۡنِي عَنۡهُم مَّا كَسَبُواْ شَيۡـٔٗا وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠) هَٰذَا هُدٗىۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٌ (١١) ۞ٱللَّهُ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡبَحۡرَ لِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ فِيهِ بِأَمۡرِهِۦ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ (١٢) وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ (١٣)﴾

﴿حمٓ (١) تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ (٢)﴾ :

الجاثية هي سادسة الحواميم السبع، بازغة بتنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم! وهو القرآن المفصل النازل على صاحب «حم» طوال البعثة، بعد المحكم النازل عليه في ليلة مباركة كما في خامسة الحواميم.

نرى تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم هنا الجاثية وفي غافر الحواميم، والأحقاف، وفي الشورى هو العزيز الحكيم في ذلك الكتاب وما أنزل قبله من كتاب، ثم في فصلت ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾(١) ثم لا نجده في الدخان فإنها بازغة بذكر الكتاب المحكم النازل في ليلة مباركة، ولا في الزخرف البازغة بالكتاب المبين.

ففي الخمس التي يأتي ذكر القرآن المفصل يتلوه ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ إلّا في واحدة من «الرحمن الرحيم». مما يلمح أن الحكيم في القرآن المحكم عزيز في تفصيله وحكيم في ذلك التفصيل وهو الرحمن الرحيم في عزته وحكمته وعزيز حكيم في رحمانيته ورحيميته.

فعزته وحكمته بارزتان في تنزيل الكتاب، فأصبح بآياته كلها تدل على عزة غالبة وحكمة بالغة برحمانيته ورحيميته.

هنالك تبرز كل رحمة وعزة وكل حكمة ممكنة التنزيل على العالمين إلى يوم الدين، فإنه إضافة إلى الشرعة الأخيرة الإلهية نسخته تدوينية في آياته عن كل آية في السماوات والأرض للموقنين، فـ ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾؟.

ندرس هنا مثلثاً من آيات التكوين هي آيات الله كشريطات تتكرر وأسطوانات تدار في كتاب الله التدوين والتكوين، تجمعهما الآية ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾(٢) وتفصّلها ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ - إلى - يُؤْمِنُونَ﴾.

(١) سورة فصلت، الآية: ٢.
(٢) سورة فصلت، الآية: ٥٣.

﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٣﴾:

السماوات هي السبع، والأرض هي السبع، وهما تعبيران عن الكون كله، وفيه ككل ﴿لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ فالإيمان هو الذي يفتح البصائر والأبصار لتلقّي الأصداء والأضواء والأنداء، حيث يخالط القلوب بشاشته ويحركها استجاشة، فتحيا وتلتقط من الكون كله آيات ويصبح الكون كله لدى المؤمن آيات بينات، فلا يواجه طرفاً من الكون إلا وهو آية تزيده إيماناً بالله!.

إن آية السماوات والأرض وما فيهما من آيات لا تقتصر على شيء دون شيء ولا على حال دون حال، فإنها آيات الله على أية حال «وفي كل شيء له آية تدل على أنه صانع»!

ولكن لمن؟ لمن أبصر بها فبصّرته، دون من أبصر إليها فأعمته، والآية هي هي بنفسها وإنما الاختلاف في شبكات الأبصار، قوم عنها عمون، وآخرون وهم قلة يبصرون ويتبصرون حيث هم مؤمنون! إنها آيات الله وكلماته، تحدثّهم عن الله: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا﴾[1] فإن البحر بمداده ومدده آية وكلمة لربي بقطراته، إذاً فلا تقف كلمات الرب لحد تحصى ونحن فيها غرقى، في بحر ملتطم من كلمات الله وآياته الدالات، ولا مدلول في الكون يملك من براهين الآيات ما يملكها الله! لو مدّ الإنسان ببصره، وفتح غشاءَ قلبه وغطاء بصيرته في الأرض والسماوات لتزاحمت الآيات وتراكبت عليه معلنة عن نفسها، دالة على خالقها لمن ألقى السمع وهو شهيد.

وكما أن كتاب التدوين فيه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات، كذلك كتاب التكوين، فلنرجع متشابهاته إلى محكماته، اتضاحاً لكيانها ودلالتها على بارئها العزيز الحكيم، الرحمن الرحيم!

(١) سورة الكهف، الآية: ١٠٩.

السماوات والأرض آيتان، وفيهما وما بينهما آيات، آيات فيها آيات ودلالات لا تجد فيها قيد شعرة إلّا ذات دلالة على العزيز الحكيم الرحمن الرحيم!

وترى إذا كانت آيات الأرض والسماوات خاصة للمؤمنين، فالكافرون قُصَّر لا يدركونها، فلماذا يُؤنّبون ويعذّبون؟ إنها آيات لكل الناظرين، وحيث لا ينتفع بها إلا من يمشي سبيل الإيمان فهي إذاً آيات للمؤمنين، كما القرآن هدىً للناس أجمعين، ولكن لا يهتدي به إلّا المتقون فـ ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[١] فـ «المؤمنين» كـ «المتقين» هم الذين يفتحون أبصارهم ببصائرهم فهم بآيات الله يهتدون.

فأوليات درجات الإيمان تحصل بنظرة بسيطة في سائر الكون، ثم توصل إلى يقين الإيمان بنظرة عميقة في مظاهر الحياة فإنها أغمض، ثم نظرة أعمق في موجبات الحياة وهي أغمض وأعمق، فالأولى لقوم يؤمنون والثانية لقوم يوقنون، والثالثة لقوم يعقلون، خطوات ثلاث يتدرّجها السالك إلى الله ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾؟!.

تلك هي سفرة في سائر الكون، شاسعة فيه آيات للمؤمنين، فإلى سفرة أخص منها وألمس، حيث الحيويّة الناطقة بآياته تزيد المؤمن إيقاناً:

﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾:

فآية الدابة وأنتم منها، تزيد على سائر الكون حياة ملموسة، مادية ملموسة مزيجة بلطيفة ملكوتية غير ملموسة، مما يزيد التدبر فيه يقين الإيمان وإيمان اليقين.

دابة مبثوثة في بعدين، بثّ أوّل بين السماوات والأرض: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾[٢].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢.

(٢) سورة الشورى، الآية: ٢٩.

وبث ثانٍ استمرارية التناسل بين زوجيها في كلٍّ من السماوات والأرضين، كما وأن قرن ﴿خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ﴾ بـ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يلمح بوجود دواب في السماوات كما في الأرضين، الشاملة لكل من يستحق خطاب «كم» ففي السماوات عقلاء الدواب كما في الأرض من جن وإنسان أم أياً كان.

فـ ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ﴾ وخلق ﴿وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ حيث مجال الإتقان هنا أوسع لمكان الحياة في كل دابة وبثّها على قدر:

هنالك بث في الزمان وبث في المكانة وبث في المكان، لو لم تكن يد ضابطة وممسكة بزمام الدواب في كل بثّ لانبثت وتفاوتت وتهافتت.

فالنسور والأسود جارحة وعمرها مديد وبأسها شديد، ولكنها قليلة البيض والفراخ بالقياس إلى العصافير والزرازير في نسلها الكثير الغزير، فلو كانت كما النسور لم يبق لها أثر، فسبحان من خلق كل شيء بقدر.

وذبابة واحدة تبيض في كل دورة مئات الألوف ولكنها لا تعيش إلّا زهاء أسبوعين، فلو كان فلت في الزمان دون لفتٍ ونظام قاصد حكيم، فعاشت الذبابة أكثر من صالح النظام لغطّت كلّ الأجسام ولألحقت الأضرار الجسام.. وهكذا كل دابة في كل بثّ وبثّ لا تنبث إلّا على قدر، ففي خلق ما يبث من دابة آياتٌ لقوم يوقنون!: تستيقن قلوبهم أن من ورائها مدبر قدير عليم حكيم سبحان الخلاق العظيم!

ومن هنا نقلة في خطوة أعمق وأعرق، حيث التفتيش عن موجبات الحياة في الأرض والسماوات.

﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾﴾:

خطوات ثلاث في ساحة الآيات لقوم يؤمنون ويوقنون ويعقلون، وكمال

الإيمان هو الإتقان، وكمال الإتقان هو عقل الإيمان والإتقان، تنتجها هذه السفرات الثلاث من الخلق إلى خالق الخلق، سبحان العظيم المنان!

اختلاف الليل والنهار لا تعني تفاوتاً بينهما بتضاد وابتداد، فإنه آية التضاد، وإنما تعني مجيء كل خلف الآخر كسناد وعتاد: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[1] ﴿... لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[2] ﴿لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾[3].

فلو كانت هنالك صدفة عمياء لكان الفعل واحداً دون اختلاف! ولو كان الخلق من شركاء متشاكسين فيما يخلقون لما تواتر الليل والنهار خلف بعض بهذا النسق والنظام!. فالليل الراحة اللباس، والنهار المعاش، يتعاملان في صالح الإنسان، بما فيهما من آيات كونية أخرى لأولي الألباب الذين يعقلون ويتقون.

ليس اختلاف الليل والنهار إلّا نتيجة دورات دائبة للأرض حول نفسها وشمسها، عائمة سابحة في الفضاء، دون دعامة ترونها تدعمها وتمسكها على فلكها وتديرها في مدارها، إلّا قدرة العزيز الجبار، سبحان الخلاق العظيم!

ثم وهذه الدورات لو كانت أسرع أو أبطأ مما هي الآن لاستحالت الحياة على الأرض، أمّا ذا من مخلّفات ومقدمات اختلاف الليل والنهار لقوم يعقلون، كلما تقدم العقل تقدمت هذه الآيات في دلالات ودلالات، سبحان الخلاق العظيم!.

ولفتة ثانية في هذه الخطوة تلفت أنظار ذوي العقول، هي تكملة الحياة الأرضية بنازل السماء:

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٩٠.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٦٤.
(٣) سورة يونس، الآية: ٦.

﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾:

ورزقها النازل منها من رازقها إلى مرزوقها في الأرض يعم كل نازلٍ منها ينفع الأرض وأهلها، من مطر ووَقْدٍ وبَردٍ، ومن نورٍ ونارٍ من شمس وقمر ونجوم.

فشمسها بنارها تزجي سحاباً من الأبخرة الحصيلة بإشراقها فترجع ماءً صافياً بقدر، كمصفاة دائبة الإصفاء كما الأرض تُصفى في خلالها، ثم النار النور من شمسها تساعدان على إنماء ثمارها ودوابها من إنسانها وسواه، أمّا ذا من عوائد مشرقة بذلك الإشراق، حيث تتعامل نازلات السماء - ما ظهر منها وما بطن - في إحياء الأرض بعد موتها ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾.

فلو كانت الشمس ناراً دون نور، أم نوراً دون نار، أو انحصر ماء السماء بحارٍّ دونَ بَردٍ، أو بَردٍ دون ماء، أمّا ذا غير ما هي الآن، لانحسرت الحياة عن الأرض أو ما حصلت، ومن ثم: ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ...﴾ تصريفه الرياح، وتصريف الرياح السحاب المسخر بين الأرض والسماء، فلولا هذا التصريف أو ذاك لما انصرفت الرياح إلى حيث يصلح، ولتصريف الرياح علاقة بارزة بدورة الأرض وظاهرتي الليل والنهار والرزق النازل من السماء، وعلاقة أخرى بتدوير وتدبير الأمطار، وتمويج البحار والأنهار، أمّا ذا من رحمات مقصودة لله الواحد القهار، حيث تتعامل في تجاوب عاقل لصالح الحياة على الأرض، لولاها لصعبت أو استحالت: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[1].

(١) سورة البقرة، الآية: ١٦٤.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾:

هنالك إيمان بآيات الله فإيقاناً وعقلاً عنها دلالة على الله، وإيمان بالله مدلولاً عليه بتلكم الآيات، فهل هنالك دليل أهدى من آيات الله، أو مدلول أقوى من الله ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾؟.

وترى آيات الله حديث فإنها حادثة بما خلق الله، فهل الله نفسه كذلك حديث؟ هنا حديث في ذاته ودلالته هي آيات الله، وثم حديث في كونه مدلولاً عليه سرمدي في ذاته هو الله، فإذ كان الله ولم يكن معه شيء، فهو الأزلي فوق حديث، وإذ عُرف الله بعد خلقه آياته فالتبصّر بها فالإيمان به، فهو حديث في الإيمان به، فبأي حادث في الكون بعد الله معرفة به وإيماناً وبعد آياته يؤمنون، فالله تعالى مدلولاً بآياته دون ذاته حديث، كما آياته حديث، أو أن ﴿بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ﴾ تعني بعد حديث الله في كتاب التدوين القرآن، وبعد حديث آيات الله في كتاب التكوين، تؤمنون.

فمن الحديث مبصر ومسموع يُعقل، ومنه غير مسموع يعقل، ولا ثالث للحديث، فهل بعد كتاب الله حديث فوقه أو مثله، وهل بعد آيات الله في سائر الكون حديث فوقه أو مثله؟

لسان التدوين يحدثكم بأفصح بيان وأبلغه، ولسان التكوين يحدثكم بأفصح بيان وأبلغه، ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾[١] تدوينا وتكويناً ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾﴾[٢]!.

فأنتم بين من لا يفهم أي حديث يدل على ما غاب من علم؟ فكالأنعام وأضل سبيلاً! أم تفهمون حديثاً به تعرفون فتؤمنون.

---

(١) سورة الملك، الآية: ٣.

(٢) سورة الملك، الآيتان: ٣، ٤.

فهل في الكون حديث أبلغ من كتابي التدوين والتكوين، والكون كله آيات الله، وكتاب الله يحدثكم عنها وعن شرعة الله، فإذ لا تؤمنون بحديث الله القرآن، وبحديث آيات الله الكون، محدّثان بليغان ما أبلغهما عن الله ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾.

فإما كفر مطلق بكل حديث، أو إيمان مطلق بالله حيث يحدثكم عنه كل حديث، فنفسك حديث، وعالمك حديث، وكتاب الله حديث، يحدثك بلسان الفطرة والعقل، بلسان الحال والقال، بلسان التدوين والتكوين، وبكل لسان يفهمه أي إنسان، فإذ لا يؤمنون بحديث الله وآياته ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾؟

أنت وكل كائن يحمل عقلاً أو أية مرتبة من الإدراك، تعيش كوناً كلّه آية، وكله لسان، وكله حديث، يحدثكم عن حكمة واحدة بارعة وتصميم فكيف به تكفرون وبكل ما تشتهون تؤمنون: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾[1] ﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾[2].

حديث الله القرآن هو أحسن حديث ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ...﴾[3] والكون - وهو أحسن الحديث - كله آيات الله، محدّثان عن الله ما لهما من مثيل ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾؟

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٨٥.

(٢) سورة المرسلات، الآيات: ٤٦-٥٠.

(٣) سورة الزمر، الآية: ٢٣.

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٧) يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٨)﴾:

الإفك هو كل مصروف عن وجه الحق ووجهته، قولاً أو فعلاً أو اعتقاداً أما ذا من صرف عن الحق، فالأفّاك هو المبالغ في الإفك، والأثيم هو الذي يعيش الإثم كأنه لزامه في حياته، والأفاك الأثيم هو الذي يسمع آيات الله البينات من تدوينية القرآن وتكوينية الكون، ويسمعها تتلى عليه، ثم يصر مستكبراً، في استكبار صارم عارم، دون أن يهتدي بها إلى الله، كأن لم يسمعها، فبشره بعذاب أليم.

ويل لفطرته المحجوبة، وعقله الغارب، وقلبه المقلوب، وكل كيانه الإنساني المتغافل عنه، ويل في أولاه وأخراه، في مبدئه ومنتهاه، فهو ويل في مقاله وفعاله، في حلّه وترحاله، وي كأنه الويل كله، أو كأن الويل هو هو كله، فهم شياطين وتنزّل عليهم الشياطين: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ (٢٢٣)﴾[1].

وإنها صورة بغيضة متكررة في كل جاهلية، لو أن لها بشارة فهي عذاب أليم، فضلاً عما لها من نذارة، إذ تعجز عن تعبيرها كل صيغة ﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ ولا يتسمّعها فلا يتفهّمها، حتى:

﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٩)﴾:

إذا علم وتفهم في كرور الآيات ومرورها على مسامعه - علم شيئاً، لم يأخذها بعين الإعتبار، ولم يتذكر بها بل اتخذها هزواً، إهانة بها ومهانة ليسقطها عن أعين الناس ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ كما أهانوا آيات الله، مهين بمهين، وأين مهين من مهين؟!

(١) سورة الشعراء، الآيات: ٢٢١-٢٢٣.

وترى العذاب المهين لهم - فقط - يوم الدين؟ كلّا! فإنه مُهان أينما كان وأيان، في حساب الله وحساب عباد الله، مهما تظاهر الشياطين في احترامه مصلحياً لهم وخوفاً منه، حيث الهازىء المهين بآيات الله بأحرى هو مهين بخلق الله، لا يعرف لمن سواه احتراماً إلّا اختراماً، ففي حين يُحترم خوفاً ومصلحياً، يُخترم واقعياً في الأولى، ثم:

﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾﴾:

﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ دليل أن عذابهم المهين بادئ يوم الدنيا وإلى يوم الدين، ولا يغني عنهم هناك ما كسبوه من مال ومنال يملكونها ﴿وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾ - إذ ملكتهم - شيئاً، ضعف الطالب والمطلوب ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ فوق أنه مهين.

﴿هَٰذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾:

﴿هَٰذَا﴾ القرآن البيان ﴿هُدًى﴾ تدوينية تجاوب هدى تكوينية، آيات وآيات تتعامل في «هدىً» فالضابطة العامة ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ رغم هداها ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ والرجز أصله الاضطراب، فهنا مثلث العقاب الاضطراب الأليم، دركات يدركونها بميزانية تكذيب الآيات.

﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾:

خطوة رابعة رائعة للسالكين إلى الله لقوم يؤمنون ويوقنون ويعقلون أنهم يتفكرون، فيما سخر لهم البحر جرياً لفلكه بأمره ابتغاء فضله ولعلكم تشكرون، بل ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾.

وترى ذلك تسخير البحر وما في البر، فكيف سخر لنا ما في السماوات، وليس لنا خبر حتى الآن عن كثير مما في السماوات، بل ولمّا نخلّص خبر الأرض فأين ذلك التسخير وأنّى؟!

ذلك التسخير لكم له بُعدان، أصليّ هو لله حيث سهّل في الكون مسالك الإنسان وأقرانه لابتغاء فضله من بحر وبر وجوّ في الشعاع المستطاع لأيّ كائن، فقد نظم الكون بأجمعه بحيث ينتفع به كل كائن، علم ما سُخر له أم لم يَعلم، فالشمس بتسخير الله تجري لصالحنا كما لسائر الكون، والنجوم مسخرات بأمره، أمّا ذا من كائن في الأرض أو في السماوات ﴿جَمِيعًا مِّنْهُۚ﴾: حال أن الجميع من المسخَّر والمسخَّر له والمسخِّر لأجله والمسخَّر معه، منه لا سواه! ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَۚ﴾[1] إذاً فليس هناك تسخير من الإنسان أو أياً كان، وإنما تسخير لأجل الإنسان - وفوقه معه - كما سخر مع داود الجبال والطير.

ومن ثم تسخير لنا في بُعدٍ ثان أن هيأ لنا أسباباً عقلياً وعلمياً أمّا ذا للكشف عن رموز من الكون نستطيع على ضوئها الحصول على خبايا وخفايا في الأرض والسماء تجمعها كافة المحاولات العلمية في مختلف الحقول في تقدم متواتر.

فالكشوف الذرية والأشعة ما فوق البنفسجية وأضرابهما من كشوف علمية وحتى نزولنا إلى القمر أمّا ذا من أجواء عالية وكرات، كل ذلك مما سخّر لنا، ولكن على ضوء الجهود المتواصلة، وإن كانت هنالك تسخيرات لصالحنا من الكون كله ننتفع بها دون وسيط أم بوسيط بسيط كالفلك التي تجري في البحر بأمره أمّا ذا من خلفيات ونتائج في تسخيرات تصلنا دون غور في خِضِمِّ الاكتشافات الملتوية الصعبة والشائكة.

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٧٩.

ومهما كانت هنالك فوارق بين هذه وتلك ولكنها ﴿جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ دون استقلال في أي استغلال للإنسان إلّا على ضوء القوانين المقررة الكونية من ناحية، والاستعدادات المتعالية الإنسانية من أخرى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾[1] فـ ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾[2].

فلا يعني التسخير لنا أو معنا أن نستقل فيما سُخّر لنا، أو المناحرة مع المسخَّر ضد صالح الكون، وإنما السلوك في السبل الكونية جلية وخفية، المقررة لنا.

فمثلاً مكائن التفريخ وأمثالها مما نستبدلها من مخترعاتنا بما خلق الله، إنها من تسخير الله في بُعد ثان، حيث هدانا إليها بما نبذل من جهود ونصرفها من طاقات وإمكانيات و﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فالفكر حركة من المبادئ ومن المبادئ إلى المراد، وهذه الحركة الفكرية في الكون المسخر لنا من الآفاق والأنفس، من الأرض والسماوات وما فيها من خبايا وطاقات كامنة منتظمة، إنها آيات دالات على مدبر حكيم سبحان الخلاق العظيم.

فهنالك إيمان وايقان وتعقل وتفكير مع ركب الكون كآيات إلهية ربانية، توصلنا إلى خالق الكون.

---

(١) سورة إبراهيم، الآيات: ٣٢-٣٤.

(٢) سورة الزخرف، الآية: ١٣.

﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ (١٤) مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١٥) وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ (١٦) وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٧) ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (١٨) إِنَّهُمْ لَن يُغْنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ (١٩)﴾

﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ (١٤)﴾:

أيام الله وما هي أيام الله؟ أليست كل الأيام لله حتى تقتسم الأيام بما لله وما لغير الله؟ وكل مكان وزمان لله!

أجل الأيام كلها من الله ولله، ولكن - الظاهر فيها حكم الله، والحاكم فيها الله لا سواه - ليست هي كل الأيام، فكما أنه مالك يوم الدين وإن كان مالكاً ليوم الدنيا، كذلك في الدهر أيام خاصة بالله لا دور فيها لسواه، كيوم الرجعة ويوم البرزخ ويوم القيامة، فالأول رغم كونه في الأولى هو من أيام الله حيث الحاكم فيه بقية الله عليه سلام الله، والآخران هما لله إذ تقطعت

الأسباب فلا حكم إلا لله ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾[(١)].

ليس يخص أيام الله بالأخرى فإنه يوم لا أيام، ولا هو مع البرزخ الوسطى فإنهما يومان لا أيام، وأقل الجمع ثلاث، فالقدر الثابت من أيام الله ثلاث، وقد تكون هي الأصيلة وأيام أخرى على هامشها!

لا نجد أيام الله في سائر القرآن إلّا هنا وفي إبراهيم: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾[(٢)] [(٣)].

في الدنيا لله أيام مركزها الرئيسي يوم الرجعة والقائم، ثم وعلى ضوئه كل يوم يغلب فيه حكم الله، فهو إذاً يوم واحد تجمعه بركات الله على أوليائه، ومنذ الموت حتى القيامة يوم، واليومان محدودان، ومن ثم القيامة الكبرى دون حدّ إلّا ما يحدّده عدل الله في أهل الجحيم حيث يفنون أخيراً بفناء الجحيم.

والذين لا يرجون أيام الله هم الناكرون والمترددون في هذه الأيام، دولة عالمية، ثم برزخ، ثم قيامة، وبصيغة أخرى: قيامة صغرى ثم وسطى ثم كبرى هي أيام الله التي لا يرجوها إلّا أهل الله.

من حق أيام الله أن تُرجى إذ تعني هذه الثلاث، أو تخاف كأيام العذاب الاستئصال، والثانية لمن لا يرجو الأولى.

---

(١) سورة غافر، الآية: ١٦.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٥.

(٣) هنا روايات ثلاث إحداها ما رواه العياشي عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم: ٥] قال: بآلاء الله يعني بنعمته، والثانية في كتاب الخصال عن مثنى الحناط قال سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: أيام الله يوم القائم ويوم الكرة ويوم القيامة، والثالثة ما أورده القمي في تفسيره في الآية قال: أيام الله ثلاثة: يوم القائم عليه السلام ويوم الموت ويوم القيامة.

وترى كيف يؤمر الذين آمنوا أن يغفروا للذين لا يرجون أيام الله وهم خطر وشرر على الكتلة المؤمنة؟ ثم وكيف يغفرون وليس الغفر إلا بيد الله، وهو أيضاً لا يغفر حيث غفرهم يعني ﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾؟!

الغفر وهو الستر والإغماض، قد يعني غفراً إلهياً لا يتكفله غير الله ولا سيما فيما الله واعد فيه العذاب كما هنا، أم غفراً بشرياً فيما يحق له الانتقام ولا يسطع أم لا تناسبه الظروف كما في العهد المكي، فليغفر حتى يأتي الله بأمره كما في العهد المدني، أم غفراً في الدعوة غير الناتجة لمن كتب عليه العذاب حيث الإنذار وسواه عليه سواء، فليغفر الإنذار إعراضاً عن الدعوة ليذوقوا وبال أمرهم ﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ وهذا الغفر يستمر في كافة العهود الرسالية للذين آمنوا.

إذاً فآية الغفر ليست منسوخة بآيات القتال المكية حيث الغفر الأخير مستمر في ممرات الدعوة، والثاني مستمر في ظروفه طوال الدعوة، مهما كان العهد المكي من أبرز مصاديقه، فللمسلمين عهود تختلف، ولكل ظرف عهده من قيام وقعود وحرب وصلح، ومن الغفر للذين لا يرجون أيام الله ترك الدعوة حين لا تؤثر إلّا مزيد الطغيان فحرب وإبادة، كما منه تركهما إذ لا يسطع المحاربة، وكلّ يتطلب ظرفه المناسب له، والظرفان مشتركان في استحقاق العقوبة ﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

فالغفر - إذاً - قد يكون رحمة من الله أو من أهل الله كسائر موارد التسامح عن المذنبين، وقد يكون نقمة كما في ترك الدعوة مقاطعة لإقامة الحجة للذين ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾(١) وهذه المقاطعة

(١) سورة البقرة، الآية: ٦.

تزيد المقطوع عنه طغياناً وكفراً فعذاباً فوق العذاب، أم في ترك الانتقام إذ لا تسطع فإلى الله المصير فيما لا تسطع ﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾(١).

كما ومن الغفر واجب ومنه راجح ومنه محرم، ولا يؤمر الذين آمنوا إلا بغير المحرم، فترك ملاحقة الكفار والمفسدين عند المكنة محرم، وترك الأمر والنهي في ظروفهما المتطلّبة لهما محرم، وترك الدعوة فيما تؤثر أو تزيد حجة محرم، فمثلث الغفر هذه محرم لا تعنيه آية الغفر هذه كما لا تعني الغفر المستحيل وهو السماح عن الذنوب الخاص بالله.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾﴾:

فكل من العمل الصالح والطالح يرجع بلزام آثاره إلى عامله، مهما أثر في الآخرين، فمن سن سنة حسنة كان له مثل أجر من عمل بها إلى يوم القيامة ولا ينقص أولئك من أجورهم، ومن سن سنة سيئة كان عليه وزر من عمل بها إلى يوم القيامة ولا ينقص أولئك من أوزارهم شيئاً، جزاءً من ربك عطاء حساباً وعقاباً وفاقاً.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾:

ذلك بيت إسرائيل، أوتي مثلثاً من الرحمة: الكتاب والحكم والنبوة،

---

(١) نور الثقلين ٣: ١ ح ٦ عن تفسير القمي في الآية قال: يقول أئمة الحق لا تدعون على أئمة الجور حتى يكون الله الذي يعاقبهم في قوله: ﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الجاثية: ١٤] حدثنا أبو القاسم قال حدثنا محمد بن عباس قال حدثنا عبد الله بن موسى قال حدثني عبد العظيم بن عبد الله الحسني قال حدثنا عمر بن رشيد عن داود بن كثير عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية: قل للذين مننا عليهم بمعرفتنا أن يعرفوا الذين لا يعلمون فإذا عرفوهم فقد غفروا لهم، أقول ليست معرفتهم غفراناً لهم إلا في تاركة الدعوة حيث أيسوا بما عرفوهم من هداهم.

في الرعيل الأعلى منهم، ومن ثم رحمة عامة: ﴿وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.

فقد جمعت لهذا البيت المفضل على العالمين مجامع الرسالة، من رسول جمعت له ﴿الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ كموسى والمسيح عليهما السلام كتاب مستقل وحكم رسالي مستقل ونبوة ورفعة في الحكم الكتاب.

ومنهم من أوتي كتاباً برسالة دون حكم ولا نبوة، اللهم إلّا حكماً مَلكياً كداود وسليمان، أم حكماً على هامش ولي العزم كسائر الحكم في سائر المرسلين، وأما النبوة المطلقة وهي رفعة في الحكم الرسالة فهي لولي العزم خاصة، فكل نبي رسول وليس كل رسول نبياً فـ ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾[1].

ومنهم من أوتي حكماً دون كتاب ولا نبوة كطالوت ملك إسرائيل، حكماً على ضوء الرسالة وليس حاكمه من الرسل، فما أوتي كتاباً فضلاً عن نبوة.

ثم الذين لم يؤتوا كتاباً ولا حكماً ولا نبوة في أنفسهم، عاشوا مثلث هذه الرحمة، حيث كانت لهم وإليهم كرأس الزاوية الرسالية، ثم وهم رزقوا من الطيبات وفضلوا على العالمين.

﴿وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾﴾:

هنا ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ من أمر الشرعة التوراتية، وبينات من أمر الآية الرسالية، آيات بينات تكوينية وتدوينية، حاسمات فاضلات لا غموض فيها ولا عوج ولا انحراف، بينات ربانية كالشمس في رابعة النهار لا تدعو إلى اختلاف، وإنما إلى العلم الواضح.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٣.

﴿فَمَا ٱخۡتَلَفُوٓاْ﴾ في بينات الأمر رسالة وكتاباً ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ﴾ بغياً على البينات، وعلى حملة البينات بعضهم على بعض، وبغياً على الأمة، تحريفاً كما يهوون، وتجديفاً كما يشاؤون ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾.

ولقد وصل أمرهم في اختلافهم في أمرهم إلى حد من نُكرهم في إمرهم لا يتحمل، إلّا أن يتحول أمر الشرعة إلى غيرهم وكما هددوا في التوراة ولكن لا حياة لمن تنادي!

في العهدين الجديد والعتيق بشارات بانتقال أمر الشرعة الإلهية إلى بيت إسماعيل في الرسالة المحمدية ﷺ ونموذجاً منها ما في حزقيال ١٩: ١٠ - ١٤ «أمّك مثل كرمة غُرست على المياه فصارت كثيرة الثمار والأفنان من غزارة المياه (١٠) وصارت قضبان صلبة صوالجة للسلاطين وارتفع قوامها بين الفروع الملتفة فظهرت في ارتفاعها وكثرة عذباتها (١١) ثم إنها قلعت بحنق وطرحت على الأرض فأيبست الريح الشرقية ثمرتها وكُسرت قضبانها الصلبة وأكلتها النار (١٢) والآن هي مغروسة في البرية في أرض قاحلة ظمئة (١٣) فخرج من قضبان شُعبها نار أكلت ثمرتها فلم يبق فيها قضيب صُلب صَولجان للتسلط هذا رثاءٌ ورثاءٌ سيكون (١٤).

فالكرم هنا إبراهيم حيث المخاطب في أمك إما حزقيال أو كافة بني إسرائيل، فالأغصان هي نسل إبراهيم من بيت إسرائيل، إذ سكنوا فلسطين فنموا وريّوا وتمتعوا فتحصلت من هذه الأغصان قضبان صلبة هي النبوة الإسرائيلية، «ثم قلعت بحنق وطرحت» وهي انقضاء الحكم والنبوة والكتاب عنهم «والآن هي مغروسة في البرية في أرض قاحلة. . .» هي برية فاران أرض الحجاز، حيث تحولت القضبان الإسرائيلية من هذه الشجرة الإبراهيمية إلى قضبان إسماعيلية في الرسالة الأخيرة المحمدية، والنار الخارجة منها هي الشريعة النارية التي هي نار للشاردين ونور للواردين، نار تحرق كل أغصان

الباطل، وتورق أغصان الحق من تلك الشجرة الطيبة..»[١].

ذلك ما تلمح به آي من الذكر الحكيم، حين تذكر رحمة الكتاب والحكم والنبوة ورزقهم من الطيبات وتفضيلهم على العالمين:

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۖ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾:

إنه لا بد من حكم في الجماهير المحتشدة المختلفة، فإما شريعة من أمر الله وإما شرعة الأهواء الهباء، فلا وسط بينهما ولا أنصاف حلول، فشرعة الأهواء الخالصة أو الملتقطة من الشرعتين هما على سواء، وقد تكون الضلالة في شرعة الالتقاط أعمق وأهوى، حيث تبرز الحق بمظهر الباطل ليتجنب، والباطل بمظهر الحق ليُتّبع، فهنالك استحوذ الشيطان على أوليائه ونجى الذين سبقت لهم من الله الحسنى! فلا يترك أحدٌ شرعة الله إلا ليحكِّم الأهواء، فكل ما عدى شرعة الله الخالصة هوى يهفو إليه الذين لا يعلمون، سقطات في هوّات ولأتباع ضلالات!

أمر الله - وهو دينه - واحد والشرائع إليه عدة تنحو منحى واحد، مهما اختلفت الشكليات حسب مختلف القابليات والبليات: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ۖ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾[٢] [٣].

---

(١) راجع كتابنا (رسول الإسلام في الكتب السماوية) ص ٣١ - ٣٢ - وفيه بشارات أخرى كهذه تدل على انتقال الشريعة من بني إسرائيل إلى بني إسماعيل.

(٢) سورة الشورى، الآية: ١٣.

(٣) راجع تفسير الآية في الشورى تجد فيها بحثاً مفصلاً يساعدك على ما هنا من أمر الشرعة الأخيرة.

إن الأمر الدين هو كتاب الوحي ورسول الوحي ببينات الوحي، وفي هذا المثلث تُرسم شرعة من الأمر، وشريعة من الأمر - الأخيرة - هي تحمل الأمر كله، والشرائع المستقدمة عليها تهيئات لها ومبشرات بها، ومحضِّرات إياها للعالمين إلى يوم الدين.

إتباع هذه الشرعة منذ بزوغها إلى يوم الدّين هو الدين كله، والأمر كله، كما اتباع سواها اتباع لأهواء الذين لا يعلمون، على دركاتهم في الـ «لا يعلمون» من ملحدين ومشركين وكتابيين أو ومسلمين التقاطيين أمّن ذا من هؤلاء الذين ينجرفون عن محض شرعة الإسلام إلى غير محضها، مهما كان خليطاً منها وسواها، أم كلّها سواها أم ماذا؟

إنها شريعة واحدة تستحق هذه السمة «فاتبعها» ثم ولما عداها ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ولماذا تتبعها تركاً لشرعة الله أو لشيء منها؟ هل ليغنوا عنك من الله شيئاً في تشريع شرعة، ولا مشرّع إلّا الله ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾!.

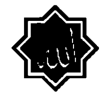
أم ليغنوا عنك بديلاً عنها أو عن بعضها نصرة لك في الدعوة أو كثرة في اتباع الدعوة فـ «لن. .» فإنهم وأنصارهم إذاً أتباع أهوائهم دون هذه الشرعة!

أم ليغنوا عنك يوم القيامة بديلاً عن عذاب الله؟ و«لن. .» فإنهم يكفيهم ما هم فيه من عذاب عظيم! أماذا من إغناءٍ ترجوه منهم فـ ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ فلا يغني عنك من الله هنا وفي أيام الله إلّا الله، وهو لا يغني إلّا المتقين المتحرزين عن اتّباع الأهواء.

إن الظالمين بأمر الله وشرعته وبرسول الله وكتابه، هم بعضهم أولياء بعض، فلا تكن من هؤلاء الأبعاض فـ ﴿وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ دون الظالمين.

فاتّباع غير هذه الشريعة من الأمر ظلم وضلال مهما كان في حكم مصلحياً أو أحكام، فشريعة الله لا يتاجر بها، ولا تخالطها أهواء الذين لا يعلمون.

هكذا يؤمر الرسول فأحرى بمن سواه من المكلفين إلى يوم الدين أن يتخذوا شرعة القرآن وعلى هامشها السنة الإسلامية، يتخذونها لا سواها نبراساً ينير الدرب على الحائرين، ومتراساً يجابهون به المائرين!



﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا ائْتُوا بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾﴾

﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾:

«هذا» الأمر شريعةٌ من الأمر وهي في الحق الأمر كله، وعلّه لذلك يشار إليه بـ«هذا» دون «هذه» مع التصريح المسبق ﴿شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾، ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ﴾.

والشريعة في الأصل هي الطريقة المفضية إلى الماء المورود، والشرايع هي طرائق إلى الأمر الدين الحياة الرّواء، وهذه الشريعة تروّي الظمآن آن من مائها المورود كله، فهي هو وهو هي ﴿بَصَٰٓئِرَ لِلنَّاسِ﴾.

والبصائر جمع بصيرة، وهي المبالغة في الإبصار وهو الإدراك المصيب للواقع، كما ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ ۝١٤ وَلَوۡ أَلۡقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ۝١٥﴾[1] فالقرآن مجموعة من البصيرة، ولأنه الصراط المستقيم، لا يحيد سالكه عن رحمته وهداه حتى يوصله إلى يقينه ﴿وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ من علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين.

سائر الشرائع من الأمر ليست بصائر في نفسها بكتابات وحيها إلّا على ضوء إثباتاتها ببصائر الآيات المعجزات وأهمها وأجمعها وأغناها بصائر شرعة موسى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ ٱلۡأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾[2] ولكنه بصائر بعد هؤلاء الآيات: ﴿مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا﴾[3]:

فبصائر الكتب الشرعة في سائر الرسالات منفصلة عن بصائر الآيات المعجزات، ولكن بصائر الشرعة الأخيرة يجمعها القرآن، فهو بنفسه أفضل وأكمل آية معجزة لهذه الرسالة وهذه الشرعة، ومهما كان نبيُّه بصيرة: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾[4] ولكنه قد لا يصدّق في سبيله الرسالية إلّا على ضوء بصائر القرآن: ﴿وَإِذَا لَمۡ تَأۡتِهِم بِـَٔايَةٖ قَالُواْ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ قُلۡ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾[5]:

كل آية من هذا البصائر بصيرة تحمل بصائر في كافة الحقول لأرباب العقول، بصيرة فطرية - عقلية - فكرية - علمية - قلبية، بصيرة للأبصار

---

(١) سورة القيامة، الآيتان: ١٤، ١٥.
(٢) سورة القصص، الآية: ٤٣.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ١٠٢.
(٤) سورة يوسف، الآية: ١٠٨.
(٥) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٣.

والبصائر، وبصيرة فردية واجتماعية، ثقافية وسياسية، واقتصادية وحقوقية، أخلاقية ومعرفية أمّاذا من بصائر، تجعل الإنسان الذي على نفسه بصيرة، تجعله نبعة البصائر، وتضيء له الدرب إلى ألم المساير والمصاير.

﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ﴾ ككل، ولكنها لا تبصِّر إلّا من استبصر بها فتبصَّر، إذا فهو ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[1] ومن ثم ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾، فهنالك إيمان ثم إيقان في مراتبه الثلاث.

فلا ذريعة للإيمان الإيقان إلّا بصائر القرآن، دونما حاجة إلى بصائر عقلية فلسفية أو علمية من غير القرآن، أتظن الله أهمل طرفاً من ذرائع الإيمان والإيقان في قرآنه البيان و﴿تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾[2]؟! و«إن هذا القرآن هو النور المبين، والحبل المتين، والعروة الوثقى، والدرجة العليا، والشفاء الأشفى، والفضيلة الكبرى، والسعادة العظمى، من آثره على ما سواه هداه الله، ومن طلب الهدى في غيره أضله الله، ومن جعله شعاره ودثاره أسعده الله، ومن جعله إمامه الذي يقتدي به ومعوّله الذي ينتهي إليه أداه الله إلى جنات النعيم والعيش السليم[3].

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾:

﴿أَمْ﴾ الإضرابية في عطفها توحي بمعطوف عليه يناسب معطوفها كـ ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ إن هي إلا حياتهم الدنيا كما ينقل عنهم بعد هنيئة، ﴿أَمْ ... نَّجْعَلَهُمْ ...﴾.

وتلك هي قولتهم الخواء تنازلاً عن نكران الحياة بعد الموت أن الله

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٥٢.

(٢) سورة النحل، الآية: ٨٩.

(٣) أصول الكافي ج ٢ ص ٦٠٠ عن النبي ﷺ.

سوف يسوي بينهم في الحياة الأخرى في رحمته ﴿أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّلِحَتِ﴾. فكما كانوا في محياهم سواء في عدم الانتقام من ظالمهم لمظلومهم، كذلك في مماتهم، فـ ﴿سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ بما لهم الرجاحة في الحياة الدنيا وكأن الله عليهم أعطف وبهم أرحم وأرأف! ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ بين المحسن والمسيء، ويحكمون على الله أنه ظلام للعبيد، فسواء لم تكن هناك حياة الحساب بعد الموت، أو كانت ولكنها سواء بين المحسن والمسيء! وقد تعني «سواء» المساواة بين الحياة اللّاحساب، والممات اللّاحساب، إما لأن الموت فوت، أو أنه حياة دون حساب كما الحياة الدنيا، فالتسوية بين حياة الفريقين ومماتهم ظلمٌ وبطلان لخلق الكون، فمهما كانوا سواء في محياهم في اللّاحساب على رجاحة مجترحي السيئات في الحياة، ففي مماتهم حساب يجبر ما جرحوا وظلموا، ويُجبر المظلومون المؤمنون.

فرغم أن محياهم في اللّاحساب سواء، والظالمون هم المفضَّلون في حظوة الحياة الدنيا! فمماتهم ليس سواء ألّا حياة بعده أم ليست هي حياة الحساب!

ويلهم من هذه الرعونة النكراء، الطاغية على خلق الله وعلى الله:

﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾:

إن خلق الكون بالحق، مادةً ومُدة، عِدَّة وعُدَّة، مصاحباً ﴿بِالْحَقِّ﴾ وهادفاً ﴿بِالْحَقِّ﴾ ﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ في مجموعة الكون ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ كل ذلك يناحر قولتهم الخواء: ﴿سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ أم و﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ أتسوية ظالمة هادفة بين المحسن والمُسيء: وبين الظالم والمظلوم، تجعل خلق الكون لهواً وباطلاً بما هم يُظلمون، أجهلاً بما

يَظلمون! أم عجزاً عن جزائهم، أو ظلماً ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[1]؟!

سيئات مجترحة شرف الإنسانية ونواميسها، وساحة الربوبية وسماحتها، ثم يتغافل عنها أو يعامل معها معاملة الحسنات؟ ويحهم أنى يؤفكون، فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون»!

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾:

﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾[2] كلا! إذاً فلا هداية بعدُ من الله ولا وكالة لرسول الله، حيث انقطع بتأليه هواه عن ولاية الله!

إن لاتّباع الهوى دركات أسفلها الطاعة المطلقة للهوى: أن يصبح صاحبها سلس القياد لها دونما تخلف عنها كأنه يعبدها، فالآله من يُؤله فيه ويُحتار ويُعجز عن دركه ويفزع له ويُسكن إليه فيُعبد، ومن اتخذ إلهه هواه هو غير من اتخذ هواه إلهه، فالأول يعرف إلهه ولكنه يرفضه ويستبدل به هواه يطيعها كما يحق أن يطيع الله! والثاني قد لا يعرفه فيظنه هواه، فذلك على علم من إلهه وهواه ولكنه يجحده إلى هواه ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾[3] فما أضل منه سبيلاً!.

﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ على علم ممن اتخذ إلهه هواه أنه أخطأ هداه، وعلى علم من الله أنه لا يحنُّ إلى هداه، فحقٌّ عليه أن يضله الله إزاغة بما زاغ وإضلالاً بما ضل، تركاً له في ضلاله يَعمْه وفي طغيانه يتردَّد، ختماً على سمعه فلا يسمع وعلى قلبه فلا يعي ولو يسمع، وغشاوة على بصره فلا

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٨٢.
(٢) سورة الفرقان، الآية: ٤٣.
(٣) سورة النمل، الآية: ١٤.

يبصر، فالقلب له وعي من ذاته ووعي من سمعه وبصره، فإذا ختم على سمعه وغشي على بصره فلا وعي له منهما، وإذا ختم على قلبه فلا وعي له من ذاته: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[1]:

﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ﴾ إذ تركه وأضله ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ما هو مصير من اتخذ إلهه هواه، ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾[2] ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾[3] ومن تذكر صحا وتنبه وتخلص من ربقة الهوى وتقلّص.

﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾

هذه أطول قولة تنقل عن الماديين، لا مثيل لها في سائر القرآن إلّا في نكران المعاد ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾[4] ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾[5].

فتلك إذاً آية وحيدة في نسبة الإهلاك إلى الدهر، تزيد كفراً على نكران المعاد، تتحدث عن الناكرين للمبدأ والمعاد[6]، وهم قلة قليلة طول التاريخ، وعلى غرارها لا تحملها إلّا آية واحدة.

لقد حصروا الحياة بالدنيا وحسروها عما بعدها من وسطى وعليا،

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧٩.
(٢) سورة ص، الآية: ٢٦.
(٣) سورة النازعات، الآيتان: ٤٠، ٤١.
(٤) سورة المؤمنون، الآية: ٣٧.
(٥) سورة الأنعام، الآية: ٢٩.
(٦) فـ ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ [الجاثية: ٢٤] للدهريين يعني الأول وللمشركين يعنيهما.

وحصروا إهلاكهم بالدهر، مما يدل على إحيائهم في زعمهم كذلك بالدهر، دونما علم أو أثارة من علم به يسندون في نكران المبدأ والمعاد، إلّا ظناً وحسبانا باتباع الهوى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾(١).

ولماذا ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ معاكسة التعبير عن ترتيب الواقع «نحيا ونموت»؟

علّه تعبير عن مواصلة الموت والحياة للمجموعة حيث يموت بعض ويحيى آخرون فيستمر النسل، فـ ﴿نَمُوتُ﴾ جماعة «ونحيى» جماعة أخرى، يتنقل الموت والحياة هنا دونما نقلة بالموت إلى حياة أخرى، أو ﴿نَمُوتُ﴾ نحن الأحياء ثم لا نحيى لحياة أخرى حقيقية وإنما بما يحيى أولادنا، كسخرية تقابل الحياة الأخرى، فنحن المجموعة - إذاً - بين موت واحد وحياة واحدة وليست هنالك بعدهما حياة ولا موتة أخرى، وهو خلاف الحق الذي جاء به الرسل فيصدقونها يوم الدين ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ...﴾(٢)!.

وفي ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ دون سناد لمن يميتهم ويحييهم تلميحة إلى نكران المحيي المميت اللّهم إلّا الدهر المميت وليس إلّا من جنسهم.

فهم يظنون ألا تمتد إليهم يد بالموت والحياة، إنما هي الأيام تمضي والدهر ينطوي وبطيّاته إذا هم أحياء ومن ثم هم أموات ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ وكيف يصلح الدهر مفسراً للموت وهو أمر منتظم مقصود وليس الدهر الطبيعة قاصداً، فالأطفال يموتون كما الشيوخ، والأصحاء يموتون كما المرضى، والأقوياء كما الضعفاء، فالتفسير الحي للحياة والموت أنهما على نظم وقصد دونما صدفة عمياء، أو فاعلية دهرية طخياء!

هب أن الهلاك هو بالدهر، فما هو سبب الحياة، هل هو كذلك الدهر،

(١) سورة النجم، الآية: ٢٣.
(٢) سورة غافر، الآية: ١١.

ومختلف الفاعليات دليل القصد والحياة في الفاعل، أم أن الحياة مما فوق الدهر فهو الله، أم الحياة وهي أرقى ليس لها سبب وإنما الهلاك؟ تلك إذاً قسمة ضيزى!

ولأن جماعة من المشركين يعتقدون تناسخ الأرواح في الحياة الدنيا، أن روح كل ميت ينتقل إلى حي فيعيش في غير بدنه، والآية في احتمال أوسع تشمل قبيلي الملحدين والمشركين، فـ ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ لجمع من المشركين قد تعني المعنيين، فكما يموت بعض ويحيى بعض، كذلك نموت من بدن ونحيى في بدن آخر[1]: وما الإهلاك النسبي هذا ولا الإهلاك القاطع إلّا بالدهر حسب الدهريين، أم والبعض من المشركين القائلين بربوبية للدهر الطبيعة إمّا ذا؟

وهل الدهر في زعمهم هو الزمان، ففي تصرمه لحدٍّ ما هلاك من يهلك، أو أنه الطبيعة، فكما خلقتنا كذلك أهلكتنا؟ وما الدهر إلّا بأمر خالق

---

(١) نور الثقلين ٥ : ٢ ح ٩ - القمي في الآية: ثم عطف على الدهرية: نزلت هذه الآية في الدهرية وجرت في الذين فعلوا، ما فعلوا بعد رسول الله ﷺ..

وفيه عن أصول الكافي عن أبي عمرو الزبيري عن أبي عبد الله عليه السلام قال قلت له: اخبرني عن وجوه الكفر في كتاب الله عزّ وجلّ؟ قال: الكفر في كتاب الله على خمسة أوجه فمنها كفر الجحود على وجهين، فالكفر بترك ما أمر الله وكفر البراءة وكفر النعم، فأما كفر الجحود فهو الجحود بالربوبية وهو قول من يقول لا رب ولا جنة ولا نار وهو قول صنفين من الزنادقة يقال لهم الدهرية وهم الذين يقولون: وما يهلكنا إلّا الدهر وهو دين وضعوه لأنفسهم بالاستحسان منهم على غير تثبت منهم ولا تحقيق لشيء مما يقولون يقول عزّ وجلّ ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤] إن ذلك كما يقولون.

وفي نهج البلاغة: فانظر إلى الشمس والقمر والنبات والشجر والماء والحجر واختلاف هذا الليل والنهار وتفجر هذه الأنهار وكثرة هذه الجبال وطول هذه التلال، وتفرق هذه اللغات والألسن المختلفات فالويل لمن جحد المقدر وأنكر المدبر زعموا أنهم كالنبات، ما لهم من زارع ولا لاختلاف صورهم صانع ولم يلجؤوا إلى حجة فيما ادعوا ولا تحقيق لما ادعوا وهل يكون بناء من غير بان أو جناية من غير جان؟

الدهر طبيعة أو زماناً أو أياً كان مِن «كان» فهو المحيي وهو المميت ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ﴾ الذي يهرفون «من علم»: أيٍّ علم أو أية شائبة من علم، فـ «من» تلمح كتصريحة ألّا علم لهم إطلاقاً في حصرهم الحياة بالدنيا، وموتهم بالدهر وتناسخ لأرواحهم، أمّاذا من هرطقات وأساطير الجهالات.

فالقول بغير علم جهل عميق وحمق عريق قد يعبر عنه بالظن، وكيف الظن وهو اعتقاد راجح؟:

حالات العقل بين احتمال وشك وظن وعلم، ويقين بمراتبه، فإذا كانت مستندة إلى حجة مقبولة كانت ممدوحة: يحتمل لأنه.. أو يُشك فيه لأنه أمّاذا!.

أمّا إذا لم تستند إلى وثاق وإنما بما تهوى الأنفس فهي كلها مطرودة ولو كانت يقيناً! وهؤلاء يظنون ما يتقولون دونما حجة لهذه الرجاحة الظنية: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾[1] فهو أردأ من احتمال مرجوح يملك برهانه.

وقد يعبر عن يقينهم - الخاوي عن حجة - بالظن، تزييفاً لموقفه وتنزيلاً إلى الظِنَّة المتهوّسة التي لا تملك أية حجة في أية رجاحة لما يظن.

وعلى أية حال فمن حالات النفس مقدسة وإن كانت شكاً في الحق إذا كان عن حجة ولمّا تصله حجة الحق وهو يتحراها، ومنها مدنَّسة وإن كان يقيناً حين لا تملك حجة إلّا على خلافها كظنون الدهريين والمشركين وأضرابهم من الناكبين المقصرين عن صراط الحق.

فإذا كانت من هُدى العقل متحرية عن الحق صحت، أو كانت من هوى النفس متجرئة على الحق سقمت، وماذا بعد الحق إلّا الضلال فأنى تصرفون!:

(١) سورة النجم، الآية: ٢٣.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٢٥)﴾:

وآباؤهم كأمثالهم ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾[1] وهل اللّادليل دليل لمن ليس له دليل، لأنه من القدامى الماضين؟ ولو أتوا بدليل فهل يربوا على آيات الله البينات؟ فهل يأتي الآباء المشركون بأفضل مما أرسل به المرسلون، أم لهم حجج على ما يدَّعون، ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ﴾ على ممر التاريخ الرسالي ﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢٦)﴾:

إنها لا صدفة للحياة والموت ولا فاعلية مستقلة من هذا الكون في إحياء وإماتة، فإنما الله والله فقط ﴿يُحْيِيكُمْ﴾ للحياة الدنيا ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ عنها ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ﴾ في حياة أخرى ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ في مثلث الإحياء والإماتة والجمع ليوم القيامة ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

مختلف الأفعال المنتظمة دليل على فاعلية إلهية حكيمة عليمة للحياة والموت، والألوهية الحكيمة العادلة لزامها الجمع إلى يوم الجمع، فالآية إذاً برهان إجمالي لإثبات المبدأ والمعاد.

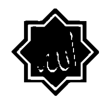
الله يحييكم كما أحيى الدهرَ، ثم يميتكم كما يميت الدهر، فالحياة والموت تلو بعض مشهودان لكل حي في مشهد الدنيا، فماذا يُجديكم أن يؤتى بآبائكم؟ ثم الذي يحيي أوّل مرة ويميت هو أجدر أن يحيي ثاني مرة ويميت وهو أهون عليه، كما يجمع الجميع للموت يوم الجمع الإماتة، ثم للحياة في الجمع الإحياء.

---

(١) سورة النجم، الآية: ٢٣.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾﴾:

﴿وَلِلَّهِ﴾ لا سواه ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ تعبيراً عن الكون كله، ملكٌ لا يزول ولا يتنقل ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ القيامة ﴿يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ في واقع أعمالهم وأفكارهم الظاهرة هناك بحقائقها الباطلة، مهما لم يظهر خسارهم يوم الدنيا كما يجب، رغم أنهم في خسار وبوار، ومعيشة ضنك، ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ...﴾(1)!



(١) سورة طه، الآية: ١٢٤.

﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٩) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (٣٠) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (٣١) وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ (٣٢) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٣٣) وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ (٣٤) ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۚ فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٣٥) فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٣٦) وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣٧)﴾

﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٩)﴾:

مشهد عجيب رهيب، يوم العرض الأكبر على الله، وقد تجمعت فيه الأمم المحتشدة، جاثية على الركب دون جهنم[1] في ارتقاب الحساب

(١) الدر المنثور ٦ : ٣٦ - أخرج سعيد بن منصور وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد وابن أبي حاتم والبيهقي في البعث عن عبد الله بن باباه قال قال رسول الله ﷺ : كأني أراكم بالكرم دون جهنم جاثين ثم قرأ سفيان: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾.

﴿وَتَرَىٰ﴾ أنت أيها الرسول كشهيد الشهداء، ويرى معك كل راءٍ ﴿كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾.

﴿كُلَّ أُمَّةٍ﴾ هنا تعني كافة العالمين المكلفين، وليس جمع ﴿كُلَّ أُمَّةٍ﴾ إلّا بقاسم كل شرعة شرعة، إذاً فـ﴿كُلَّ أُمَّةٍ﴾ تعني أمة كل شرعة، وهي الخمس لأولي العزم الخمسة ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ فلكلٍّ من الخمس كتاب تدعى إليه عرضاً لأعمالها عليه.

وترى ﴿كُلَّ أُمَّةٍ﴾ لا تشمل المتخلفين عن كل شرعة من موحدين ومشركين وملحدين الذين لا يدينون بأية شرعة من الدين؟ وهم أحرى أن تكون جاثية، وأن ينطق كتاب الحق عليهم بالحق، استنساخاً لما كانوا يعملون!

أم تشملهم وكيف تشملهم وهم خوارج عن كل أمة؟.. ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا... وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا﴾ من أدلة الشمول، وأن الكفار بدركاتهم تشملهم ﴿كُلَّ أُمَّةٍ﴾! وكون الكافر في كل رسالة من الخمس من أمتها لا يعني أنه مصدق بها، وإنما أمة كل رسالة هي التي يتوجب عليها الإيمان والتطبيق لهذه الرسالة، سواء آمنت فنعما أو كفرت فبئسما! فتدعى «إلى ما يجب عليهم من أعمالهم»[1] ولا يعني كتاب كل أمة كتب الأعمال الشخصية فإنها لكل فرد فردٍ من كل أمة، والنص: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ دعوة للعرض عليه بكتاب كل فرد فرد، أو أن «كتابها» تعنيهما، كتاب كل أمة كمعروض

(١) نور الثقلين ٥: ٥ في روضة الكافي بإسناده عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال قلت له قول الله عز وجل: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ [الجاثية: ٢٨] قال: إلى ما يجب عليهم من أعمالهم:
وفي الدر المنثور ٦: ٣٦ - أخرج ابن جرير عن قتادة في قوله: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ قال يعلمون أنه يدعى أمة قبل أمة وقوم قبل قوم ورجل قبل رجل ذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يقول: يمثل لكل أمة يوم القيامة ما كانت تعبد من حجر أو وثن أو خشبة أو دابة ثم يقال: من كان يعبد شيئاً فليتبعه فيكون أوّل ذلك الأوثان قادة إلى النار حتى تقذفهم فيها فيبقى أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأهل الكتاب.

عليه، وكتاب كل فرد كمعروض به، كما أن ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ - هَٰذَا كِتَٰبُنَا - إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ﴾: تعبيرات ثلاثة عن ثاني الكتابين.

يعرض كتاب الأعمال على كتاب الأمة فيجزى كلٌّ بكتابه الخاص، بعمله، فالجزاء هناك عبارة عن ظهور ملكوت الأعمال ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ لا بما ﴿كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فليس الجزاء منفصلاً عن العمل، فإنه متصل به اتصال الحقيقة بالظاهر والسر بالعلن، ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[١]، وهذه من عشرات الآيات في تصريحاتها بانعكاس الأعمال[٢].

لكل أمة كتاب هو كتاب شرعة اللّه، ولكل فرد كتاب استنسخه الله، فهما كتاب الله كما الأول كتاب كل أمة والثاني كتاب كل فرد، قد يعبر عنه بكتابك ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾[٣] أم كتاب الله ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿إِنَّا كُنَّا﴾ هنا كتعليل لـ ﴿كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ﴾ أن كيف تنطق الأعمال؟ فالجواب ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وحق الاستنساخ للعمل نقل صورته بسيرته كما صدر في حال أو مقال أو أعمال، في نسخة صوتية أم صورية أمّاذا من نسخة طبق الأصل[٤] كما الصور التلفزيونية والأصوات المسجلة وأقوى منها وأبقى.

---

(١) سورة ق، الآية: ٢٢.

(٢) راجع آيات الزلزلة والإسراء والكهف وغيرها في الفرقان تجد تفصيلاً حول انعكاس الأعمال.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ١٤.

(٤) نور الثقلين ٥ : ٥ ج ١٧ في تفسير علي بن إبراهيم بسند عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث القلم والكتاب المكنون قال: أولستم عرباً فكيف لا تعرفون معنى الكلام وأحدكم يقول لصاحبه: انسخ ذلك الكتاب؟ أوليس إنما ينسخ من كتاب آخر من الأصل وهو قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

وهنالك نسخٌ تُسجَّل في الأعضاء العاملة ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾[1] وأخرى في الأرض بأجوائها ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾﴾[2] ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾[3] وثالثة في صحائف قلوب شهداء الأعمال ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ﴾[4] ورابعة عند الكرام الكاتبين ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾[5] نسخاً أربع طبق الأصل من أعمال العباد ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[6].

هذا الكتاب في نسخه ينطق على أهله بالحق، نطقاً عينياً هو أفضل وأحجى من نطق اللسان، و«بالحق» دون أي باطل في زيادة أو نقصان لحد يقول صاحب الكتاب: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[7]:

ذلك استنساخ بعد العمل وهنالك استنساخ قبل العمل في العلم في

---

(١) سورة الإسراء، الآيتان: ١٣، ١٤.

(٢) سورة الزلزلة، الآيتان: ٤، ٥.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٣٠.

(٤) سورة النحل، الآية: ٨٩.

(٥) سورة الانفطار، الآيات: ١٠-١٢.

(٦) المصدر ج ١٩ في بصائر الدرجات بإسناده عن محمد الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن الأعمال تعرض على الله في كل خميس فإذا كان الهلال أجلت فإذا كان النصف من شعبان عرضت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعلى علي عليه السلام ثم ينسخ في الذكر الحكيم، وفي الدر المنثور ٦: ٣٦ - أخرج ابن جرير عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: إن لله ملائكة يتولون في كل يوم بشيء يكتبون فيه أعمال بني آدم.

(٧) سورة الكهف، الآية: ٤٩.

اللوح المحفوظ والكتاب المكنون منه النسخ كلها، فكتب الأعمال نسخة منها والأعمال نسخة من الأصل العلم ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ...﴾[1].

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (٣٠) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُجْرِمِينَ (٣١)﴾:

بعد الدعوة إلى كتاب الدعوة لكل أمة، وعرض كتاب الأعمال على كتاب الشرعة الإلهية، يقتسم الفريقان من كل أمة، كتلة مؤمنة صالحة وأخرى كافرة طالحة و﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ عمل كلٌّ من صالح وطالح هو جزاؤه حيث تبلى السرائر ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾[2] فالرحمة لأهل الجنة كما الجنة، هي الظاهرة هناك من ملكوت الصالحات ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾[3] حيث كانوا يتسمعون إلى آيات الله تتلى عليهم، والنار لأهل النار، ظاهرة من ملكوت الطالحات جزاءً وفاقاً ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي﴾ في كتاب الأمة ﴿تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ مما يدل أن الداخلين في النار خالدين

---

(١) المصدر ج ١٧ - القمي عن أبي عبد الله عليه السلام سئل عن ﴿ن وَالْقَلَمِ﴾ [القَلَم: ١] قال: إن الله خلق القلم.. ثم، قال للقلم: اكتب ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة فكتب.. فهو الكتاب المكنون الذي منه النسخ كلها أولستم عرباً.. وح ٢٠ في عيون الأخبار بإسناده إلى الحسين بن بشار عن أبي الحسن علي بن موسى الرضا عليه السلام قال: سألته أيعلم الله الشيء الذي لم يكن أن لو كان كيف كان يكون؟ فقال: إن الله تعالى هو العالم بالأشياء قبل كون الأشياء: قال عز وجل : ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ...﴾ فلم يزل الله عز وجل علمه سابق الأشياء قديماً قبل أن يخلقها فتبارك وتعالى ربنا علواً كبيراً خلق الأشياء وعلمه سابق لها كما شاء كذلك ربنا لم يزل عالماً سميعاً بصيراً.

وفي الدر المنثور ٦ : ٣٦ - أخرج ابن مردويه عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: إن أول شيء خلق الله القلم فأخذ بيمينه وكلتا يديه يمين فكتب الدنيا وما يكون فيها من عمل معمول بر أو فاجر رطب أو يابس فإحصاه عنده في الذكر وقال: اقرأوا إن شئتم ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٩] فهل تكون نسخة إلا من شيء قد فرغ منه؟.

(٢) سورة الشورى، الآية: ٧.

(٣) سورة ق، الآية: ٣٥.

وغير خالدين هم الذين تليت عليهم آيات الله بينات فاستكبروا مجرمين، وأمّا القُصَّر والمجانين والبُله والمستضعفون غير الظالمين - ولم تصلهم الحجة - فهم معفوٌّ عنهم على قدر قصورهم، فلا عذاب إلّا بحجة بالغة قضية العدالة الإلهية.

﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾﴾:

﴿مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ﴾ تجاهلاً عن الساعة وموقفها أنها لا تدرى، كأنها غير مفهومة ولا معقولة، ومهما ظننا أنها ممكنة أم كائنة، فـ ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ هيّناً ضئيلاً لا يملك دليلاً فلا يلزمنا بشيء للساعة ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾:

وترى كيف يجتمع الظن بالساعة كما هنا، والظن بعدم الساعة كما هنالك ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ رغم أنهم كانوا متأكدين في نكران الساعة ﴿مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾؟

إن غير المستيقنين بالساعة دركات عدّة، فمن ناكر للمبدأ فمتأكد ألّا ساعة، ومن مشرك كذلك رغم اعترافه بالمبدأ، ومن مشرك أم ملحد شاكٍ في المبدأ أو في المعاد، وعلّ ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ هي مقالة الآخرين، ويأحرى المتأكدين ألّا ساعة أن يكونوا من أهل الجحيم، مهما يعبّر عن يقينهم المدعى بالظن ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ حيث لا يستند إلى برهان وحتى في موقف الظن!.

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾﴾:

سيئات الأعمال وهي حقائقها، غير البادية يوم الدنيا، تبدو لهم يوم الأخرى ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[1].

---

(١) سورة ق، الآية: ٢٢.

﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ من الحيق وهو نزول بردَّة فعل، لم يأت في سائر القرآن إلّا ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾[١] فقد استهزؤوا بالساعة ﴿مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ﴾ ثم في الساعة: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ من الساعة، حيث تحيط بهم هازئة بكل ترذيل وتأنيب!

﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾:

نسيانٌ هناك في حيق العذاب بنسيانٍ هنا للساعة، ليس في الحق إلّا تناسياً هناك بتناسٍ هنا، نسيان متعمَّد وأنت تعيش ذكرى الساعة، متغافلاً عنها دونما غفلة، فـ﴿ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ﴾ عامدين متغافلين دونما غفلة، جزاءً وفاقاً.

فـ﴿نَنسَىٰكُمْ﴾ لا تعني إلّا تعامل الناسي وليس بناس ﴿كَمَا نَسِيتُمْ﴾ تعامل الناسي للساعة ولستم بناسين ﴿كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾[٢] ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[٣].

فالله لا ينسى ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾[٤] وإنما يتناسى من تناساه ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾[٥] أم تناسوا لقاء يومهم هذا ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾[٦].

---

(١) كما في ٦: ١٠: ١١: ٨ - ١٦: ٣٤ - ٣٩: ٤٨ - ٤٠: ٨٣ - ٤٦: ٢٦ وفي ٢١: ٤١ ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنبياء: ٤١] وفي ٤٠: ٤٥ ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٥].

(٢) سورة طه، الآية: ١٢٦.

(٣) سورة السجدة، الآية: ١٤.

(٤) سورة طه، الآية: ٥٢.

(٥) سورة التوبة، الآية: ٦٧.

(٦) سورة الأعراف، الآية: ٥١.

ثم النسيان غير المتعمَّد يغفر ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾[١] رغم المتعمد المتواصل حيث لا يُغفر، كنسيان الله واليوم الآخر.

﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾﴾:

«ذلك» حيق العذاب الاستهزاء ونسيانكم إنما هو بعصيانكم ﴿بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾ حالاً ومقالاً وأفعالاً «و» الحال أنكم ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ وإلي هنا ينتهي معهم الخطاب العتاب، سدلاً للستار عليهم بإعلان مصيرهم بمسيرهم، تحويلاً لوجه الكلام إلى الرسول ﷺ ومن معه من الصالحين ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾ فهم واقعون فيما قدموا من هزءٍ وغرور دون خروج عن ذلك، فإنه لزامهم أيّاً كانوا وأيّان.

فـ«منها» تعني النار التي هي السيئات البادية مما عملوا، وهي أنفسهم وأعمالهم: ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾[٢] ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾[٣] واردون في حصبها وهي حطبكم أنفسكم بأعمالكم ﴿لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾.

وترى أنه الخلود إلى غير النهاية فيها، ولزامه خلود النار هكذا، فلأن النار سوف تخمد وتفنى، فهم يفنون بفناء النار، وليس ذلك خروجاً عن النار وإنما فناء مع النار!

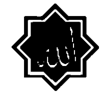
﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾: ولا يطلب منهم أن يعتبوا، لا ربهم إذ لا يعاتب بعدله، ولا أنفسهم وإن كانوا معاتبين إذ لا يفيدهم عتابهم أنفسهم، ولا

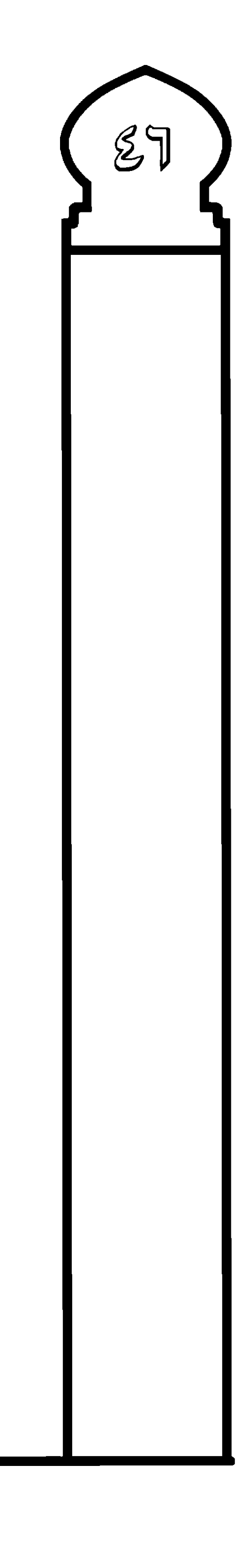
(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٩٨.
(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٩٨.

يسمع منهم حيث الأبواب أوصدت إيصادها الأخير فلم يك بعد ذلك تحوير ولا تغيير، فلماذا ﴿يُسْتَعْتَبُونَ﴾؟

﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٣٦) وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣٧)﴾:

﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ﴾ لا سواه على ألوهيته وربوبيته في الأولى بربوبية التكوين والتكليف امتحاناً، وفي الأخرى بربوبية الجزاء الوفاق عدلاً وامتناناً ﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ﴾ كما له الحمد ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: الكون كله ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فهو المحمود الكبير العزيز الحكيم لا سواه!





سُورَةُ الأحقاف



مكية - وآياتها خمس وثلاثون

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ
مُعۡرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ
ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِۖ ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ أَوۡ أَثَٰرَةٖ
مِّنۡ عِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ
مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا
حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ
ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمۡ
يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَلَا تَمۡلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَا
تُفِيضُونَ فِيهِۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلۡ مَا
كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا
يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٩﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ
وَكَفَرۡتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡۖ إِنَّ
ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡ

كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾﴾:

﴿حمٓ﴾ . . . هذه وسائر مفاتيح السور التي افتتحت بأمثالها من حروف مقطعة، إنها رموز غيبية بين الله ورسوله، وهي مفاتيح كنوز القرآن، لا نعلم منها شيئاً إلّا ما قد يلوح من القرآن، أو ما أبداه لنا الذين بأيديهم هذه المفاتيح من الراسخين في علوم القرآن، الموجهة إليهم خطاباته الرسالية: أصلياً كالرسول وفرعياً كالأئمة من آل الرسول(١).

و﴿حمٓ﴾ هذه، تتقدمها حواميم ست، إلّا الشورى الزائدة على الحرفين «عسق» وما هو رمز تتابع هذه الحواميم السبع وكلها مكية(٢)؟ الله أعلم! فهذا رمز فوق هذه الرموز لا سبيل لنا إلى الاطلاع عليها إلّا أن يطلعنا الله بالقرآن نفسه، أو بأصحابها، وقد يروى عن الرسول ﷺ قوله: «الحواميم تاج القرآن»(٣).

وكما يوحي تتابع ذكر الكتاب أيضاً بعد ﴿حمٓ﴾ في هذه السبع، إن

(١) تجد البحث المفصل عن هذه الرموز وما قيل أو يحق أن يقال فيها، في مواضيع أخرى في هذا التفسير لا سيما سورة البقرة.
(٢) المؤمن - السجدة - الشورى - الزخرف - الدخان - الجاثية - الأحقاف.
(٣) المجمع عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ.

رمزه يناسب القرآن كلّه، إنزالاً وتنزيلاً، بيِّناً ومبيناً[1] وكما يعقبها ذكر من كتاب التكوين، إيحاءً بتجاوب الكتابين وتلائمها، كما هما مع الحواميم.

وقد تعني ﴿حمٓ﴾ في كلٍّ غير ما تعنيه في سواها مع اشتراكها في مغزى شامل أم ماذا؟ اللهم لا علم لنا إلّا ما علمتنا إنك أنت العزيز الحكيم:

هنا نلمس العلاقة الحكيمة بين الكتاب المنزل تشريعاً، والكتاب المبدع تكويناً، والكتابان معروضان على البصائر والأبصار، يتجاوبان في تفسير بعضهما البعض، ولأنهما معاً من عند الله العزيز الحكيم؛ كما نرى أن كتاب التدوين يأمر بالنظر إلى كتاب التكوين، ومن ثم التكوين يصدق التدوين التشريع دون تفاوت واختلاف.

ثم ﴿حمٓ﴾ قد تكون مبتدأً خبره تنزيل الكتاب أو إنزاله، فهي إذاً رمز شامل للكتاب جملة وتفصيلاً، أو أن المبتدأ تنزيل الكتاب وخبره من الله العزيز الحكيم، و﴿حمٓ﴾ غير داخلة في نطاق التركيب الجملي كما هي خارجة عن العموم الدلالي. وكما الله تعالى بحكمته وعزته أحكم الكتاب إنزالاً له في ليلة مباركة، كذلك بعزته وحكمته نزّله طوال ثلاث وعشرين سنة، فهو كتاب يحمل عزته تعالى وحكمته: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾[2] ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ

---

(١) ففي الأحقاف هنا وفي الزمر بعد السبع ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [الزُّمَر: ١] وفي السجدة ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [فصلت: ٢] وفي المؤمن ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [غافر: ٢] وهذه ناضرة إلى النزول التدريجي وكما في الشورى ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الشورى: ٣] والزخرف ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾﴾ [الزخرف: ٢-٣] ثم الدخان ينظر إلى النزول الدفعي ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ [الدخان: ٢-٣] ثم الزخرف ﴿قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ ناظرة إلى أنه بيان، والدخان ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ إلى أنه مبين، فهذه السور هي على دعائم كون الكتاب بياناً ومبيناً ومنزلاً ومنزلاً.

(٢) سورة فصلت، الآيتان: ٤١، ٤٢.

عَلَيْكَ مِنَ ٱلْآيَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ﴾[١] ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾[٢] وكذلك الله في خلق الأرض والسماوات:

﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾﴾:

ما خلقنا.. إلّا «ملابساً بالحق» واقعاً، ومستقبلاً هو ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وحال إن: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟﴾ من تخلفات في الحياة الدنيا، ومن خلفياتها المقدمات للأخرى ﴿مُعْرِضُونَ﴾: إعراضاً عقيدياً للنشأتين وأيضاً عملياً في الأولى.

فلو لم تكن للسماوات والأرض نهاية وقيامة لكان خلقها عبثاً وباطلاً: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[٣] كان باطلاً بما فيه من تسوية بين المتقين والفجار: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ...﴾[٤] وهذه لعبة جاهلة ولهوة باطلة أن يخلق هذا الكون الشاسع دونما حساب: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾[٥] ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾﴾[٦].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٥٨.
(٢) سورة يونس، الآية: ١.
(٣) سورة ص، الآية: ٢٧.
(٤) سورة ص، الآية: ٢٨.
(٥) سورة الأنبياء، الآيات: ١٦-١٨.
(٦) سورة الدخان، الآيات: ٣٨-٤٠.

إن السماوات والأرض هنا وهناك تعني الكون كله، فله أجل مسمىً عند الله وساعة معلومة لا يجليها لوقتها إلا هو.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِي بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾﴾:

﴿قُلْ﴾ للذين كفروا، المعرضين عما أنذروا ﴿أَرَءَيْتُم﴾: أبصرتم وعرفتم ﴿مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ كأنهم آلهة إلا الله، فلو أنهم آلهة في رأيكم فليكونوا خالقين كما الله فـ ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ فقط غمضاً عن السماوات. فإذ لا خلق لهم في الأرض فكيف بالسماوات؟ ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ﴾ مع الله ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؟ وليس في الأرض وهو أهون، فإذ لا تجدون لهم خلقاً في الأرض أو شركاً في السماوات، ولعلّه خفي عنكم ف ﴿ٱئْتُونِي بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ﴾: الكتاب الأخير المهيمن على ما قبله من كتاب، يدل على هذا الشرك بلسان الوحي «أو» - ولا أقل - ﴿أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾: بقية منه تروى وتؤثر، أو علامة منه عليها أثر من علم، علمٍ مسنودٍ إلى حس أو نقل أو عقل أو أي كان، ما كان من علم، أو أثارة منه آثركم الله به فائتوني.. إن كنتم صادقين: ةأنّ لما تدعون شرك في الأرض أو السماوات ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾[1] ﴿مَّنْ خَلَقَهُمْ﴾[2] ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾: ﴿لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾[3] ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[4].

وهذه الأدلة المطلوبة لإثبات ما يزعمون، بدءاً من الحسية وختاماً

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٦١.
(٢) سورة الزخرف، الآية: ٨٧.
(٣) سورة الزخرف، الآية: ٩.
(٤) (٣١: ٢٥ و٤٣: ٨٧ و٤٣: ٩ و٤٣: ٨٧).

لأثارة من علمٍ، يتوسطها كتاب من الله الشامل لكل دليل، إنها فقط هي التي يمكن الحجاج بها لإثبات ما يُرام، وإذ لا يجدون منها أثراً أو أثارة فأنّى يؤفكون!.

«كتاب أو اثارة من علم»؟:

هنا الثقلان: الكتاب - والسنة: العترة - يحصران الأدلة في أنفسهما: كتاب وحي، أو أثارة من علمٍ منه، والأثارة كما سبق هي البقية من علم، التي عليها أثر العلم، بقية ذات علامة تروى وتؤثر عن مصدر العلم: الكتاب، فإنما هو الكتاب، المحور الأوّل والأخير لإثبات الحق المرام، إذ يجمع أدلة الحس والعقل والعلم بوحي خالص يخطّئ أخطاءها: ويزيد في أضوائها، ويزودها بعلم الله الذي لا نقص فيه ولا خطأ.

لذلك إن الأدلة الحسية المسبقة قبل الكتاب لا تتكرر هنا، لأنها مطوية في الكتاب. وما أحسنه وأجمله تفسيراً لأثارة من علم ما يروى عن الرسول ﷺ إنه، «حسن خط»[1] وما الخط إلا تعبيراً عن الواقع، وما حسنه وجماله إلا فيما يحمل من معنى قبل زَبره وصورته، وإنه فقط حملة علامة العلم الكتاب وأثره، مهما لم يصل إلى درجة العلم.

فالعلم المستفاد من كتاب الوحي هو الأساس، ثم أثارة منه، تحمل علامة العلم، ويحملها أولو العلم، فكما أن متن الأثارة يُطمأن بملاءمة الكتاب، كذلك سندها الناقل لها يُطمَأن، ومرافقة المتن هي أهم عند أولي العلم، والحاجة إلى السند لغيرهم في الأكثر، والجمع أمتن وأمكن لإثبات العلم.

فإذ يقول الرسول ﷺ: «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وسنتي - مرة

(١) الدر المنثور ٦: ٣٨ - أخرج ابن مردويه عن أبي سعيد عن النبي في الاثارة.

- وعترتي - أخرى، فهو ينظر إلى أثارة العلم من زاويتين: المتن (سنتي) والسند (عترتي) فالعترة هم السنة المحمدية القاطعة التي لا ريب فيها، لأنهم يحملونها دون جهل أو غفلة أو خطأ، فما تسمعه منهم سليماً دون تقية فهو علم أو أثارة قطعية من علم، وما يؤثر لك من غيرهم عنهم أو عن النبي ﷺ فلا حجة فيه إلا إذا كانت أثارةً من علم الكتاب، تحمل أثر الكتاب حيث يتصادقان.

وهنا يأتي دور المروي متواتراً عن النبي ﷺ: «ما وافق كتاب الله أو سنتي فخذوه وما خالف كتاب الله أو سنتي فاتركوه»[1] فإن السنة هنا هي القاطعة، مسموعة عنه ﷺ أو مأثورة عن أهل بيته المعصومين، فالذي يعرض على الكتاب والسنة هي الأثارة: المأثور غير القاطع، فلو حملت علامة العلم بما وافقت الكتاب أو السنة القاطعة، فهي أثارة من علم، وإلا فهي أثارة لا من علم، مهما كان ظناً أو سواه ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔاۚ﴾[2].

وبما أن الأثارة من الأثَرَة فقد تعني فيما عنت أثرة من علم: أن آثرهم الله بشيء من علم لم يوح إلى نبي في كتاب أو سواه، ولم يلهم إلى عقل!: ﴿ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ﴾: بقية تحمل أثراً من علم الكتاب كدليل حيث لا دليل، أو ما آثركم الله به من علم يفوق كل دليل، ﴿ٱئۡتُونِي...﴾ ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾!.

فيا لله عطفاً بهؤلاء الحماقى الجهال أن يطالبهم بدليل على ما يدعون، وإن كان أثرة كما قد يزعمون، وأنى لهم أن يأتوا به إلا أهواءً وظنوناً عليها يعكفون!

---

(١) ومن أهمها ما رواه الفريقان عن النبي ﷺ أنه قد كثرت على الكذابة وستكثر فمن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار، فما جاءكم من حديث يوافق كتاب الله فأنا قلته وما جاءكم من حديث يخالف كتاب الله فلم أقله.

(٢) سورة يونس، الآية: ٣٦.

ترى وما هو موقف «من» في ﴿مِّنْ عِلْمٍ﴾؟ علها جنسية تعني كون الأثارة من جنس العلم: عالياً كالأثرة، أو نازلاً كما تحمل علامة منه، أو نشوية تعني كون الأثارة البقية صادرة عن مصدر العلم، أثارة كائنة من علم، صادرة عن علم، وعلهما هنا معنيان وما أجمل جمعهما وأكمله! وما أحسن الأثارة التي هي علم وتحمل علامة العلم، دليلاً ثانياً بعد الكتاب؟! فالظن غير المسنود إلى علم، الذي لا يحمل علامة العلم، إنه لا يغني من الحق شيئاً[1].

ومن ثم أخيراً وبصيغة أخرى ﴿أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ قد تعني فيما تعني شيئاً يستخرج من العلم بالكشف والبحث والطلب والفحص فتثور حقيقته، وتظهر خبيئته، كما تستثار الأرض بالمحافر فيخرج نباتها وتظهر نثائلها، أو كما يستثار القنص من مجاثمه ويستطلع من مكامنه.

ثم إذ لا شرك لها في الخلق، فلا شرك إذاً في التقدير والتدبير ولا العبادة - وأحرى -! فأنى تصرفون:!

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ۝٦﴾:

اللّهم إنه لا أضل منهم، فالمدعو في مثلث الخيبة لهم منذ الدنيا ليوم الدين، اثنان يوم الدنيا: ﴿مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ﴾ وواحد يوم الدين يحمل استجابة عليهم واستجاشة لشعورهم بأشد تأنيب: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾.

وترى كيف تنسب الغفلة إلى الأصنام يوم الدنيا وهي من حالات ذوي الشعور، وأكثر منها عداءها وكفرها بعبادتهم؟ يوم الدين!.

أقول: هذه مما تلمح بشعور غير ذوي الشعور - عندنا - يوم الدنيا،

---

(١) راجع سورة النجم، تفسير الآية ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [النجم: ٢٨].

كآيات أخرى في مغزاها، كما وتصرح كأنها تصبح من ذوي العقول يوم الأخرى، فإذا كانت غافلة في الأولى من عبادتها، فهي تعاديهم بعبادتهم لها وتكفر بها في الأخرى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾[١] ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾[٢] وإنما أهواءَهم كانوا يعبدون. ﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَـٰفِلِينَ﴾[٣].

وكما ترجع إليهم ضمائر العقلاء: ﴿مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ . . . وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ . . . وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ﴾!

فيوم الدين تحدّ الأبصار أكثر مما كانت يوم الدنيا وكما الناس مع سواهم على سواء: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[٤].

وطبعاً هذه الغفلة ليست من المعبودين ذوي العقول، فإن الصالحين منهم كالملائكة والنبيين عارفون ومعارضون ما عاشوا، والطالحين منهم كالطواغيت هم داعون إلى أنفسهم: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَـٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾[٥] فما هم إذاً عن دعائهم غافلين، وإنما غير ذوي العقول هي الغافلة عن عبادتها، ثم هي وإياهم يتشاركون في عداوتهم ونكران شركهم وحتى الشيطان: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَـٰنُ . . . إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾[٦]!.

وترى أن كفر المعبودين بشركهم يعني أنهم ما عبدوهم؟ وقد عبدوا وعقلاؤهم عارفون! كما الشيطان يكفر بما أشركوه من قبل؟ أو أن ذلك

(١) سورة فاطر، الآية: ١٤.
(٢) سورة القصص، الآية: ٦٣.
(٣) سورة يونس، الآية: ٢٩.
(٤) سورة ق، الآية: ٢٢.
(٥) سورة الشعراء، الآية: ٢٩.
(٦) سورة إبراهيم، الآية: ٢٢.

النكران من غير العقلاء: ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾(١) أو أن زوال الغشاوات والغباوات بينهم يبين لهم أنهم أخطؤوا فيما كانوا يعبدون، فقد عبدوهم زعم أنهم شفعاء وما هم بشفعاء، أو أنهم وكلاء وما هم بوكلاء، أو أنهم بُدلاء أم ماذا من شؤون الألوهية وما لهم شأن من هذا وذاك فلما زيّل الله بينهم يوم الدين علموا أنهم ما كانوا يعبدون إلا أسماء لا تحمل معاني كانوا يبغون، فيصدق القول: ﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ وكذا القول: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ﴾ نكراناً لأصل العبادة وتنديداً بما كانوا يعبدون. ظلمات بعضها فوق بعض!.

ترى ولماذا ﴿لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ وهم فيه أيضاً لا يستجيبون؟ علَّه لأن الاستجابة المقصودة، ليست إلّا للحياة الدنيا وفيها، إذ ينكرون الأخرى، ولأن يوم القيامة كالاستجابة فيه كذلك ليس سكوتاً بخلاف الأولى، وإنما استجابة ضدهم حين يتحاورون فـ ﴿كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾!.

وما أخذله وآلمه المعاداة بين العبدة والمعبودات هناك، خلاف ما كانوا يأملون أنهم لهم يستجيبون، هيهات هيهات لما يأملون.

إنه يرجع التنديد إلى المشركين أنفسهم أنهم إنما عبدوا أهواءَهم، وإن كان طواغيتهم شركاءَهم في العذاب بما كانوا يفعلون فسبحانه وتعالى عما يشركون.

هكذا يوقفهم الله أمام حقيقة دعواهم الباطل يوم الدين بالشهود اليقين، بعد ما أوقفهم أمام الكون والأدلة الكونية والعقلية والكتابية يوم الدنيا لتأتي عليهم حجة يوم الدين، وهكذا يكون مثال كل عابد ومعبود من دون الله أصناماً وطواغيت، مهما تصلبوا متعنتين خلاف الحق ولحد القول إنه سحر مبين.

---

(١) سورة يونس، الآية: ٢٨.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾:

أفسحر هذه لأنها خلاف ما يهوون، وهي آيات الكتاب المبين؟ آيات بينات دون ريبة ولا خفاء، فبأي برهان إذاً يستندون، فما هي مقومات السحر؟ وما هي مقومات الآيات؟ وهل توجد فيها إلا بينات قاطعات تشبع الحسن والعقل والفكر والقلب نوراً وجلاء، اللهم إلا من عميان القلوب، فإنها لا لبس فيها ولا غموض ولا خداع، فهي تزول والقرآن لا يزال ولا يزول، والسحر يبطل بالآيات المعجزة والقرآن لا يبطل وإنما يبطل السحر وكافة الدعاوي الزور.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٨﴾:

إن دعوى افتراء القرآن كدعوى سحره فارغة لا تملك ولا شائبة برهان، فلنفرض - رغم هذا - أنه مفترى، فلماذا الله لا يمحو باطل دعواه وهو بالمرصاد على من افتراه: ﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾[1] ومن مخلفاته محوه والختم على قلبي: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾[2] فهل أنا مختوم على قلبي والقرآن في زوال؟ فلو ختم أو زال ﴿فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ فلماذا أفتري على الله وأضطهد به لصالحكم؟ ألأنكم تملكون كشف الضر عني، أم ماذا؟!.

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾: خائضين في آيات الله ﴿كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى

---

(١) سورة هود، الآية: ٣٥.

(٢) سورة الشورى، الآية: ٢٤.

وَبَيْنَكُمْ﴾ وشهادته تعالى على وحيه بارزة فيه، دون شبهة تعتريه: ﴿لَٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾(١).

فالله شهيد بعلمه في كلامه بكلامه، فهل إنه بعدُ مفترى؟! ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾(٢) ﴿فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾(٣) فهل إنه بعد عيّكم عن الإتيان مثله وشهادة الله لوحيه، هل هو بعدُ سحر أو مفترى!.

فإن أفقتم عن غفوتكم، فـ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وإن أصررتم على ضلالتكم - ﴿وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾(٤) -.

ثم وليس هذا بدعاً تحارون فيه، لا أنا ولا كتابي ولا سنني ولا..:

﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾﴾:

آية وحيدة في صيغة التعبير، دفاعاً عن هذا البشير النذير، تستأصل آخر التهم المزعومة الموجهة إليه: إنه بدع من الرسل واختلاق من الرسالة: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ... مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾(٥) وي كأنهم ما قرعت آذانهم. دعوات التوحيد المتواصلة من رسل الله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾(٦). اللهم إلا أن يعنوا من الملة الآخرة ذوي العلة من الشرك والضلال، حيث عاشوا جوها الضال، كأن لا ملة أخرى غيرهم، فظلوا يعجبون من دعوة التوحيد بكل ضلال ودلال!.

﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾: لا في رسالتي وكتابي، ولا في سنتي

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٦٦.
(٢) سورة يونس، الآية: ٣٨.
(٣) سورة هود، الآية: ١٣.
(٤) سورة الحجر، الآية: ٥٠.
(٥) سورة ص، الآيات: ٥-٧.
(٦) سورة الأنبياء، الآية: ٢٥.

ودعوتي، ولا في أي من واجبات الرسالة أو راجحاتها، أو محرماتها ومحظوراتها، فأنا بشرٌ رسول كمن قبلي، لا ملك ولا إله ولا ابن الله، ولا أملك من الله شيئاً لحد:

﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾: وما يفعله بي ربي ولا سواه، من خير أو سواه، اللهم إلا وحياً من الله: ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ﴾[1]: وفي الكتاب أم سواه، فكياني كرسول وحي ليس إلا إياه، وهو الغيب الذي يرتضيه الله لمن يرضاه: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ...﴾[2] [3]. فليس هو كل الغيب، وإنما ما تتطلبه الرسالة تثبيتاً وواقعاً، دون فوضى واشتهاء: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ﴾[4] ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ﴾[5] ﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ﴾[6].

فالغيب المكشوف بالوحي الرسالي محدود بحدود الرسالة، كما الغيب المستغرق كافة الغيوب لله لا محدود باللامحدودية الإلهية، والغيب المكشوف أحياناً للعباد الصالحين أو المرتاضين خارج عن الحدين: الإلهي والرسالي، فهو للصالحين حسب درجاتهم ولمن سواهم كالمرتاضين حسب محاولاتهم، ولن يكشفوا عن غيب الله المخصوص به، ولا غيب الوحي الخاص برسله.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٥٠.
(٢) سورة الجن، الآيتان: ٢٦، ٢٧.
(٣) راجع سورة الجن ج/ ٢٩ من هذا التفسير تجد فيه تفصيلاً عن علم الأنبياء بالغيب نفياً وإثباتاً.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٨٨.
(٥) سورة الأنعام، الآية: ٥٠.
(٦) سورة هود، الآية: ١٢٣.

وليس استكثار الخير ودفع السوء، اللذان لا يمتّان بصلة للحفاظ على الرسالة وتبليغها، إنهما ليسا من الغيب المكشوف لرسل الله: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾(١) وكما نرى أن الرسول والأئمة من آل الرسول ﷺ كانوا يُغلبون كما يَغلبون، وكانوا يُسمّون أو يُقتلون كما كانوا يَقتلون، فلو كانوا يعلمون مواقع السوء لم يمسسهم، ولو كانوا يعلمون مواضع الخير لاستكثروا منه، اللهم إلا فيما عرّفهم به الله وليس سنة شاملة لهم، وإنما كفلتات فيها الحفاظ على كراماتهم.

وليس التطاول والتغالي في أنهم يعلمون الغيب كله إلا تمادياً في الضلال، وتغاضياً عما تصرح به هذه الآيات البينات، وإذ لا يتبع الرسول إلا ما يوحى إليه، فأحرى بنا أن نتبع بشأنه ما أوحي إليه، ولقد أوحي في عشرات من آياته البينات أنه - مبدئياً - لا يعلم الغيب: ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾﴾(٢): يعني من الغيب المستثنى الوحيَ الرسالي ولزاماته.

وكما أنني لست بدعاً من الرسل بينهم، كذلك لست بدعاً بين المرسل إليهم، فأهل الكتاب الذين يتلونه حق تلاوته يعرفونني وكتابي، فلو أن الأدلة المسبقة لم توصلكم إلى العلم اليقين، فلا أقل من الشك أنه من عند الله ثم يكمله شهادة شاهد منكم:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾:

ترى من هم المخاطبون في ﴿أَرَءَيْتُمْ ... وَكَفَرْتُم ... وَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾؟ ومن هو الشاهد من بني إسرائيل؟ وما هو المشهود عليه ﴿عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾؟.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٨٨.
(٢) سورة الجن، الآيات: ٢٦ - ٢٨.

علَّ المخاطبين هم كافة الناكرين للرسالة الإسلامية، من مشركين وكتابيين، زمن الرسول وبعده إلى يوم الدين، وإن كان المنطلق الأول لهذا الخطاب كأمثاله هم المعاصرين لصاحب الرسالة.

و﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ علَّه جنس الشاهد، من جنود الشهود الإسرائيليين، من نبيين وسائر المؤمنين الشاهدين، قبل الرسول وزمنه وإلى يوم الدين: مثلث الشهادة الصادقة الصارمة، من زاويته الأصيلة: النبيين الإسرائيليين، منذ موسى وحتى المسيح ومن بينهما عليهم السلام إذ شهدوا في كتاباتهم ﴿عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾: مثل القرآن، كهذه الكتب أنفسها، أو مثل نبي القرآن كما يشهد به النبيون أنفسهم، أو مثل ما يشهد به الله في القرآن: ﴿كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ شهادات على المماثلة بين الشهادتين والكتب والنبيين.

ومن زاويته الثانية زمن النبي ﷺ كالبعض من أهل الكتاب الذين شهدوا على مثله في العهد المكي، انطلاقاً من الإيمان والزاوية الأصيلة. بما كان لها من موقعها القيم ووقعتها الصارمة في الوسط المكي العارم ولأن السورة مكية.

ومن شهد منهم في العهد المدني كرأس اليهود عبد الله بن سلام(١)

---

(١) الدر المنثور ٦ : ٣٩ - أخرج أبو يعلى وابن جرير والطبراني والحاكم وصححه بسند صحيح عن عوف بن مالك الأشجعي قال: انطلق النبي ﷺ وأنا معه حتى دخلنا على كنيسة اليهود يوم عيدهم فكرهوا دخولنا عليهم فقال لهم رسول الله ﷺ: أروني اثني عشر رجلاً منكم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله يحبط الله عن كل يهودي تحت أديم السماء الغضب الذي عليه فسكتوا فما أجابه منهم أحد ثم رد عليهم فلم يجبه أحد فثلث فلم يجبه أحد فقال: أبيتم فوالله لأنا الحاشر وأنا العاقب وأنا المقفي آمنتم أو كذبتم ثم انصرف وأنا معه حتى كدنا أن نخرج فإذا رجل من خلفه فقال: كما أنت يا محمد! فأقبل فقال ذلك الرجل: أي رجل تعلموني فيكم يا معشر اليهود فقالوا: والله ما نعلم فينا رجلاً أعلم بكتاب الله ولا أفقه منك ولا من أبيك ولا من جدك قال: فإني أشهد بالله أنه النبي الذي تجدونه في التوراة والإنجيل - قالوا: كذبت ثم ردوا عليه وقالوا شراً فقال رسول الله ﷺ: كذبتم لن يقبل =

ومكية السورة لا تنافي مدنية هذه الآية، فكم من مدنية أقحمت بين المكيات، أو مكي دخلت بين المدنيات. بأمر صاحب الرسالة منذ تأليف القرآن، وكما تظافرت به ويذلك الروايات.

ومن زاويته الثالثة: كافة الشهود الإسرائيليين منذ رحلة النبي ﷺ إلى يوم الدين، مثلث الشهادة الناصعة ﴿عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾.

وضمير الغائب في ﴿مِثْلِهِۦ﴾ هو الغائب في ﴿كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ وفي ﴿وَكَفَرْتُم بِهِۦ﴾ فهو القرآن، وهو نبي القرآن المذكوران مسبقاً: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ. . .﴾ ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ فلا القرآن بدع من كتب السماء، وإن كان بديعاً بينها، ولا رسول القرآن بدعٌ من الرسل، مهما كان بديعاً بينهم، فـ﴿شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ يشهد ﴿عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾ في مثلث الزمان بمثلث الشهادة:

﴿وَشَهِدَ . . . عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾ كما الله شاهد على القرآن بالقرآن، تشهد هؤلاء الشهود للقرآن على مثله وهو العهدان، فهما كما نزلا والقرآن يتشابهان في صيغة الوحي وصبغته وكيانه فالمماثلة هنا بين الشهادتين.

أو ﴿عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾: مثل القرآن أو نبي القرآن، فالقرآن يماثل سائر كتب الوحي، كما أن نبي القرآن يماثل سائر رجال الوحي: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ. . .﴾[1] من مثل عبدنا: سائر النبيين - أو مثل ما نزلنا كسائر ما أنزل على النبيين.

فالشاهد الإسرائيلي المؤمن، نبياً أو سواه، يشهد على مثل شهادة

= منكم قولكم فخرجنا ونحن ثلاث: رسول الله ﷺ وأنا وابن سلام فأنزل الله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ. . .﴾ [فُصِّلَت: ٥٢].

أقول: قد أخرج نزول الآية بشأن ابن سلام. البخاري ومسلم والنسائي وابن المنذر وابن مردويه عن سعد بن أبي وقاص وجماعة آخرون عن آخرين.

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٣.

القرآن، وعلى مثل القرآن ونبي القرآن لإثبات وحي القرآن ونبيه، فـ ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾[١]: معرفة الرسول، كما يعرفون القرآن عرفانهم بالتوراة والإنجيل، وكما في كتاب اشعياء: «كِيْ بِلَعَجِي شافاه وَبِلاشُون أحسِرت يِدَبِّرْ إل هاعامْ هَذِّهْ» (اشعياء ٢٨: ١٠):

لأنه بلهجة لكناء بشفاه عجمية وبلسان غير لسانهم يكلم هذا الشعب[٢] فهذه شهادة على مثل القرآن وهو من العهد العتيق.

ومن ﴿مِّثْلِهِۦ﴾ المشهود عليه له، موسى بن عمران الذي ينص التوراة بمماثلته هذا الرسول ﷺ وكما يقول: «نابِىءْ آقيم لاهِم مِقِرِبْ إحيحِم كِموشِه..» «أقيم لهم من أقرباء أخيهم كموسى...» (سفر التثنية ١٨: ١٧)[٣].

ومن أفضل الحنان على مؤمني أهل الكتاب: شهود الرسالة المحمدية، قرنُ شهادتهم بشهادة الله كما هنا وكما: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾[٤] كعبد الله بن سلام[٥].

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ﴾ القرآن ونبيه ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ حال أنكم ﴿وَكَفَرْتُم بِهِۦ﴾ حال أنه ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾ شهادة وكتاباً ونبياً ﴿فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ فمن أخسر منكم وأظلم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٦.
(٢) في هذه البشارة نجد مواصفات القرآن ومنها أنه بلسان آخر غير عبراني.. راجع كتابنا (رسول الإسلام في الكتب السماوية) ص ١٠٨.
(٣) راجع كتابنا (رسول الإسلام).
(٤) سورة الرعد، الآية: ٤٣.
(٥) الدر المنثور ٦: ٣٩ - أخرج الترمذي وابن جرير وابن مردويه عن عبد الله بن سلام قال: نزلت فيّ آيات من كتاب الله، نزلت فيّ وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله.. ونزل فيّ ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرّعد: ٤٣].

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ (١١)﴾:

قولة فارغة لاهية أخرى من الكافرين، كأنهم سابقون في كل خير، فإذ سبقهم المؤمنون بالإيمان فليكن شراً وإفكاً قديماً يؤمن به المتأخرون المسبوقون طوال التاريخ الرسالي، ولأن هؤلاء السابقين! لم يهتدوا بهذا القرآن، وهم المهتدون إلى كل خير! فالمؤمنون هم الضالون الآفكون!: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾[١] ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[٢]!.

إن السابقين إلى الإيمان - وعلى طول الخط - هم الفقراء العادمون في الأكثر، الضائعون المظلومون تحت رحمة ووطأة الأقوياء الأغنياء الجبارين، والرسالات الإلهية لهم خير مأمن ومؤمّن، يجنحون إليها بغية الفرار عن حكم الظالمين، والقرار إلى حكم الله رب العالمين، وهذه مغمزة في نظر الكبراء المستكبرين أن ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾[٣]. ف «لو» لا «إن» تشير إلى مدى استبعادهم لكون القرآن خيراً لحد الاستحالة، ولحد يتحاشون أن يخاطبوهم بهذه القولة الهاوية، فاعتبروهم غيَّباً: ﴿مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ وهم حضور! ولأنهم غيَّب عن المثل العليا وهم حضور، وقولهم لهم يعني ما يرجع لهم بغير خطاب أن يخاطبوا أضرابهم بهذه القولة المضللة كيلا يفكروا في الإيمان أبداً.

وإنها الهوى والادعاءات الهباء، يتعاظم بها أهل الغنى والكبرياء،

(١) سورة الأنفال، الآية: ٥٩.
(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٤.
(٣) الدر المنثور: ٦ / ٤٠ - أخرج ابن المنذر عن عون بن أبي شداد قال: كانت لعمر بن الخطاب أمة أسلمت قبله يقال لها زنيرة فكان عمر يضربها على إسلامها وكان كفار قريش يقولون: لو كان خيراً ما سبقتنا إليه زنيرة فأنزل الله هذه الآية.

يجعلون من أنفسهم الخواء محوراً للحياة كلها، كأنهم هم ولا سواهم الأحياء المتقدمون السابقون في خيراتها، فيعتزون بالثقافات اللاهية الجوفاء، وبالأجداد والآباء، وبسائر ما إليها من اعتبارات فارغة غُثاء، فيغمضون ويلتهون عن الحق باختلاق المعاذير، وافتلاق المحاظير على الحق وأهله، كأن كل ما يهوون فهو الحق، وما لا يهوون فهو الباطل، أسماء فارغة يسمونها، متغافلين عن براهين الحق الناصعة، وأدلته الناصحة، فويل لهم مما يأفكون ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ كأن ليست فيه هدىً إذ لم يهتدوا به، كالأعمى الناكر لضوء الشمس لأنه لا يهتدي به.

﴿إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾!: مصروف عن وجه الحق، مختلق سابق: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا (٤) وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٥) قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (٦)﴾[(١)].

وليتهم نظروا إلى القرآن بعين البصيرة والاعتبار، أم ولا أقل من قِرانٍ له بسواه باختبار، أم إلى كتب قبله تشهد عليه كما هو شاهد لنفسه:

﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ (١٢)﴾:

أهذا إفك قديم؟ ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى﴾ ولماذا كتاب موسى وهو قبل القبل، لا كتاب عيسى وهو القبل؟ لأنه الأصل في التشريع[(٢)] ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾: لكتاب عيسى وهو الفرع: إماماً له وللمسيح، فضلاً عنهم وهم من

---

(١) سورة الفرقان، الآيات: ٤-٦.

(٢) وتضاهيه مقالة الجن: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾ [الأحقاف: ٣٠] أي القرآن لا «بعد عيسى» مما يؤكد أصالة التوراة قبل القرآن، وسوف نوافيكم به في آخر السورة.

أتباع موسى والمسيح فليتبعوه، وهو يحوي إشارات وبشارات بحق القرآن ونبيه!.

أهذا إفك قديم ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ﴾: يصدق كيانه كوحي تصديقاً بنفسه دون حاجة إلى سواه، ويصدق ما قبله من كتاب ﴿مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ وغيره من كتاب أوحي إلى من قبله من النبيين، المَصدقة له، الحاملة بشاراته.

إنه بيِّنة من ربه لنبيه، كما نبيُّه بينة من ربه حيث التصديق الذاتي والتصادق: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾(١).

هذا كتاب موسى إماماً لهم أمامهم يصدق القرآن في بشارات، وكما يصدقه في صيغة التعبير وصبغة الوحي لبشير نذير، فليس القرآن إفكاً قديماً مصروفاً عن وجه الحق، لا عن كتابات الوحي ولا سواه، فإن له كياناً يستقل عن سائر الكيان، مهيمناً على ما قبله من كتاب.

فأنى للآفكين القولة الفارغة الهراء إن القرآن إفك عن التوراة، صرف عن وجهه معنى وتعبيراً، فهو نسخة عربية عن التوراة فهو إمام القرآن(٢): ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾؟ ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا...﴾!.

---

(١) سورة هود، الآية: ١٧.

(٢) كما يتقوله الأستاذ حداد في هرطقات له سماها القرآن والكتاب ومما تقوّله:
«هنالك تصاريح من القرآن أن بينه وبين العهدين اتصال ونسب حيث: ١ - التوراة إمامه. ٢ - وهو في زبر الأولين. ٣ - وهو تفصيل وتعريب للكتاب المقدس. ٤ - وهو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وهم علماء أهل الكتاب. ٥ - ويجب أن يقتدي محمد في قرآنه بالكتاب وأهله. ٦ - وإذا شك فيه فليسأل أهل الكتاب ليعلموه.
ولو كان الحداد يفهم اللغة العربية ما سمح لنفسه أن يفتري هذه الهراءات على القرآن - راجع كتابنا (المقارنات ص ١٣٤).

إن هيمنة القرآن على ما قبله من كتاب، تدل على إمامته الشاملة على كل نبي وكل كتاب، فلا تعني إمامة التوراة في آيتيها إلّا لأتباع شريعة التوراة، إذ تحملهم على تصديق الكتاب المهيمن الإمام، وتحمِّلهم مسؤولية حمل هذه الأمانة الكبرى المسرودة في آيات البشارات: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ...﴾[1] هيمنة على سائر كتب الله، كما الله مهيمن على سائر الخلق: ﴿ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ...﴾[2].

﴿... لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ هذا كتاب مصدق حال كونه لساناً عربياً: واضحاً بيناً بياناً لا غموض فيه رغم ما فيه من رموز «لساناً» لا «لغةً» فـ «عربياً» يعني واضحاً لا تعقيد فيه، وإذ كان بلغة عربية، فهو عربي بعربية.

﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ عرباً أم سواهم ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ كذلك، فالتبشير والإنذار اللذان يحملهما القرآن عربيّان لكل عربي وسواه، لا يكلفه إلا ترجمة أو تفسيراً: لغوياً أم سواه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾:

.. قالوا ربنا الله - لا سواه - ثم تحولت مقالتهم هذه إلى واقع الاستقامة عليها، وإنه لجمع جميل بين توحيد الربوبية وهو خلاصة العلم، والاستقامة فيه وفي مخلفاته العقائدية والعملية وهو منتهى العمل: وإنها استقامة في إقامة الوجه للدين حنيفاً: وهو دين الفطرة القيم: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٨.
(٢) سورة الحشر، الآية: ٢٣.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[(١)] ودين الطاعة لله المسنونة في شرعة الله. ومن ثم الاستقامة في كل ما تتطلبه ﴿رَبُّنَا اللَّهُ﴾ في كافة مجالات الحياة.

هؤلاء ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ عما تورطوا في مخاوف لوجه الله إذ لا يخافون إلا الله، ولا هم يحزنون على ما فاتهم من شيء فإن أجرهم على الله، يحتسبون عناءهم عند الله، وهكذا يبشرهم ملائكة الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾[(٢)] وما ألذّها بشارة من الله فبشارة من ملائكة الله!.

فالخوف عما هم فيه وما يستقبلهم، والحزن على ما فاتهم فيما مضى: هما عنهم منفيان، في الحياة الدنيا وفي الآخرة وهي أحرى، إذ تكشف فيها الغطاء.

هؤلاء نفوسهم مطمئنة إلى الله وليست إلى الحياة الدنيا المتزعزعة المُزَعزِعة بأهلها الراكنين إليها، فلا تضطرب بهم في الهوّاة، اضطراب الأرشية في الطوى البعيدة كأهل الدنيا، المضطربين فيها، المتأرجحين بها.

إن أهل الله لا يحسبون في حياتهم حساباً لأحد سوى الله، فهو هو الميزان الوحيد لهم في كافة الموازين والحسابات.

إنه ليست الاستقامة في الله بعد قولهم ﴿رَبُّنَا اللَّهُ﴾ دونما فصل أو شرط، فهنا الإيمان الراسخ في الوسط، تثبت فيه هذه المقالة المؤمنة وترسخ، ومن ثم الاستقامة في نفس الإيمان، ثم تتحول إلى الاستقامة في الله بكافة زوايا الحياة، كما وتوحي لهذه الوسائط «ثم» فإنها للتراخي.

---

(١) سورة الروم، الآية: ٣٠.

(٢) سورة فصلت، الآيات: ٣٠-٣٢.

﴿ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾ تطلّبوا القوام على ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ حتى وكأنهم أصبحوا بذواتهم وصفاتهم وأفعالهم وحالاتهم ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ فـ«ثم» بعد قولة الحق هذه، تضرب في أعماق الحياة كل الحياة، غوراً بعيداً وسفراً غريباً يحمل معه فيه ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ يجعله زاده في ووعثاء السفر، فليست الاستقامة أمراً واحداً تتفرع على قولتها كدلالة اللفظ على معناه، وإنما درجاتها المتتابعة التي تحصل تلو بعض، وينتج بعضها البعض إعداد البعض للبعض، فاستعداد الآخر لما يتلوه، إعدادات واستعدادات في محاولات دائبة قلباً وقالباً، ظاهراً وباطناً، فرداً ومجتمعاً، وفي كافة معارك الحياة المتنازعة، فلا يتغير لونه عن ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ ولا كونه عن ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ وإنما يغير غيره إلى ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ فليست هي إذاً لفظة تلفظها الشفاه، ولا عقيدة سلبية بعيدة عن واقعيات الحياة وبيناتها.

ثم الزاد الوحيد في الاستقامة على الطريقة المثلى ليستقوا ماءً غدَقاً، إنما هو ذكر الله: القرآن الكريم: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾[1] استقامة إلى الله: ﴿أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ...﴾[2] لاستقامة الحياة مع الله، وفي الدعوة إليه: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ﴾[3].

فالقائلون ربنا الله، المؤمنون بالله، المستقيمون لله وإلى الله، هم الصفوة المختارة بين عباد الله، كالجبال الراسخة: لا تحركهم العاصفة، ولا تزيلهم القاصفة، مهما كانوا في ذلك درجات، كما المتزعزعون دركات، الذين لو شهدوا بـ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ فلا تتعدى شفاهَهم إلى عقولهم، أو منها إلى قلوبهم، أو منها إلى أعمالهم، فلا ترى آثار هذه القولة الكريمة في حياتهم،

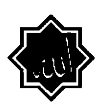
---

(١) سورة الأنبياء، الآيتان: ٢٧، ٢٨.
(٢) سورة فصلت، الآية: ٦.
(٣) سورة الشورى، الآية: ١٥.

فشفاههم - إذاً - جوفاء، وقلوبهم مقلوبة خاوية هباء، فقولتهم منافقة خواء، والله تعالى منهم براء.

فالقائل ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ دون اعتقاد، منافقٌ في الله، ثم قائلها دون استقامة رغمَ الاعتقاد أخف نفاقاً، فقد بلغ أدنى درجات الإيمان، ثم قائلها مع استقامة في أية مرحلة ومدرجة أكمل إيماناً حسب الدرجات، حتى يستوفي درجات الاستقامة كل الدرجات، ويتعالى عن دركات الفشل واللااستقامة كل الدركات، فهناك العصمة غير الكاملة حتى يعصم الله، وهنالك العصمة الكاملة لو عصم الله، وهي أيضاً درجات، فالطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق.

فالقائلون ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ المستقيمون في الله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ لا بما يقولون، فالقائلون كثيرون والعاملون قليلون، فإنما القائلون العاملون أعمالاً في قلوبهم ثم إعمالاً لها في قوالبهم، أعمالاً قلبية وقالبية بمراتبهما: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾[1] ﴿. . . وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[2].



(١) سورة الأنعام، الآية: ١٣٢.
(٢) سورة الأحقاف، الآية: ١٩.

﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ إِحۡسَٰنًاۖ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ كُرۡهٗا وَوَضَعَتۡهُ كُرۡهٗاۖ وَحَمۡلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهۡرًاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ إِنِّي تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي وَهُمَا يَسۡتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيۡلَكَ ءَامِنۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۖ وَلِيُوَفِّيَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَفۡسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾

هناك من أحسن الأعمال، التي يكفَّر بها عن السيئات، هو الإحسان بالوالدين: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ...﴾ وهنا من أسوئها التي تحبط شطراً من الحسنات هو الإساءة إليهما: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٍ﴾ وبينهما متوسطات.

﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ إِحۡسَٰنًاۖ...﴾: وصية عظيمة من الله بالوالدين،

فهناك الموصي هو الله، والموصى إليه هو الإنسان، والموصى له: الوالدان اللذان هما مَجريا الخلق والتربية، والموصى به: الإحسان بهما، فيا لها من وصية عظيمة من الله العظيم، لالتقاء آصرة الإيمان بأسرة النسب في آصرة الوالدين، تبنياً للحياة الجماعية من منطلقها الأوّل، وكأنها من أصدق مصاديق: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ وبعد تكملة الإيمان عقائدياً وعملياً بالله، ولأنهما أجرى مجاري الربوبية أن خلق الإنسان بهما، فأحرى بهما أحرى مراتب الإحسان، ودونما شرط أياً كان، وإنما كونهما والدين، وكما الإنسان لا يصحب شرطاً في دين الفطرة وشريعتها إلا أنه إنسان: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾.

ثم الوصية لا تعني فقط الأمر الإيجاب، أو فرض الكتاب، فلم يقل أمرنا ولا كتبنا، وإنما «وصينا» تدليلاً على المدى البعيد العال من الله المتعال في هذا الأمر، إذ ينبثق من أعماق فطرة الإنسان، ثم ينطلق موكّدة منضبطة مبرمة من خالق الإنسان، تحكيماً لدين الفطرة فإنها أمر تصاحبه الموعظة المؤكدة، ومن ثم يضرب إلى أعماق المجتمع متبنياً له كأفضل وأعلى ما يكون في بناء المجتمع السليم، لإراحة الإنسان، وإزاحة المشاكل التي تحول بينه وبين رقيّه كإنسان.

﴿. . . ٱلْإِنسَٰنَ﴾ إنما الإنسان والإنسان فقط، رغم شمول التكليف له وللجانّ وأضرابهما من المكلفين، لأن الإنسان هو الأصل في ذلك، ومن ثم يشمل من سواه، وإنه فعلان من الأُنس.

فأُنسه وإنسانيته يقتضيان الإحسان بالوالدين اللذين يبذلان من عصارة حياتهما له ليحيى آمناً مرتاحاً، ما لا يبذله أيٌّ كان ممن تحسن إليه وتضحي له.

إنها وصية للإنسان قائمة على أساس فطرته الإنسانية، دون حاجة إلى غيرها من صفات ذاتيات أو مكتسبات، كما وأن صفة الوالدية الحنونة

الرحيمة المطلقة دونما بغية جزاء أو شكور، هذه الصفة تزيد تأكيداً في توفير حنان الأولاد كأقل جزاء لهم وشكور، حناناً مطلقاً دون شرط إلا الوالدية.

﴿بِوَٰلِدَيۡهِ إِحۡسَٰنًاۖ﴾ لا -: إلى والديه، حيث الإحسان بهما يوحي بكمال الحنان والقرب في الإحسان، كما أحسن الله بيوسف عليه السلام: ﴿وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ﴾[1]: إحساناً مصاحباً ملاصقاً ليوسف، فضلاً من الله ورحمة، فالإحسان بالوالدين، إحسان مصاحب ملاصق دون أي بعد ولا امتنان، ولأنه إحسان بسبب الوالدية، وأما إحسان الله بالمحسنين فملاصق مصاحب كأقرب وأحسن ما يكون، وإن كان بامتنان بسبب الربوبية لا العبودية اللهم إلا فضلاً.

وأما الإحسان «إلي» فقد يوحي ببُعد في الإحسان، وبين المحسن والمحسَن إليه، بُعدَ الإحسان: كأن يكون للامتحان الامتهان كما إلى قارون: ﴿وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ﴾[2] أم بعداً في الإحسان، كالذي يصاحبه الامتنان من محسن إلى من يستحق الإحسان، فهو إحسان سيىء لمكان الامتنان: ﴿لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾[3].

فالإحسان بالوالدين يعني أحسن الإحسان وأقربه «وبالوالدين»: بسبب الوالدية، وإحساناً ملاصقاً مصاحباً لهما دون فصل أو فضل[4] بل وعلى الأولاد أن يخفضوا لهما جناح الذل في الإحسان وإن أساءا: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا

---

(١) سورة يوسف، الآية: ١٠٠.
(٢) سورة القصص، الآية: ٧٧.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٦٤.
(٤) هذا إذا كانت الباء متعلقة بـ «إحساناً» فهي إذاً للمصاحبة الملاصقة، أو السببية والجمع هنا أجمل، وأما إذا تعلقت بالوصية فلا، اللهم إلا أن «قضى» . . في غيرها يبعده، فالقضاء إما له أو عليه وليست به، فالباء في آيات الوصية تتحمل كلا التعلقين: وصية وإحساناً: وصية بوالديه وإحساناً بوالديه، بسبب الوالدية مصاحباً ملاصقاً.

فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾[١]: فأحرى لهما الإحسان بهما إن أحسنا!.

﴿بِوَٰلِدَيْهِ﴾ المتشاركين في إيلاده، مهما تفاضلا فيه أم في سواه، فللفاضل فضله بمزيد الإحسان:

﴿إِحْسَٰنًا﴾ كما هنا وفي غيرها و«حسناً» كما في ثالثة: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ...﴾[٢] والحسن هو الفعل الحسن المبالغ في الإحسان لحد كأنه الحسن ذاته، تدليلاً على مدى الإحسان الواجب بهما، أنه لأعلى المستويات قدر المستطاع، دونما قيد أو شرط، مما يوحي بأن «إحساناً» أيضاً يعنيه، بما فيه تنوين التنكير، لا تحقيراً، وإنما تعظيماً وتكثيراً لحد لا يعرف مداه، فإنه إحسان لا يقطعه قاطع، حتى ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾[٣] فلا يبدل الإحسان هنا بالإساءة، وإنما ترك الطاعة في الإشراك بالله، مع الحفاظ على المعروف من صحبتهما: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ...﴾ ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ...﴾[٤].

فلقد أريد من الحسن والإحسان هنا وهناك أحسن الإحسان، وكما أنهما بذلوا لك من الإحسان أحسنه، وحينما لم تك تملك لنفسك شيئاً!.

نرى الوصية بالإحسان تكرر في القرآن بحق الوالدين دون الأولاد - اللهم إلا نادرة بشأن الميراث - لأن الفطرة الوالدية وحدها تتكفل برعايتهما

(١) سورة الإسراء، الآيتان: ٢٣، ٢٤.
(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٨.
(٣) سورة العنكبوت، الآية: ٨.
(٤) سورة لقمان، الآية: ١٥.

للأولاد، رعاية ذاتية لا تحتاج إلى وصية وأثارة، بل وقد تزيد على المسموح والواجب إذ تصل إلى حد التضحية في سبيل الحفاظ على حياة الأولاد أو صالحهم، دون أي منٍّ أو رغبة في جزاء أو شكور، اللهم إلا شذراً نذراً، دون الأولاد، فقليل هؤلاء الناشئون الذين يتحننون للوالدين، وإنما يتحيّنون الفرص لاستغلالهما في سبيل تبني حياتهم المستقبلة، فهم وهم فقط بحاجة إلى إيقاظ فطرة الحنان والطاعة والإحسان بالوالدين، بكل تبشير وإنذار، وبصورة مطلقة لا يحجزها أي حاجز مادي ولا نفسي، اللهم إلّا أن يحملاه للإشراك بالله، فترك الطاعة فيه باحترام دونما اخترام مع استمرارية المصاحبة الطيبة في دنياهما، مهما خسرا أخراهما، على أن الإحسان بهما لا يختص بالنواحي الظاهرية المادية، فأحرى لهما النواحي النفسية والروحية، فمحاولة الأولاد - بوسائط أو دون وسائط - لإهداء الوالدين إن كانا ضالين، إنها أحرى ما يكون من الإحسان بهما، أن تضمن إسعادهما في الحياتين.

ثم وحق الولد على الوالدين أن يعلما أنه منهما ومضاف إليهما في عاجل الدنيا وآجله بخيره وشره، فليعملا في أمره عمل من يعلم أنه مصاب على الإحسان إليه معاقب على الإساءة إليه.

ثم الوالدة أحق من الوالد في واجب الإحسان بها لأنها تتحمل وتعمل أكثر من الوالد في الأكثر، يوحي بذلك ذكر متاعبها فقط بعد الوصية بحقهما جميعاً كما هنا: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ وفي غيرها: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾[1].

﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا...﴾ عرفنا كره الوضع أنه شاق بأي

(١) سورة لقمان، الآية: ١٤.

وضع، فما هو كره الحمل؟ هل هو حمله بعد الثقل؟ أم وحمله منذ اللقاح وإلى الثقل؟ أقول: إن بداية الحمل للباكر كُرهٌ إذ تُفتضُّ وتُجرح، رغم اللذة التي معها ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾[1] ثم كرهٌ آخر منذ الحمل وحتى الوضع هو حمله وامتصاص الحمل في كافة أدواره من رمق الأم، غذاءً ودماءً أم ماذا.

فعلى ضوء تقدم علم الأجنَّة يكشف لنا في عملية الحمل طرف جسيم ضخم نبيل في صورة حسية مؤثرة:

«... إن البويضة منذ تلتقي لقاحاً بالخلية المنوية تسعى للالتصاق بجدار الرحم، مزودة بخاصية أكّالة تمزِّق جدار الرحم الذي تلتصق به وتأكله، فيتوارد دم الأم إلى موضعها حيث تسبح هذه البويضة الملقحة دائماً في بركة من دم الأم الغني بكل ما في جسمها من عصارات وخلاصات، وتمتصه لتحيا به وتنمو، وهي كأكلة دائبة الأكل لجدار الرحم، دائمة الامتصاص لمادة الحياة، فالأم تأكل وتشرب وتهضم لتصبَّ هذا كله دماً نقياً غنياً لهذه البويضة الأكالة، وفي فترة تكوين عظام الجنين يشتد امتصاصه للجير من دم الأم، فهي تفتقر إلى جير بعد جير، حيث تعطي محلول عظامها في الدم ليقوم به هذا الهيكل الصغير، وهذا قليل من حملها الكثير.

وقد يوحي تنوين التنكير هنا لـ «كرهاً» بنكارة الحمل في زاويتيه هاتين، وعله المعني من: ﴿وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾[2] هناك: وهن الثقل على ذلك الوهن، بعد الذي ذاقته حين الحمل، ولأنه مجبور باللذة لم يحسب هنا له حساب فلم يثلث الوهن، وإنما ﴿وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾: «كرهاً»!

﴿وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾: كرهاً تكره فيه الأم حتى نفسها، دون أن تكره ثمرتها، رغم أنها تذوي وتموت وتتمزق وتذوب، ولكنها أمٌ، حنونة عطوفة

---

(١) سورة الشرح، الآية: ٥.

(٢) سورة لقمان، الآية: ١٤.

لحملها، لحد قد ترضى أن تموت والحمل لا يموت، أو تتأذى هي والحمل سليم.

فيا لهذه الوالدة التي تحمل حملها كرهاً: ﴿وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ وتضعه كرهاً، مثمرة حملها في مثلث الوهن، ومربِّعة لوهنها في رضاع الحمل، أن تمتص ثمرة قواتها، وحصيلة طاقاتها بعد الوضع، وكما كان قبل الوضع، فهل له أن يجازيها أقل جزاء ولو بأكثر الإحسان، كلا ثم كلا.

ولقد صدق الرسول ﷺ فيما يقول: «لا ولا بزفرة واحدة! وقد جاءه رجل كان في الطواف حاملاً أمه يطوف بها فسأله ﷺ هل أديت حقها؟»[١].

﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾:

إنها توحي بأقل الحمل إنه: (ستة أشهر) حيث الفصال - وهو انفصاله عن الرضاع - في غيرها بعامين: ﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾: وحولين كاملين: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾[٢]: فلا يبقى من الثلاثين إلا ستة أشهر، فلو وضعت المرأة حملها عندها لم يكن بذلك البعيد، فضلاً عن أن تتهم فترجم كما فعله الخليفة عثمان[٣] ولكن الخليفة عمر سأل أهله فانتبه

---

(١) رواه الحافظ أبو بكر البزاز بإسناده عن بريدة عن أبيه.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٣٣.

(٣) الدر المنثور ٦: ٤٠ - أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن بعجة بن عبد الله الجهني قال: تزوج رجل من امرأة من جهينة فولدت له تماماً لستة أشهر فانطلق زوجها إلى عثمان بن عفان فأمر برجمها فبلغ ذلك علياً عليه السلام فأتاه فقال: ما تصنع؟ قال: ولدت تماماً لستة أشهر وهل يكون ذلك؟ قال علي عليه السلام: أما سمعت الله تعالى يقول: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥]؟ وقال: ﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البَقَرَة: ٢٣٣] فكم تجده بقي إلا ستة أشهر؟ فقال عثمان: ما فطنت لهذا عليّ بالمرأة فوجدوها قد فرغ منها وكان من قولها لأختها: يا أخية لا تحزني فوالله ما كشف فرجي أحد قط غيره، قال: فشب الغلام بعد فاعترف الرجل به وكان أشبه الناس به، قال: فرأيت الرجل بعد يتساقط عضواً عضواً على فراشه.
هذا! ولقد نسي الخليفة هذا الحكم حينما رفعت امرأة أخرى إليه ولدت لستة أشهر، فقال=

فلم يرجم[1] تحقيقاً لأمر الله: ﴿فَسْئَلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[2].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾:

إن الأربعين هنا هو أبلغ الأشدِّ، كما الأشد جمع الشَّد: هو الاستحكام في طاقات نفسية وبدنية تجعل الإنسان مستقلاً في حياته الفردية والجماعية، فللإنسان أدوار أربعة: الطفولة وبلوغ الشد والأشد والشيخوخة: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخًا﴾[3] فالطفل هو الطفيلي المتطفل في حياته، المتكفَّل بها في شؤونها من قبل الوالدين أو غيرهما، حيث لا يستوي في حياته دون كافل، ثم إذا يبلغ أشده -: لا فقط شده - يستقل، فلا يعني هنا شدَّ العضلات والبنية الجسدانية فحسب وإنما ﴿أَشُدَّهُۥ﴾ وأقلها مثلث: العقل، والحكمة والجسم بحيث يستطيع الإصلاح في ماله: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾[4]: وفي حاله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾[5] الحال الجامعة - لأقل تقدير - بين العقل والحكمة ثم في الأشد المزيد.

= عثمان: إنها قد رفعت الي امرأة ما أراها إلّا جاءت بشر فقال ابن عباس: إذا كملت الرضاعة كان الحمل ستة أشهر وقرأ: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥] فدرأ عثمان عنها. أخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد عن أبي عبيدة مولى عبد الرحمن بن عوف (٦: ٤٠).

(١) الدر المنثور ٦: ٤٠ - أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر من طريق قتادة عن أبي حرب بن أبي الأسود الدؤلي قال: رفع إلى عمر امرأة ولدت لستة أشهر فسأل عنها أصحاب النبي ﷺ فقال علي عليه السلام: لا رجم عليها، ألا ترى أنه يقول: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ وقال: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤] وكان الحمل هنا ستة أشهر فتركها عمر، قال: ثم بلغنا أنها ولدت آخر لستة أشهر.

(٢) سورة النحل، الآية: ٤٣.

(٣) سورة غافر، الآية: ٦٧.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٥٢.

(٥) سورة يوسف، الآية: ٢٢.

وإذا استمرت الأشد في التعامل والتكامل، تصل إلى الأبلغ في كمال السن: ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ كأصدق مصاديق الأشد، ثم بين الأشدين بداية ونهايةً متوسطات، وليس أولها بداية التكليف، فإن بلوغ العقل والجسم، - بل العقل فقط - كاف في جري قلم التكليف، اللهم في الجسم الذي لا يتحمل حمل بعض التكاليف البدنية، كالصوم أم ماذا، فلا يجري قبل السن المحدد للتكليف، ولكنما العقل، والعقل فقط، إذا بلغ شدّه، فصاحبه مشدود بحبل التكليف، ثم إذا أضيف إليه شد الرشد والحكمة، فلا يكلف أحد في حفظ ماله وحاله، وإنما هو القائم فيها: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾[1] فبلوغ النكاح هو بداية التكليف، وليس يكفي لتسليم أمواله إلا بعد إيناس رشدٍ، فبلوغ الأشد يتراوح بين بلوغ شد التكليف أو شدّيه[2] وبين الأربعين، أن يحصل له ثالث هو شد الرشد والحكمة، ثم تتعامل فتتكامل أشده الثلاثة أو ما زاد، ولحد البلوغ الكامل: الأربعين، فالأربعون هي - عادة - غاية الرشد، إذ تتكامل فيها كافة القوى، وفي هذه السن تتجه الفطرة السليمة إلى عمق الحياة، الحاضرة والمستقبلة، ولكي تستصلحها بما يصلحها.

هذا هو السير العادي في أدوار السن، وليس لزاماً دون استثناء، فقد نُبئ يحيى عند الصبا: ﴿وَءَاتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾[3] وكان من أكمل الوحي، وكما آمن علي عليه السلام عند الثانية عشرة من عمره، عند بزوغ الوحي على الرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم فكان أكمل الإيمان[4] وإنما آية الأربعين تعني السيرة

(١) سورة النساء، الآية: ٦.
(٢) شد العقل، أو شدي العقل والجسم.
(٣) سورة مريم، الآية: ١٢.
(٤) أصول الكافي بإسناده عن علي بن أسباط قال رأيت أبا جعفر عليه السلام وقد خرج عليّ فأخذت أنظر إليه وجعلت أنظر إلى رأسه ورجليه لأصف قامته لأصحابنا بمصر فبينا أنا كذلك حتى=

الأغلبية، دون العموم[١]، ودون شخص أو أشخاص خصوص، ثم إنها توحي بمدى حاجة الأولاد إلى كفالة الوالدين، وإلى حد الأربعين أيضاً، فضلاً عما قبله وقبله ومنذ الولادة فالطفولة.. فهل للأولاد أن يجازوا الوالدين ولو أقل جزاء؟ اللهم لا! إلا أن يستمدوا في ذلك برب العالمين!:

﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ...﴾:

﴿...أَوْزِعْنِيٓ﴾: ألهمني، وليس فقط إلهام الإعلام والإفهام، فكثيرون هؤلاء الملهمون علماً الملهون عملاً، والقصد هنا ﴿أَنْ أَشْكُرَ...﴾ لا أن أفكر، وإنما هو إلهام عملي، أو إفهام يتبعه العمل: دعوة صارمة تدفع للعمل: ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ...﴾.

نعمتان هما من الله كسائر النعم: ١ - ﴿ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ أن تربّيت منذ كنت جنيناً ولأبلغ الأشد: «الأربعين». ٢ - ﴿وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾: أن ربياني صغيراً وكفلاني كبيراً: أن أشكرك في نعمتك علي بأداء واجب طاعتك وعبادتك، وأشكرك في التي أنعمت على والدي أن أقوم قومة حسنة في الإحسان بهما، فإنه أيضاً من عبادتك، فـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[٢].

= قعد فقال: يا علي إن الله احتج في الإمامة بمثل ما احتج به في النبوة فقال: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريَم: ١٢] ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ [الأحقاف: ١٥] فقد يجوز أن يؤتى الحكمة وهو صبي ويجوز أن يؤتى الحكمة وهو ابن أربعين سنة.

(١) الخصال للصدوق عن أبي بصير عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: إذا بلغ العبد ثلاثاً وثلاثين سنة فقد بلغ أشده وإذا بلغ أربعين سنة فقد بلغ منتهاه فإذا طعن في واحد وأربعين فهو في النقصان وينبغي لصاحب الخمسين أن يكون كمن كان في النزع.

وفي التهذيب بإسناده عن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سأله أبي وأنا حاضر عن قول الله عز وجل: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ قال: الاحتلام.

أقول: يبعده أن ليس في الاحتلام إلا شد واحد أو شدين إلا نادراً، وأن قوله: وبلغ أربعين سنة بعد ﴿أَشُدَّهُۥ﴾ يوحي بأن سن الأشد قبيل الأربعين فيناسب الرواية الأولى.

(٢) سورة الفاتحة، الآية: ٥.

﴿أَنْ أَشْكُرَ...﴾: قولياً وواقعياً: علمياً إيمانياً ومن ثم عملياً، شكراً في هذا المثلث الميمون المنتهي إلى نتاج رأس الزاوية: العمل الصالح المرضي:

﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾:

كأنه الشكر فقط والأولان يهيئان له فيتقدمانه: أقول شكراً وأؤمن شكراً لأعمل شكراً: ﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًاۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾[1]، فالعمل الصالح لجناب الربوبية وساحته، المرضي عند حضرته، هو الشكر لنعمته حقاً، دون المقاولات والمحاولات التي لا تعدو الشفاه والقلوب إلى الواقع.

﴿صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ شكراً لنعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي، صالحاً يضم إلى شكر الله شكر الوالدين شكراً لله دون سواه.

﴿وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ﴾:

أن يكونوا لي كما كنت لوالدي إضافة إلى سائر الصلاح، كجزاء متتابع لكل ولد بما فعل من الإحسان بوالديه، أن يحسن به وُلده كما أحسن هو بوالديه.. أصلح لي في ذريتي كما أصلحت لوالدي فيّ، إصلاحاً عدلاً متتابعاً جماعياً يتبنى إصلاح المجتمع على قواعده الأصيلة «الوالدان والأولاد».

وإنما فِي ذُرِّيَّتِي لا ذُرِّيَّتِي ككل، حيث الإصلاح (في) يعني البعض وهو الممكن المعقول، وأما الكل فلا، كيف وهو يشمل كافة الأنسال الناسلة منه بينه وبين القيامة وهذا مما لا يكون، ومن أدب الدعاء رعاية الإمكان عقلياً وواقعياً، فلا نجد أحداً من النبيين يدعو: ﴿وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ﴾ إذ الظالمون لا يأهلون الصلاح، وكما عن إبراهيم ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ

(١) سورة سبأ، الآية: ١٣.

عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[١]! ولا يصلح الله تعالى إلا من يستصلح، دون فوضى وبلا شروط.

وهذه سنة إلهية أن يجازى الأولاد بما فعلوا بالوالدين وبالعكس في الأولى قبل الأخرى، إن خيراً فخيراً وإن شراً فشراً: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا﴾[٢].

ولماذا هذه الطائلة في الدعاء، الشاملة له ولأبويه وذريته؟ إصلاحاً لهم جميعاً، بما يوزعه الله أن يعمل صالحاً يرضاه؟:

لأنه تاب وأسلم:

﴿إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾:

توبة إلى الله ثم إسلام لله، فلا إسلام قبل التوبة، كما لا استجابة لدعاء قبل الإسلام والتوبة، وترى أنه الإسلام القولي: أن يشهد الشهادتين؟ وهو أدنى الإسلام الذي لا يضره عدم التوبة بل ولا الكفر في الباطن كما المنافقون بهذا المعنى مسلمون!.

كلّا: إنه إسلام الوجه لله قلباً وقالباً: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾[٣]، وكل درجة منه درجة بعد الإيمان، بل هو ناتج عن الإيمان، فما لم يكن إيمان فلا إسلام! وهذا الإسلام هو الإيمان والعمل الصالح للإيمان بعد التوبة: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾[٤].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٤.
(٢) سورة النساء، الآية: ٩.
(٣) سورة النساء، الآية: ١٢٥.
(٤) سورة مريم، الآية: ٦٠.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ١٦﴾:

أولئك الأكارم، التائبون نَصوحاً، المسلمون حقاً، الصالحون أعمالاً، الشاكرون لله، المحسنون بالوالدين، أولئك الذين يتقبل الله عنهم أحسن ما عملوا من هذا وذاك، ويتجاوز عن سيئاتهم: المعاصي الصغيرة: تركاً لصغائر الواجبات، وفعلاً لصغائر المحرمات، فإنها كلها سيئات، ويتجاوز عنهم سيئاتهم كل سيئاتهم، وقد يبدل سيئاتهم حسنات إذا أحسنوا التوبة والإسلام والعمل الصالح: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٍۗ﴾[1].

نتجاوز.. في أصحاب الجنة، وهم درجات، فالتجاوز أيضاً درجات ولحد تبديل السيئات حسنات:

﴿وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ في آيات أخرى وهي تترى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾[2]. ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا﴾[3] ففعلُ أحسن الحسنات كما هناك، وترك أسوأ السيئات كما هنا، هما من أشفع الشفعاء عند الله لتكفير سائر السيئات: إيجابية في فعلها، وسلبية في ترك صغائر الواجبات فإنه من السيئات.

ثم يقابل هؤلاء الصالحين بجماعة طالحين عاشوا حياتهم كفراً بالله وكفراناً بالوالدين، فحق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم:

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٧٠.
(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٧.
(٣) سورة النساء، الآية: ٣١.

﴿وَالَّذِى قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾﴾:

.. الإنسان الذي سامح عن إنسانيته، أن عزب ضميره وغرب عقله وهربت عاطفته، وحتى بالنسبة لوالديه المؤمنين اللذين يحذرانه الوعد الحق! هذا اللاإنسان - إذ عبر عنه بـ«الذي» لا الإنسان -:

﴿... قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ...﴾: كلمة تبرم إظهاراً للتسخُّط والتوجع، لا لشيء إلا أنهما وعداه - بما وعد الله -: الخروج من قبره يوم الخروج، تحذيراً له عن الكفر والفسوق، حناناً عليه لما بعد الموت، كما يحنّان له قبل الموت.

﴿قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ...﴾ تزجُّراً منهما لمّا وعداً، وزجراً لهما عمّا وعدا، مقابلة الحسن بالسوء! رغم أن أفّه محرم لهما وحتى إذا كبرا وساءت أخلاقهما: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾[1] حتى وإذا كفرا وأمراه بالكفر: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى الدُّنْيَا مَعْرُوفًا...﴾[2]!

فكيف إذا حسنت أخلاقهما وأحسنا إليك في الأولى والأخرى: أن وعداك الخروج للحياة الأخرى، ليقفوك على حد العبودية في الأولى، فهل لك أن تجابه هكذا إحسان من والديك بأسوأ السوء؟: بتأفف جارح وقح: ﴿أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ﴾؟ ولا ريبة في وعد الخروج إلا استغرابك: ﴿وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِى﴾: أن لو كان الخروج حقاً صادقاً لخرج من القرون قبلي ولو واحد، ولم يخرج ولا واحد، فالخروج إذاً أسطورة!.

(١) سورة الإسراء، الآيتان: ٢٣، ٢٤.
(٢) سورة لقمان، الآية: ١٥.

وما أحمق هذا المسكين أن يستدل بعدم الخروج إلى الحياة الدنيا على عدمه في الحياة الأخرى، وليس الخروج الموعود إلا للحياة الحساب الجزاء، لا الحياة التكليف البلاء، ورغم أن جماعات من القرون الأولى خرجوا إليها بإذن الله تدليلاً على إمكانية الخروج بعد الموت.

ثم الخروج من الأجداث في الأولى ليس لعبة فوضى أن يبعث جيل مضى في عهد جيل أتى، إنما هو الحساب الجماعي الختامي للرحلة كلها ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾.

وإذ لا يعقل ويفهم هذا الولد الغبي لغة الإنسان ولا حجة الرحمن، فماذا يصنع الوالدان بهذا الحيوان إلا:

﴿وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾.

إن وعد الخروج - حق: ثابت بكافة صنوف البراهين، عقلية وعدلية وحسية أم ماذا، ولأنه وعد الله، فيرجع عليهما ثانياً بكلمة جوفاء وقلب خواء: ﴿فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾. ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[١]: خرافاتهم وأوهامهم المختلقة المسطرة التي تتنقل للتفكه والمسخرة!

فيا عجباه من هذا الحمق العميق أن يعكس أمر الحق والباطل هكذا، فيدلج الحق في الأساطير، ويدلج الباطل في الحقائق؟ فهل إن الحياة الحساب العدل أسطورة مع ما تملك من براهين، والفوت اللاحساب الفوضى ليس بها وهو لا يملك أية براهين؟.

ثم: «الذي» هذا ليس يعني شخصاً بعينه كما يدعى[٢]، بل هو كل من

---

(١) سورة النمل، الآية: ٦٨.

(٢) الدر المنثور ٦ : ٤١ - أخرج البخاري عن يوسف بن ماهك وعبد بن حميد والنسائي وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه عن محمد بن زياد - هما عن مروان وأخرج ابن جرير عن ابن عباس وابن أبي حاتم عن السدي - كلهم أن الآية نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنه .
=

يعق والديه كافراً بالله واليوم الآخر هكذا، وهم جماعات وليس واحداً وكما يقول الله:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ١٨﴾:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ من حماقى الطغيان ﴿ٱلَّذِينَ حَقَّ﴾: ثبت ﴿عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾: كلمة العذاب ﴿فِيٓ أُمَمٖ﴾: جماعات وقرون ﴿قَدۡ خَلَتۡ﴾: مضت وغبرت ﴿مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ﴾ فهم وإياهم شرع سواء إذ كانوا معاً في شرعة سوداء ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾ دينهم ودنياهم، أولاهم وأخراهم، وأية خسارة أخسر من خسارة الأمن والإيمان دنياً، ثم خسارة النعيم والرضوان عقبى؟!.

ثم وليس أولاء وهؤلاء على شرع سواء في الجزاء ثواباً وعقاباً - بل:

﴿وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۖ وَلِيُوَفِّيَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ١٩﴾:

﴿وَلِكُلّٖ﴾ من الفريقين: صالحين وطالحين ﴿دَرَجَٰتٞ﴾: للمؤمنين حسب

= أقول: لكن الآية تأبى عن ذلك لمكان الجمع في تاليتها: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ...﴾ وأن عبد الرحمن هذا أسلم فكيف يحق عليه القول في أمم في النار، وكما أخرج ابن أبي حاتم عن السدي «ثم أسلم فحسن إسلامه» وإليكم بعض الأثر عن الحجاج في ذلك:
اخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن عبد الله قال: إني لفي المسجد حين خطب مروان فقال: إن الله قد أرى أمير المؤمنين «معاوية» في يزيد رأياً حسناً وأن يستخلفه فقد استخلف أبو بكر وعمر، فقال عبد الرحمن بن أبي بكر: أهرقلية! ن أبا بكر والله ما جعلها في أحد من ولده ولا أحد من أهل بيته ولا جعلها معاوية إلا رحمة وكرامة لولده، فقال مروان: ألست الذي قال لوالديه أف لكما؟ فقال عبد الرحمن: ألست ابن اللعين الذي لعن أباك رسول الله ﷺ؟ قال: وسمعتها عائشة فقالت: يا مروان! أنت القائل لعبد الرحمن كذا وكذا؟ كذبت والله ما فيه نزلت، نزلت في فلان ابن فلان.
أقول: لا عبد الرحمن ولا فلان بن فلان أياً كان، وإنما كل من كان بهذه الصفة، عبد الرحمن وغيره، ولكن ليس عبد الرحمن ولا يشمله لأنه أسلم فلم يبق على كفره ونكرانه للآخرة، فلا يحق عليه وعد الله في أمم قد خلت من قبله.

مراتبهم درجات، ولغيرهم كذلك دركات، وليست فوضى وبلا حساب وإنما ﴿مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾: سعوا - في أعمال الإيمان وعقائده وأقواله، في مثلث الإيمان درجات وكما في كل زاوية منه درجات، كذلك وثالوث اللاإيمان دركات كما في كل زاوية منه دركات ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

وكما أن درج المؤمن والكافر في درجة واحدة ظلم، كذلك درج كل من الفريقين في درجة واحدة، رغم اختلاف درجاتهم: ظلم: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾﴾[1] ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾﴾[2].

ثم هنا درجات حسب الصالحات والطالحات ﴿مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾ وهناك درجات الاستعدادات ليست مما عملوا، وإنما ابتلاءات من الله: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ﴾[3] ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ﴾[4].

وإنما الجزاء الحساب يوم الحساب حسب الدرجات مما عملوا، لا ما خلقوا عليها بلاء وامتحاناً، مهما أملوا! كما وأن من الدرجات هي العلى ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾[5] ومنها الدرجات الدنا التي هي دركات و﴿إِنَّ

---

(١) سورة آل عمران، الآيتان: ١٦٢، ١٦٣.
(٢) سورة الأنعام، الآيتان: ١٣١، ١٣٢.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٦٥.
(٤) سورة الزخرف، الآية: ٣٢.
(٥) سورة طه، الآية: ٧٥.

﴿اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾(١) ﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾(٢).

فـ ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ﴾(٣): ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا﴾ لماذا؟.. ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ فعطف الواو هنا يعطف بنا إلى المحذوف من غايات الدرجات، فأعمالهم هي التي تجعلهم عند الله وبإذنه درجات، وإن كانت الحسنات بفضله مضاعفات، وإن كانت بعض السيئات بفضله مكفرات، ولكنما الأصل المذكور هنا: ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ توفية عدل، وإن كان هناك فضل فوق عدل، وليس هنا ظلم دون عدل.

ثم إن توفية الأعمال؟ هي الوفاء الكامل للعاملين بنفس الإعمال: إبرازاً لصورها وأقوالها المسجلة في مختلف السجلات الكونية: من أرض بفضائها، ومن أعضاء العاملين لهما أم ماذا ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾(٤).

فهي تشهد لك أو عليك يوم يقوم الأشهاد، فتعذب بها نفسياً أو تتلذذ على رؤوس الأشهاد، ثم هي تتحول بإذن الله إلى ملكوتها وحقائقها الشريرة أو الخيرة فتُعذب بها نفسها أو تثاب: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(٥) ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾(٦) ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ لا ينقصون: عما عملوا من طاعة أو عصيان، وإنما جزاء عدلاً وفاقاً في العصيان، ومع فضل من الله في بعض العصيان تكفيراً

(١) سورة النساء، الآية: ٤٠.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٦٠.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٦٣.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ٣٠.
(٥) سورة النمل، الآية: ٩٠.
(٦) سورة ق، الآية: ٢٢.

وعفواً، ومع الفضل كل الفضل في الطاعات، إذاً فلا نقصان لا في طاعة ولا عصيان.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ (٢٠)﴾:

هنا معرض السيئات بعد أن قضي الأمر وأتى دور الحساب: ﴿يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ كأنهم متاع للنار هي تشتريه، وكما يجاء بجهنم ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾[1] وتعرض هي أيضاً للكافرين: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ﴾[2] فإنها أيضاً متاع للكافرين هم مشتروها. فبعد أن كملت المعارضة تكمل المعاملة المخالطة، دون مماكثة أو مماكسة، إذ زالت الموانع من الجانبين المتاعين[3] بتمام العرض مع بعض وكمال الملاءمة، حيث الطينة السجينية لا تلائم إلا السجين، فالنار لا تشتري وتحرق إلا الكفار كما الكفار لا يشترون إلا النار ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾[4]!.

عرض وعرض ولكن دون أي خفاء في أيٍّ منهما كمتاع، فأنتم ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾[5] عرضاً لصوركم بسيركم وأعمالكم وأقوالكم، لا تخفى خافية من سيئة ظاهرة أو باطنة، وأما جهنم ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾[6]: حقيقياً لا تخفى منها خافية، فلا مباغتة هنا وهناك ولا مباغتة ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ﴾[7]؟ ﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ

---

(١) سورة الفجر، الآية: ٢٣.
(٢) سورة الكهف، الآية: ١٠٠.
(٣) العرض هو إظهار لعدم المانع من تلبس شيء بشيء.
(٤) سورة إبراهيم، الآية: ٢٩.
(٥) سورة الحاقة، الآية: ١٨.
(٦) سورة الكهف، الآية: ١٠٠.
(٧) سورة الأحقاف، الآية: ٣٤.

عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّۗ...﴾[(١)].

فلما تمت المعارضة الحجة الذاتية في المتاعين المعروضين، حقت كلمة العذاب، وبعد مصارحة الحجة من رب العالمين:

﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا...﴾.

﴿... وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ﴾[(٢)]: طيبات خلِقت لكم وأحلت لتكسبوا بها حسنات، وتنموها لعقبى الحياة، ولكنكم اذهبتموها في دنيا الحياة، مستمتعين بها في الشهوات، مستغلين إياها للموبقات، فلم تبق لكم - إذاً - طيبات، وإنما خبيثات نتنات، اللهم إلا من تمتع بالطيبات المحللات وأمتع، واستفاد من زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق حسب شريعة الله، فإن ذلك ليس من إذهاب الطيبات[(٣)] وإنما الذي يستمتع بها إخلاداً إلى الحياة الدنيا فيقال لهم:

---

(١) سورة الشورى، الآية: ٤٥.

(٢) سورة غافر، الآية: ٦٤.

(٣) قد يكون إذهاب الطيبات إخلاداً إلى الدنيا فهو كفر، أو يكون تمتعاً بالحلال دون غفلة عن الآخرة فـ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ﴾ [الأعراف: ٣٢] ولكن القدوة من أهل الله أحياناً يتركونها، لا تحريماً لها، وإنما زهداً في الدنيا وتسكيناً للفقراء وكما يروى عن عمر بن الخطاب قال: استأذنت على رسول الله ﷺ فدخلت عليه في مشربة أم إبراهيم وإنه لمضطجع على حفصة وإن بعضه على التراب وتحت رأسه وسادة محشوة ليفاً فسلمت عليه ثم جلست فقلت: يا رسول الله! أنت نبي الله وصفوته وخيرته من خلقه وكسرى وقيصر على سرر الذهب وفرش الديباج والحرير، فقال رسول الله ﷺ:

أولئك قوم عجلت طيباتهم وهي وشيكة الانقطاع وإنما أخرت لنا طيباتنا.

وعن أمير المؤمنين علي عليه السلام في بعض خطبه: والله لقد وقعت مدرعتي هذه حتى استحييت من راقعها، ولقد قال لي قائل: ألا تنبذها؟ فقلت: اعزب عني: فعند الصباح يحمد القوم السرى.

وفي الدر المنثور ٦: ٤٣ - أخرج أحمد والبيهقي في شعب الإيمان عن ثوبان رضي الله عنه. قال: كان رسول الله ﷺ إذا سافر كان آخر عهده بإنسان من أهله فاطمة وأول من يدخل عليه إذا =

ها أنتم لم تدخروا من هذه الطيبات شيئاً تعيشون بها في الأخرى، إذ لم تحسبوا لها حساباً، وإنما حسبتم أنها الأولى والأولى فقط، فأذهبتم فيها كل الطيبات، غافلين عن الأخرى كأن لم تكن شيئاً مذكوراً: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾(١).

ترى وما هي الطيبات الذاهبة الفانية في الحياة الدنيا، التي كان من المفروض إبقاءها واستثمارها للحياة الأخرى، والدنيا بما فيها فانية لا تبقى؟!.

إن الطيبات هي طيبة الحياة: روحاً إنسانية وعقلاً حالاً ومالاً، وكل ما رزقك الله من مظاهر الحياة، روحية ومادية، التي تتبنى لك حياة سعيدة في العاجل والآجل. ولكنك أذهبتها في هذه الدنيا مبصراً إليها كأنها الحياة فقط، لا مبصراً بها عمق الحياة، ولكي تستغلها للأخرى، مستقلاً لها في الأولى ومستكثراً للأخرى، فأنت أنت الأحمق الأطغى أغمضت عين العقل

= قدم فاطمة فقدم من غزاة له فأتاها فإذا بمسح على بابها ورأى على الحسن والحسين قلبين من فضة فرجع ولم يدخل عليها فلما رأت ذلك فاطمة ظنت أنه لم يدخل من أجل ما رأى فهتكت الستر ونزعت القلبين من الصبيين فقطعتهما فبكى الصبيان فقسمته بينهما فانطلقا إلى رسول الله ﷺ وهما يبكيان فأخذه رسول الله ﷺ منهما فقال: يا ثوبان! اذهب بهذا إلى بني فلان أهل بيت بالمدينة واشتر لفاطمة قلادة من عصب وسوارين من عاج فإن هؤلاء أهل بيتي ولا أحب أن يأكلوا طيباتهم في حياتهم الدنيا.

وفي نور الثقلين أنه لما دخل العلاء بن يزيد بالبصرة يعود علياً عليه السلام قال له العلاء: يا أمير المؤمنين! أشكو إليك أخي عاصم بن زياد، لبس العباء وتخلى من الدنيا، فقال عليه السلام: عليّ به، فلما جاء قال عليه السلام: يا عديّ نفسه لقد استهام بك الخبيث، أما رحمت أهلك وولدك؟ أترى الله أحل لك الطيبات وهو يكره أن تأخذها؟ أنت أهون على الله من ذلك! قال: يا أمير المؤمنين! هذا أنت في خشونة ملبسك وجشوبة مأكلك؟ قال: ويحك، إني لست كأنت، إن الله تعالى فرض على أئمة الحق أن يقدروا أنفسهم بضعفة الناس كيلا تبيغ بالفقير فقره.

(١) سورة الروم، الآية: ٧.

فأذهبت طيباتك في حياتك الدنيا، ويدلت نعمة الله كفراً، واستمتعت بها كأنها فقط للأولى، ولإشباع غريزة الشهوات، فلم تبق لك أية طيبات، اللهم إلا خبيثات وخبيثات ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾(١): ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾(٢).

إنكم ﴿وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ بدل أن تستمتعوها، لتشتروا بها الحياة الأخرى، فلا متعة لكم منها فيها حيث أذهبتموها في متَع الأولى، وهذه إهانة لنعم الله ومهانة للطيبات تجزون بها جزاء وفاقاً:

﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾: استكبار يخلفه إذهاب الطيبات في الحياة الدنيا تغافلاً عن الأخرى، وكما أنه يخلف فسوقاً: خروجاً عن طاعة الله، فمعظم الفسوق من مخلفات الاستكبار كما أن الاستكبار من خلفيات الإخلاد إلى الحياة الدنيا: ظلمات بعضها فوق بعض.

إن الاستكبار فسوق عن طاعة الله، ومروق عن عبادة الله، فإن الكبرياء ليست إلا لله، فالجزاء، العدل، الوفاق الفرض، لمن استكبر في الأرض، ليس إلا عذاب الهون: هوناً على هون، فمن عذاب ما ليس على هون رغم أنه في نفسه هون، وذلك للفاسق غير المستكبر.

وقد توحي آية الفسوق هذه بأن الكفار مكلفون بالفروع، مؤاخذون عليها كما الأصول، حيث الفسوق بالاستكبار ليس إلا عمل المعاصي وترك

(١) سورة الأنفال، الآية: ٣٧.
(٢) سورة الشورى، الآية: ٤٥.

الطاعات، كما الاستكبار في الأرض، نكران للأصول، واستبداد على الله وعلى عباد الله، فلو اختص عذاب الهون بالاستكبار، لم يك لذكر ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ مجال، إذاً فهم معذبون بالكل، دون اختصاص بالجل: الكفر والكفر فقط: بل والمعاصي أيضاً.

صحيح أن الطاعات لا تقبل إلا الإيمان، فالصالحات ممتنعة مع الكفر، إلا أنها امتناع بالاختيار، والامتناع بالاختيار لا ينافي الاختيار.



﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٢١) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٢) قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٣) فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (٢٥) وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٢٦) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٧) فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً ۖ بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٨)﴾

. . . تسليات عاليات لخاطر الرسول الأقدس محمد ﷺ: بما جرى على هود عليه السلام وعلى قومه بما خانوه وأهانوه وكانوا هم أقوى منهم وأظلم وأطغى، فلم تغن عنهم قوتهم ولا طغواهم وثروتهم شيئاً، وبأحرى هؤلاء الذين ابتلي بهم الرسول محمد ﷺ.

﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾﴾[1]:

﴿وَاذْكُرْ﴾ زاداً في سبيل الدعوة، وحياداً عن الفشل في الحصول على البغية ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾: هوداً عليه السلام أخا عاد الأولى، ولا خبر لنا عن الثانية وإنما الأولى: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ﴾[2] مما يوحي بأنهم كانوا أقوى منهم وأظلم وأطغى، فلقد كانوا أقوى الأقوياء وأشد الأشداء في التاريخ.

﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾: أخوة في الإنسانية والقومية والإقليمية والقرابة أم ماذا إلا صالح العقيدة، فهي بحذافيرها لا تنفع ما لم تكن أخوة الإيمان كما لم تنفع أخا عاد وكذلك أنت مع قومك.

﴿وَاذْكُرْ...﴾ ماذا لقي من إخوته من كفر صارم، وتكذيب عارم، ثم ماذا لقوا ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ... فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾[3] وهم كانوا أقوى من قومك مُكنة ورذالة، وأنت أقوى منه مكانة ورسالة.

«اذكره» ما طاب لك وطيّب خاطرك ولقد ذكر كما أمر بقوله ﷺ: «يرحمنا الله وأخا عاد»[4]

﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾: وترى أين الأحقاف، وهي الكُثب المرتفعة من الرمال المعوجة حيث كانت منازل عاد؟ هل هي ﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾﴾[5] وقد كانت مبنية على

(١) راجع ج ٣٠.
(٢) سورة النجم، الآية: ٥٠.
(٣) سورة الحاقة، الآيتان: ٦، ٧.
(٤) الدر المنثور ٦: ٤٣ - أخرج ابن ماجه وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنه. قال: قال رسول الله ﷺ..
(٥) سورة الفجر، الآيتان: ٧، ٨.

الأحقاف: أراضي الرمول والصخور، المبنية عليها إرم ذات العماد، وهي بالشامات، وعلّها قلعة بعلبك، أو أنها نموذج من تلكم العماد الحجرية المنقطعة النظير في تاريخ الإنسان؟

أم هي واد بين عمان ومهرة؟[١] أو رمال بين عمان وحضرموت؟[٢] أو رمال مشرفة على البحر بالشحر من أرض اليمن[٣] أو منزل في طريق مكة من القادسية[٤] أم ماذا؟

القدر المسلم قرآنياً أن الأحقاف هي أودية[٥] الأراضي التي بنيت عليها

---

(١) يروى عن ابن عباس كما عنه والضحاك أنه جبل بالشام.

(٢) نقله في مجمع البيان: وقيل رمال فيما بين عمان إلى حضرموت.

(٣) عن قتادة قال: ذكر لنا أن عادا كانوا احياء باليمن أهل رمل مشرفين على البحر بأرض يقال لها الشحر.

(٤) نور الثقلين ٥ : ١٨ نقلاً عن الخرايج والجرايح أن المهدي الخليفة أمر بحفر بئر بقرب قبر العبادي: «منزل في طريق مكة من القادسية إلى العذيب» لعطش الحاج هناك، فحفروا أكثر من مائة قامة فبينما هم يحفرون إذ خرقوا خرقاً وإذا تحته هواء لا يدرى قعره وهو مظلم وللريح فيه دوي، فأدلوا رجلين فلما خرجا تغيرت ألوانهما فقالا: رأينا هواء ورأينا بيوتاً قائمة ورجالاً ونساء وإبلاً وبقراً وغنما وكلماً مسسنا شيئاً رأيناه هباءً فسألنا الفقهاء عن ذلك فلم يدر أحد ما هو! فقدم أبو الحسن موسى بن جعفر عليه السلام على المهدي فسأله عن ذلك فقال: هؤلاء أصحاب الأحقاف، وهم بقية من قوم عاد، ساخت بهم منازلهم وذكر على مثل قول الرجلين.
وعن تفسير علي بن إبراهيم القمي قال حدثني أبي قال: أمر المعتصم أن يحفر بالبطانية بئراً فحفروا ثلاثمائة قامة فلم يظهر الماء فتركه ولم يحفره، فلما ولي المتوكل أمر أن يحفر ذلك البئر أبداً حتى يبلغ الماء فحفروا حتى وضعوا في كل مائة قامة بكرة حتى انتهوا إلى صخرة، فضربوها بالمعول فانكسرت فخرج منها ريح باردة فمات من كان يقربها فأخبر المتوكل بذلك فلم يدر ما ذاك فقالوا: سل ابن الرضا عليه السلام وهو أبو الحسن بن محمد العسكري عليه السلام فكتب إليه يسأله عن ذلك فقال أبو الحسن عليه السلام: تلك بلاد الأحقاف وهم قوم عاد الذين أهلكهم الله عزّ وجلّ بالريح الصرصر.
أقول: ولم يثبت أحد من هذه الوجوه لأنها قيلات أو أخبار آحاد اللهم إلا ما يوحيه القرآن كما بينا..

(٥) لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾ [الأحقاف: ٢٤] فلتكن الأحقاف هي الأودية التي بنيت عليها إرم ذات العماد.

إرم ذات العماد، وإذا كانت باقية حتى الآن فقد تكون قلعة بعلبك، العماد المنقطعة النظير في تاريخ الإنسان، وقد يوحي ببقائها: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾: السورة - أن دمرت الصرصر العاتية أشياعهم بأشيائهم إلا مساكنهم عبرة للمعتبرين، إلا أن ﴿لَا يُرَىٰ إِلَّا﴾ هنا، لا تضمن بقاء الرؤية إلى زمن نزول القرآن، فضلاً عن الآن، فقد تختص بوقت العذاب، ولفترة بعد تدميرهم، كما قد توحي له: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾[1]؟ كلا! لا أشخاصاً ولا آثاراً، إلا دماراً ومخازي وآصاراً!: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ۝ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ۝﴾[2] ثم المساكن هي محال السكن: أعم من البيوت، فقد تعني محال البيوت، الأودية الأحقاف المبنية عليها إرم ذات العماد، فلو كانت هي البيوت لذكرت كما في ثمود: ﴿أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا . . .﴾[3]. ولكن البيوت قد يعبر عنها بالمساكن فقد تعني هي أيضاً البيوت: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ. . .﴾[4] فها هي مساكنهم مبينة زمن نزول القرآن ومرئية، ولا تتميز مساكن المعذبين إلا ببقاء بقايا من بيوتهم الخاوية، لا أرضاً مستوية أو عوجاء! فعلها قلعة بعلبك أم ماذا! مبيَّنة لحد الآن ومرئية ولا نجد مساكن لهم غيرها تناسب أن تكون إرم ذات العماد.

وبما أن الغرض هنا لا يتعلق بمكان الأحقاف إرم ذات العماد، وإلا لصرح به، فلنسكت عما سكت الله عنه، إلا ما نعرف من أنهم الأم حماقى الطغيان، فأحقافهم من أشر الوديان[5] ثم لا نتأكد من بقاء أثر من عاد.

---

(١) سورة الحاقة، الآية: ٨.
(٢) سورة الذاريات، الآيتان: ٤١، ٤٢.
(٣) سورة النمل، الآيتان: ٥١، ٥٢.
(٤) سورة العنكبوت، الآية: ٣٨.
(٥) الدر المنثور - أخرج ابن أبي حاتم عن علي ﷺ قال: خير واديين في الناس وادي مكة=

﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ﴾ وترى ماذا يعني بين يديه ومن خلفه؟ هل هم الرسل الذين خلوا قبله ﴿وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ﴾ وخلوا في إنذارهم زمنه ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾: إذ عاصروه؟: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ. . .﴾(١) والرسل هنا هم النذر هناك.

فكما لا يعني ﴿مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾: هنا الرسل الذين أتوا من بعدهم، إذ لم يأتوهم وإنما أتوا مَن بعدهم، وإنما هم الذين كانوا في زمنهم، ولا ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ يعنيهم، وإنما الذين أتوا قبلهم، فإنذارهم مَن قبلهم من آبائهم إنذار لهم.

فكذلك الرسل من بين يدي هود ومن خلفه، دون الذين أتوا من بعده، إذ لا صلة لمن بعده به ولا بهم ولا حجة له ولا لهم، وإنما الذين أنذروهم حاضرين ثم الذين أنذروا آباءهم، فلينذروا برسلهم حاضرين، أو غابرين حاذرين، فهم أقرب إلى الهدى ممن لم ينذر آباءهم فهم غافلون، كقومك اللّدّ: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾(٢).

ودعوة الرسالات الماضية والحاضرة - وكذا المستقبلة هي في صيغة واحدة: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ دعوة واحدة إلى إله واحد دونما أي خلاف واختلاف، دعوة مركزة واحدة ثم إنذار واحد: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

= ووادي إرم بأرض الهند، وشر واديين في الناس وادي الأحقاف وواد بحضرموت يدعى برهوت يلقى فيه أرواح الكفار وخير بئر في الناس زمزم وشر بئر في الناس برهوت وهي ذاك الوادي الذي بحضرموت.

أقول: «إرم» هنا لا يعني إرم ذات العماد، وإلا كان مطروحاً مكذوباً على الإمام علي إذ لا يقول ما ينافي القرآن: فإن إرم فيه هي بالأحقاف.

(١) سورة الذاريات، الآيتان: ١٣، ١٤.

(٢) سورة يس، الآية: ٦.

و﴿يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾ في هذه الإنذارات هو القيامة الكبرى، وبالنسبة لعاد يضاف يوم الصرصر يوم نحس مستمر، فيوم عذابهم عظيم في الدنيا كما هو عظيم في الآخرة.

فـ ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ. . .﴾ كما هي مقالة سائر المنذرين بين أيديهم ومن خلفهم، كذلك هي مقالة هود لعاد إذ يخوفهم بعذاب الدنيا قبل الآخرة وكما قالوا:

﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾﴾:

توحي أن وعد عذاب يوم عظيم يختصهم كما طلبوه، وكما يعمهم وسواهم كعذاب عام يوم الآخرة، فقد يعني اليومين العظيمين معاً، أو يختص في وعد هود يوم الدنيا، بعدما وعدهم مراراً وتكراراً عذاب الآخرة.

فيا لهذا الحمق الصارم والكفر العارم أن عاداً يعكفون على آلهتهم كأنها الحقة القاطعة، دونما خوف من عذاب يوم عظيم، لحد يتهددون نبيهم: ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾. فلو أن عندهم احتمالاً لصدق ذلك الوعد لعدلوا عن آلهتهم، ولكنما القلوب خاوية مقلوبة بما ظلموا، فهم في نظرة العذاب، ويزعمون أن هوداً هو الآتي بالعذاب، وكأنه إله مع الله!.

﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا﴾ تصرفنا كذباً وافتراء ﴿عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ من عذاب يوم عظيم ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في نبوتك وإنبائك:

﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾:

﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾: لا يعدوه إلى سواه وإن كان نبي الله، فـ﴿إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ﴾: علم العذاب الموعود: ما هو؟ كيف هو؟ متى هو؟ كل ذلك ﴿عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ﴾ من وعد العذاب والوعد فقط، فلست أعلم ما هي

حقيقة العذاب الموعود؟ ولا شكله وكيفيته؟ ولا متى يحين حينه، إنما ﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ﴾: بلاغاً وإنذاراً وعذاباً أم ماذا!: وكما في نوح وأضرابه: ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٣٣﴾﴾[١].

وهذه هي السنة العامة في معجزات المرسلين، إنها من أفعال الله الخاصة وليست من أفعالهم، وإنما تجري بإذن الله على أيديهم أم بوعدهم تثبيتاً للحجة، وإيضاحاً للمهجة، اللهم إلا ما يظهر الله تعالى على غيبه من يشاء منهم، وكما أرى إبراهيم كيف يحيي الموتى أم ماذا[٢].

ف ﴿إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ﴾ علم المعجزات، كل العلم وبكل المعجزات ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ وليس عندي.

(و) إنما ﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ﴾: من وعد العذاب ووعده فقط: ﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ﴾:

فيا لآية العلم هذه من زوايا ثلاث، قارعة حجتهم الداحضة: أولاً بانحصار علم العذاب الآية بالله، ثم إنه ليس إلا مبلغاً عن الله، وأخيراً ﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ﴾!: تجهلون لا عن جهل قاصر: الجاهل جهله، وإنما عن تجاهل مقصر، وهكذا الأكثرية الساحقة من الكافرين، أنهم متجاهلون تقصيراً، لا جاهلون قصوراً: ﴿وَلَوۡ أَنَّنَا نَزَّلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَحَشَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ كُلَّ شَيۡءٖ قُبُلٗا مَّا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَجۡهَلُونَ﴾[٣] إذاً فأقلهم جاهلون وهم القاصرون!.

إنه ليس في حجتي ما ترتابون، ولا عندكم ما به تحتجون ﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ

---

(١) سورة هود، الآيتان: ٣٢، ٣٣.
(٢) قد نشبع البحث عن المعجزات حقه في محالها الأنسب إن شاء الله تعالى.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ١١١.

﴿قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ في كل ما تقولون وتقترحون من أقوالكم وأفعالكم، متخبطين فيها: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[1] ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾[2].

أراكم تجهلون وحتى مصالحكم في الحياة الدنيا، إذ تطالبون أخاكم المرسل إليكم بكل رفق وحنان، تحقيقَ وعد العذاب عاجلاً غير آجل، متهددين إياه: لو لم يأت به فهو كاذب في وعده!.

ترى كيف تجهلون مدى وعدي؟ فلم يكن إلا وعداً غير موقت، وأن الله يأتي به إذا شاء لا أنا، ولكنكم قوم تجهلون لغة الإنسان، فتستعجلون إلى ما تهوون غضاً عما توعدون، ثم تكذبونني سلفاً إن لم آت بما تقترحون، وإن في ذلك جهالات وحماقات:

١ - وعدتكم أن الله يأتي بعذاب، وأنتم تطلبونه مني: ﴿فَأْتِنَا﴾!
٢ - ولم يكن الوعد مؤقتاً وأنتم تستعجلون: ﴿فَأْتِنَا﴾ وإذا لم أستعجل فتكذبون: ﴿إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾: ثالوث الحماقة الجهالة!. داحضة بمثلث الحجة البالغة ﴿إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ﴾ وليس عندي علم لا بإتيان العذاب ولا بوقته ﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ من رسالات الله ومن وعد العذاب من الله غير موقوت: ﴿وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾!

فلنفرض أنني ما جئت بالعذاب، فكيف أكون كاذباً وليس التعذيب من شأني؟ أو أجِّل عنكم العذاب فكيف لا أكون صادقاً وليس التعجيل من شأني؟.

ثم وفي تعجيل العذاب كما عجل به عجالةُ دماركم فماذا تربحون،

(١) سورة النمل، الآية: ١٤.
(٢) سورة هود، الآيتان: ٥٩، ٦٠.

أفآلهتكم هي التي تنجيكم من بأس الله، ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾[1]! كما ولستم في تأجيله تُخسرون وتكذِّبون، إذ لم يكن الوعد كما تستعجلون، فأنتم أنتم الخاسرون في عاجل العذاب وآجله، فكيف تحمقون في مجابهة رسولكم الناصح الأمين، متهددين إياه بالتكذيب لو لم يأت بما تهوون، مواجهة الحجة بالتهديد الهاتك، والتشديد الفاتك.. ﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾!

فلو وقفتم عند حد فيما تجهلون! ولكنها مستمرة وحتى إذا جاءكم تحسبونه عارضاً يمطركم:

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَاۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾﴾:

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾: العذاب الموعود، والمستعجل به رأوه ﴿عَارِضًا﴾ سحاباً يعرض في الأفق ثم يطبق في السماء ﴿مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾: تستقبل مخازن مياههم وكأنها موجهة لها لتمطرها وتملأها ماء، وذلك بعدما أصابهم حر وعطش شديد ﴿قَالُواْ﴾: استبشاراً بعارض ممطر بعد جدب، واستهزاء بهود: ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَاۚ﴾ تنديداً برسولهم وتكذيباً، فإذا بهم يسمعون منه بإعراض عن عارضهم الممطر ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦۖ﴾ من عذاب موعود: ﴿رِيحٌ﴾ وليس سحاباً عارضاً، وإنما من ثخنها وتكاثفها خيّل إليهم أنها سحاب ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: تحمل أليم العذاب.

... وإنها ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًاۖ فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾[2].

(١) سورة الصافات، الآية: ٨٦.
(٢) سورة الحاقة، الآيات: ٦-٨.

﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾[1] وهي ريح:

﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾:

تستقبلهم عاصفة مدمرة مزمجرة، وقد بلغوا في حمقهم لعمقهم أن حسبوها عارضة ممطرة، وهم أولاء ضحايا الزمجرة، فانحسموا حسوماً صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية، ورمم بالية ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾؟ اللهم لا إلا باغية!.

إن الصرصر العاتية دمرتهم - كما تدمر كل شيء - بحيث لا يرى إلا مساكنهم: الأحقاف المبنية عليها أرمهم وبيوتهم، فالتدمير الاستئصال هو من طبيعة الريح الصرصر العقيم العاتية ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ فهل إنها ما أتت بيوتهم حين أتتهم؟! أو أنها لم تكن شيئاً حتى تدمره، أو أنها في غير رميمها تحولت معهم رميماً فلا يرى إلا الرميم، مساكن وأجساداً، أو بقيت من مساكنهم ما تدل على تدمرهم وتذمرهم، وعله أولى لما قدمناه[2].

ومن عجيب الأمر أنها «خرجت في مثل خرق الإبرة..» أو «مثل الخاتم»[3] فدمرت أشياءهم وإياهم و﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ في دنياهم، فأولى لهم في أخراهم!.

---

(١) سورة الذاريات، الآيتان: ٤١، ٤٢.

(٢) تناصرا من آيتي المساكن المرئية لحد الآن والثانية: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٣٨] اللهم إلا أن يعني تبين البيان القرآني، لا الإبصار العياني.

(٣) روى الأول ابن بابويه القمي في من لا يحضره الفقيه عن رسول الله ﷺ والثاني في الدر المنثور ٦: ٤٤ - أخرج الطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ. أقول: راجع ج ٣٠ آيات عاد في سورة الفجر وج ٢٩ من سورة الحاقة.

وترى هل كان هؤلاء الأغبياء ضعفاء ولذلك حسموا؟ كلا! وإنهم كانوا أقوى الأقوياء وأقوى منكم:

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّـٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَـٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾﴾[1]:

آية التمكين هذه توحي أن عادا كانوا أمكن من هؤلاء وأسمع وأبصر وأفأد، ولأنهم كانوا يجحدون بآيات الله ويستهزئون ما أغنت عنهم ما فضلوا به من مكنة السمع والأبصار والأفئدة وسواها، وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون، فأولى لهم أولاء: قوم الرسول محمد ﷺ ألا تغني عنهم مكنتهم وهي أضعف وأقل قدراً، فما هي مكنتهم الأقوى؟ وما هي قوتهم في الثلاثة الأخرى؟

إنهم - مع الآخرين المهلكين - كانوا أحسن أثاثاً ورءياً: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَـٰثًا وَرِءْيًا﴾[2] [3] أشد قوة وآثاراً: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾[4].

ولأن عاداً ألعن حماقى الطغيان فليكونوا هم من أشدهم قوة وآثاراً في الأرض، وأحسنهم أثاثاً ورءياً، فأشدهم عذاباً في الآخرة والأولى.

هنا نتبين أن «إن» تنفي عن الحاضرين زمن وحي القرآن المكنة التي

(١) لقد ذكرت عاد في ٢٤ موضعاً من القرآن، وهذا دليل أن لهم موضعاً عظيماً من الكفر والعناد، ومن العذاب الشديد.
(٢) سورة مريم، الآية: ٧٤.
(٣) الرءي هو الجمال والمنظر الحسن كما عن الإمام الباقر عليه السلام.
(٤) سورة غافر، الآية: ٢١.

كانت عند عاد، فقولة من قال: إنها زائدة، فارغة زائدة، إذ تنافي بلاغه القرآن وفصاحته، ولا تلائم الآيات الأخرى التي تؤكد أن عاداً كانوا أشد وأقوى، على أن المساواة في المكنة بين الغابرين والحاضرين لا تفيدهم عبرة.

ثم المكنة الأشد في عاد تعني القوى العقلية والعلمية والجسمية: ﴿أَشَدُّ قُوَّةً﴾ وقوى الجمال والمال والأثاث: ﴿أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾ ومن ثم الآثار أية آثار: ﴿أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾.

ولعل آثار بعلبك من تلكم الآثار، التي تحدِّث عن آصارهم في حمل هذه الآثار: فكم من ضحايا رضخوا بدمائهم حمل هذه الصخور الضخمة، وكم من أشلاء فرشت لكي تقوم تحتها هذه العماد في إرم عاد؟!.

ولقد جمعوا الكمال عقلاً وجسماً، والجمال رأياً ورءياً، أكمل من هؤلاء وأجمل، فلم تك تغن عنهم لا مالهُم ولا مالهَم من رأي أو رءي، ولا قوتهم في العقل والمال والجسم.. ولأنهم أذهبوا طيباتهم في حياتهم الدنيا واستمتعوا بها.. ثم الثلاثة الأخرى: السمع والأبصار والأفئدة، لا بد وأنها - كذلك - أقوى ولكي تزيدهم قوات إلى قوات، وإلا لم يكن لذكرها مجال، ويعد التمكين في الأرض قوة وآثاراً، لأنهم والحاضرين ومعهم الناس، هم مشتركون في أصول هذه الثلاث، وإنما الاختلاف في الدرجات: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾(١): درجات في مختلف الطاقات: سمعاً وأبصاراً وأفئدة أم ماذا، وقد تحول إلى دركات كقوم عاد، الذين بدلوا نعمة الله كفراً ﴿إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ ولم يستفيدوا من هذه الدرجات إيماناً بالآيات ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ وكان حقاً عليهم ما حاق بهم!.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٦٥.

إنهم كانوا أسمع من هؤلاء بآذان مداركهم، وأبصر بأبصارها، وأفأد بقلوبهم المتفئدة: المتوقدة بأنوار العلوم المادية ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ﴾: ما أغنت عنهم في دفعهم إلى الإيمان إذ لم يستعملوها في التسمع للآيات والتبصر بها والتفوؤد لها، وإنما أخلدوا بها إلى الحياة الدنيا فجمعوا لها غافلين عن الأخرى، فما أغنت عنهم في دفع العذاب، كما لم يندفعوا بها إلى الصواب والثواب.

كذلك والحاضرون المتحضرون، الذين بلغوا من المكنة، وفي السمع والأبصار والأفئدة - بلغوا قمتها، فيسمعون الأصوات من مشارق الأرض ومغاربها من الإذاعات، ويبصرون صورها من التلفزيونات، ويعقلون ويعلمون مختلف العلوم والاختراعات بالأفئدة: المتوقدة بأنوار العلم، وعلى أضواء هذا المثلث تمكنوا فيما لم يمكَّن فيه إنسان التاريخ فيما نعلم.

كذلك هؤلاء لا تغني عنهم حضاراتهم بحذافيرها من شيء، ما هم مكذبون بآيات الله وجاحدون، وسوف يحيق بهم ما كانوا به يستهزئون: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾﴾[1].

فالعبرة التي يستفيدها كل ذي مكنة، وكل ذي سمع وبصر وفؤاد، ألا يغتر ذو قوة بقوته، ولا ذو مال بماله، ولا ذو علم بعلمه، فإنها قوى من قوى الكون، لو لم تجر في مجاريها، والسنن التي سنها الله، لرجعت عذاباً وتباباً تدمر كل شيء، كما فعلت بعاد وثمود!

فتلك عاد تذمروا وتدمروا، تسمعون أخبارهم وترون آثارهم، ولكي تعتبروا بهم وبأضرابهم:

﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا مَا حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡقُرَىٰ وَصَرَّفۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٢٧﴾﴾:

ترى ما هي الصلة بين ﴿أَهۡلَكۡنَا مَا حَوۡلَكُمۡ﴾ و﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ فـ «هم»

(١) سورة الانشقاق، الآيتان: ٢٢، ٢٣.

أولاء قوم عاد و«كم» هم الحاضرون في الخطاب؟ ثم وكيف يرجع المهلكون بعد هلاكهم اللهم إلا إلى الله يوم الدين؟.

إن ﴿مَا حَوْلَكُمْ﴾ تشمل قرى عاد وسواهم من المهلكين، ولقد صرف الله لهم من آياته قبل أن يهلكهم و﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ فلما بقوا على ما طغوا ولم يرجعوا أهلكهم الله.

ومن ثم في ﴿أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ﴾: المخاطبين بوحي القرآن، تذكير لهم بما جرى على القرون من قِبلهم قِبلَهم لعلهم يرجعون، وإلا فثم الهلاك الدمار كما أهلك ما حولكم فما لكم لا تؤمنون؟

وتصريف الآيات هو صوغ آيات النبوات وسائر الآيات في صيغ مختلفة حسب البيئات أو الطلبات، آيات تتوارد وتترى ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عن غيهم ولكنهم... صرفناها لهم لينصرفوا، إلا أن صيغة الكفر المعاند لا تنصرف، إلا إلى جهنم وبئس المصير.

﴿أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ﴾ كعاد بالأحقاف - إرم ذات العماد، وثمود بالحجر، وسبأ باليمن وفي مدين أم ماذا، وهي من القرى التي كانت حول أم القرى، قريبة منها أو بعيدة عنها، فإنها أم القرى كلها، كما الرسول ﷺ أرسل ﴿لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾[1]: كل القرى فإنها أياً كانت فهي حول المركز الرئيسي للدعوة الإسلامية العالمية.

ولكنما القرى الهالكة حولكم، القريبة تكفي عما هي بعيدة عنكم ومنها الأحقاف ومنها.. ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾[2]؟.. وهل نصرتهم آلهتهم أم ضلت عنهم وألهت؟:

(١) سورة الشورى، الآية: ٧.
(٢) سورة الحاقة، الآية: ٨.

﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً ۖ بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾:

وكيف ينصرونهم في بأسهم وهم أولاء كانوا لهم جنداً محضرين، يكفُّون عنها بأس الحاضرين لكسرها، فهؤلاء الآلهة القربان ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾(١) كيف لم تقرب عابديها إلى الله أو تشفع لهم أو تنفعهم حين بأسهم كما كانوا لها جنداً محضرين؟.

﴿بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ﴾: حين البأس: ضلالاً عن كونها إذ دُمرت بتدميرهم، وعن كيانها - بأحرى - إذ ضلت ألوهيتها المؤتفكة: واقعياً إذ ما أثرت، وفي ظنهم: إذ عرفوا أنهم خاطئون، فحين البأس الموت تكشف الحقائق، ثم البرزخ معرض الكشف التام، ثم في القيامة الأتم: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾(٢) متحللاً عن الكلل التي كانت من علل منك أو من حجاب الحياة الدنيا.

﴿وَذَٰلِكَ﴾ المشهد المهين حين الهلاك - إنه حقيقة ﴿إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ حيث الإفك والفرية، الظاهر أن يوم الدنيا بمظهر الحق، سوف يبرزان بالمظهر الحق: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾(٣) فلا تخفى منهم خافية.

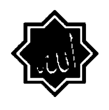
﴿وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ﴾: ضلال آلهتهم وضلالهم - إذ يظهر أن بمظهر الحق ولحدٍّ هم يصدقون: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾(٤).

﴿وَذَٰلِكَ﴾ الدمار المخزي البعيد - على تبين ضلالهم بضلال آلهتهم

(١) سورة الزمر، الآية: ٣.
(٢) سورة ق، الآية: ٢٢.
(٣) سورة الطارق، الآية: ٩.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ٣٧.

﴿وَذَٰلِكَ﴾ حقيقة ﴿إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ (ضعف الطالب والمطلوب) - يوم تظهر الحقائق دون حجاب، فلأهل الحق الثواب، ولهؤلاء الآفكين المفترين التباب!.

لقد انتهى يوم الفوضى الضلال، الذي كان يعيشه الضالون بكل رعونة ودلال، تحسبونهم أنهم أهل الحق وسائر الناس ضلّال، لكنهم: ﴿وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾!.



﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَـٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَـٰذَا بِٱلْحَقِّۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭۚ بَلَـٰغٌۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾

.. جولة جديدة فيها استماع الجن للقرآن فرسالتهم إلى سائر الجن، تجدُّ بالإنسان السير نحو التصديق بالقرآن الذي جاء له كأصل وللجن فرعاً، فمشهد الفرع المصدق للقرآن يدفعنا للإيمان أكثر مما كان.

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾:

الصرف هو رد الشيء من حالة إلى أخرى أو من مكان إلى آخر، مما

يصرفنا عن القول: إنه كان وحياً للجن أن ينصرفوا إلى الرسول ﷺ لاستماع القرآن، وانما هو إلهام لهم إلهي: أن ينصرفوا من حالتهم السابقة، البعيدة عن الرسول ﷺ إلى قربه، وأن يحضروا محضر قرآنه المبين ليتبينوا، وإذ ليس الوحي لأم موسى: ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[1] ليس هذا وحياً رسالياً يحمل رسالة إلهية يحملها المرسلون، فبأحرى ألّا يكون صرف الجن وحياً رسالياً وإن كانوا قبل الإسلام أنبياء مرسلين إلى قومهم، حيث الوحي بحذافيره انقطع عن غير محمد ﷺ منذ بزوغه له وحتى القيامة الكبرى، اللهم إلا إلهامات تخص المؤمنين حسب الدرجات ومنهم رسل الجن، إذ بعثهم الرسول ﷺ إلى قومهم منذرين، وقد كانوا يلمسون السماء لاستماع الوحي ومحادثات الملأ الأعلى، قبل هذه الرسالة الأخيرة ثم منعوا: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾﴾[2] [3].

ومن لطيف التعبير هنا وفي غيره ﴿صَرَفْنَا﴾ أم ما يؤدي معناه، دون ﴿أَوْحَيْنَا﴾ وإن كان كوحي الأرض أو النحل أو أم موسى أم ماذا ومن ذا؟ تأكيداً لختم الوحي بخاتم المرسلين، فلا يؤتى حتى بلفظه، الشامل للوحي الرسالي والإلهام، ولكي يسد كل ثغرة من فكرة الوحي بعد الإسلام! فلا تجد صيغة الوحي لما ألهم إلى أيٍّ من الملهمين بعد الإسلام على جلالة أقدارهم، رغم ما تجدها لما قبل الإسلام، وحتى بالنسبة للنحل وللأرض! اللهم إلا وحي الشر من أهله إلى أهله ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ

(١) سورة القصص، الآية: ٧.
(٢) سورة الجن، الآيتان: ٨، ٩.
(٣) التفصيل إلى سورة الجن ج ٢٩ من الفرقان.

﴿لِيُجَٰدِلُوكُمۡ﴾[(١)] تأشيراً أن كل وحي يدّعى بعد الرسول ﷺ فإنما هو من شيطان إلى شيطان وليس من الله في شيء!.

ثم النفر من الجن هنا هم النفر الذين فصّلت نفرهم سورة الجن: انزعاجاً من الجو الطائش الفوضى إلى أمان وحي القرآن، فلم يكن مصادفة عابرة، وإنما صَرفاً من الله لهم مقصوداً، ولأنهم كانوا من أصفى الأصفياء بين الجن، وإلا لم يصرفوا لحمل رسالة القرآن من الرسول إلى قومهم، دون سواهم.

لقد صرفوا إليه ﷺ وهو يقرأ القرآن في (حُجون) بمكة وكما يروى عنه ﷺ: «بتُّ الليلة أقرأ على الجن رفقاً بالحجون»[(٢)] دون أن ينصرف هو ﷺ إليهم رغم ما قد يروى[(٣)] حيث ﴿وَإِذۡ صَرَفۡنَآ﴾ دون (صرفت)!.

وترى كم عدد المصروفين من نفر الجن - علماً بأن النفر لا يقل عن ثلاثة ولا يزيد عن عشرة -؟ إنهم جماعة من رجال الجن يمكنهم النفر لتلقّي هذه الرسالة السامية، وليرجعوا إلى قومهم منذرين، وبما أن النفر يضمّن معنى الجهاد، فليكن في صرفهم إلى الرسول جهادٌ، مصروفين إليه ومنصرفين عنه، وهل تكفي ثلاثة واضرأبها لذلك النَّفرْ الجهاد، وضد الجن

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٢١.

(٢) الدر المنثور ٦: ٤٤ - أخرجه عبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ في العظمة عن ابن مسعود رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: . . وأخرج ابن مردويه في الدلائل والبيهقي عنه أنه سئل أين قرأ رسول الله ﷺ على الجن؟ فقال: «قرأ عليهم بشعب يقال له الحجون». أقول: وأنا أفسر هذه الآيات في شعب الحجون بمكة المكرمة حيث الآن بيتي، بمقربة مسجد الجن، وقد يروى عن علي عليه السلام وابن مسعود وابن عباس أنه بطن نخلة، وعن كعب الأحبار أنهم انصرفوا من بطن نخلة إلى قومهم منذرين فخرجوا بعد وافدين إلى رسول الله ﷺ فانتهوا إلى الحجون، مما يدل على أنهما شعب واحد ياسمين أشهرهما الحجون كما هو الآن «شعب الحجون».

(٣) الدر المنثور ٦: ٤٤ - أخرج عبد بن حميد وأحمد ومسلم والترمذي عن علقمة في حديث عن ابن مسعود رضي الله عنه انه ﷺ قال: أتاني داعي الجن فأتيتهم فقرأت عليهم القرآن. .

الكافرين؟ لعله وبنصر الله! ولكنما الحال تقتضي أن يكونوا أكثر عدد تحملهم لغة «النفر» وهم تسعة أنفار، كما ويصدقه صحيح السنة وقد سماهم الإمام علي عليه السلام (١) وإن كان العدد هنا ليس غرضاً يقصد ولو كان لبان، وإن كان قد تؤيده آية اللِّبد(٢) إذ تجمعوا على الرسول ﷺ يستمعون القرآن بعضهم لِصق بعض كلِبدَ الأسد، كناية عن كثرتهم، لكنها ليست أكثر من عشرة لمكان النفر خلاف ما قد يروى(٣).

﴿صَرَفْنَآ . . . يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ فلم يكن الصرف إليه ﷺ إلا لاستماع القرآن، ولا الانصراف إلا للإنذار بالقرآن، ولأنه الحجة الوافية لإثبات وحيه، ورسالة نبي القرآن.

﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ﴾: القرآنَ ونبي القرآن، فهما هنا معاً محتملان، إذ صرفوا إليه هو، يستمعون القرآن ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ﴾: لاستماعه، إنصاتاً بألسنتهم فلا يتكلموا، وبقلوبهم فلا ينشغلوا، لكي يستمعوا القرآن بأسماع آذانهم، ومنها إلى قلوبهم، حتى يعوه ويحفظوه استعداداً للإنذار ﴿فَلَمَّا قُضِىَ﴾ القدر الذي قضي لهم باستماعه ﴿وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾:

---

(١) الاحتجاج للطبرسي عن موسى بن جعفر عن أبيه عن آبائه عن الحسين بن علي عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث. . فأقبل إليه من الجن التسعة من أشرافهم واحد من جن نصيبين والثمانية من بني عمرو بن عامر من الأحجة منهم شضاة ومضاة والهملكان والمرزبان والمازمان ونضاة وهاصب وهاضب وعمرو، وهم الذين يقول الله تبارك اسمه فيهم: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا﴾ [الأحقاف: ٢٩] وفي الدر المنثور ٦ : ٤٤ - أخرج ابن أبي شيبة وابن منيع والحاكم وصححه وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي معاً في الدلائل عن ابن مسعود في حديث قال: وكانوا تسعة، وأخرج مثله الطبراني والحاكم وابن مردويه عن صفوان بن المعطل. ومثله - أخرج الواقدي وأبو نعيم عن كعب الأحبار.

(٢) هي قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: ١٩] أن رسل الجن هم كانوا من لبد الخير في سائر اللبد «راجع تفسير سورة الجن» وقد أخرجه في الدر المنثور عن عدة طرق عن الزبير.

(٣) كما أخرجه ابن جرير والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنه قال: كانوا تسعة عشر، وما أخرجه ابن أبي حاتم عن عكرمة في الآية قال: هم اثنا عشر ألفاً من جزيرة الموصل.

فليكن القرآن الذي سمعوه قرآناً جامعاً لما يتطلبونه: حجة الرسالة، وهكذا كل القرآن! مخاطباً إياهم في خطاباته وإيحاءاته، فليكن منه سورة الرحمن(١) ولذلك تراهم - لما قضي - «ولوا إلى قومهم منذرين، تحمل قلوبهم ومشاعرهم ما لا تطيق إلا تصديقه والإسراع في إبلاغه، وإنها لهي حالة امتلاء الضمير بما يملي عليه إملاءَه للآخرين، فيا له من قول غلاّب قاهر بليغ، تدخل حشاشتُه القلوب، فتقلِّبها إلى مقلب القلوب!.

وما هي صيغة الإنذار، الغلابة الخلابة، المحركة لقلوب المنذَرين، دونما آية أخرى، إلا هي نفسها؟ إنها: !

﴿قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾﴾....:

﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾﴾(٢) (٣).

كيف - والقرآن أنزل من بعد عيسى، قالوا -: ﴿أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾؟ ألأنهم كانوا هوداً ناكرين إنجيل عيسى؟ وهذا مسٌّ من كرامة مرسلي الجن أن يكونوا كفاراً، والمرسلون هم المصطفون! فليكونوا ممن آمن بنبوات تترى، فإيماناً بعيسى عليه السلام بعد موسى، ثم انصرافاً إلى خاتم الأنبياء!

أم لأن القرآن يشابه كتاب موسى عليه السلام إذ يحمل شريعة الناموس كأساس، وكتاب عيسى لا يحملها، وإنما يدعو إلى كتاب موسى دون زيادة

---

(١) في مجمع البيان روى محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال: فلما قرأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الرحمن على الناس سكتوا فلم يقولوا شيئاً فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: الجن كانوا أحسن جواباً منكم، فلما قرأت عليهم: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرَّحمٰن: ١٣] قالوا: «لا ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب».

(٢) سورة الجن، الآيتان: ١، ٢.

(٣) راجع تفسير سورة الجن «الفرقان ج ٢٩».

إلا دعوات أخلاقية، وتحليلات لبعض ما حرم ابتلاءً في كتاب موسى[(١)]، فلأن الإنجيل لا يحمل شريعة جديدة تنسخ شريعة التوراة وإنما تكملها أخلاقياً، اعتبره رسل الجن هنا استمراراً لشريعة موسى، إذاً فالقرآن كتابٌ أنزل من بعد موسى، وهذا هو حق المعنى في انتقالهم إلى القرآن بعد كتاب موسى، تلميحاً مليحاً أنه الشريعة المفصلة المستقلة بعد التوراة ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الإنجيل والتوراة ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾: الشرع الثابت الذي لا حِوَل عنه ولا تحويل ﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ على طول الخط بيننا وبين القيامة الكبرى، لا عوج فيه ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[(٢)]!.

ولا يعني تصديق القرآن لما بين يديه، تصديق الموجود من كتب الأنبياء، المحرفة عن جهات إشراعها، وإنما ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ مما أوحي إليهم، تصديقاً لوحيها، لا تثبيتاً للعمل بها، اللهم إلا الأحكام التي لم تنسخ منها.

وترى كيف عرفوا أن القرآن نزل ككتاب موسى؟ لأنهم آمنوا من قبل بكتاب موسى، بالآيات الكبرى التي أتى بها موسى، ثم قايسوا ما سمعوه من القرآن إلى كتاب موسى، فأدركوا صلة عريقة بينهما في أصول الدعوة وجماع من فروعها، وأنها من تلك النبعة التي نبع منها كتاب موسى، بل وأحرى، فإذا كان كتاب موسى وحياً وليس فيه آيات النبوة إلا قليلاً، فليكن القرآن وحياً وهو كله آيات للنبوة: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ...﴾[(٣)] قياس

(١) وكما يقول تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عِمرَان: ٥٠] وهو الذي حرّم عليهم ابتلاءً لا أصلاً يبقى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا﴾ [الأنعَام: ١٤٦].

(٢) سورة فصلت، الآية: ٤٢.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٣.

ناجح بين القرآن وكتاب موسى، دون حاجة في القرآن إلى بينة سواه، مهما احتاجت التوراة إلى بينات سواها!.

فالإيمان بالقرآن، فبمن أنزله ومن أنزل عليه، إنه استجابة طبيعية مستقيمة لسماع القرآن، وعياً في النفس لمن استقامت فطرته، دون حاجة إلى حجة سواه، بل هو حجة الحجج تدل لوحيها بنفسها كالشمس في رابعة النهار!.

﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾﴾:

﴿دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ هو رسول الله ﷺ بكتاب الله، فهما - إذاً - هما داعيا الله:

وأما رسول الله فـ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ...﴾[1] ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا﴾[2] ﴿إِلَيْهِ أَدْعُواْ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾[3] ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[4] فهو يدعو الناس بكتاب الله إلى الله: ﴿يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾[5] دعوة بإذن الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾[6].

وأما كتاب الله، فهو هو الأصل في مادة الدعوة، لولاه لم تكن رسالة ولا دعوة، فإنه بينة الداعية وحجة الدعوة: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَاْ ٱلْقُرْءَانَ﴾[7] ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾[8].

وإن دعوة الله لا سواه، بينة في رسول الله وفي كتاب الله، داعيتان

---

(١) سورة يوسف، الآية: ١٠٨.
(٢) سورة الجن، الآية: ٢٠.
(٣) سورة الرعد، الآية: ٣٦.
(٤) سورة المؤمنون، الآية: ٧٣.
(٥) سورة آل عمران، الآية: ٢٣.
(٦) سورة الأحزاب، الآيتان: ٤٥، ٤٦.
(٧) سورة النمل، الآيتان: ٩١، ٩٢.
(٨) سورة ق، الآية: ٤٥.

تحملان بينات من الله مع بعض، كما يشهد بعضها لبعض، فرسول الله هو هو كتاب الله، كما كتاب الله هو رسول الله فـ ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾: داعياً الله!.

﴿أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ﴾ إجابة الدعوة إسلاماً بإقرار، وإيماناً بها تصديقاً بالجوانح والجوارح، فلا فحسب إسلام الإقرار، ولا إيمان التصديق، بل وإيمان العمل أيضاً: مثلث الإجابة: لساناً وقلباً وأركاناً بدرجاتها:

﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ وإنما ﴿مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾: بعضاً - لا ﴿ذُنُوبِكُمْ﴾: كلا - لأن الذنوب تشمل ما تقدم قبل الاستجابة وما تأخر بعدها، وليس الله ليغفرها كلها بمجرد الاستجابة للداعية والإيمان أياً كان! وإنما يغفر ما تقدم أصل الإيمان الاستجابة: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾[1]. ويغفر بعض ما تأخر لذلك الأصل، ولأنه من أكبر الحسنات ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[2] ثم يغفر سيئات بمكفرات أخرى بعد الإيمان الاستجابة: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾[3] أم ماذا!.

﴿... وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ على ضوء الاستجابة الإيمان وهي درجات، فغفران بعض الذنوب وإجارة العذاب أيضاً درجات بدرجات دونما فوضى اللّاحساب، وإنما بحساب عدل ثم فضل ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ﴾:

﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾!

﴿وَمَن لَّا يُجِبْ﴾، وهو يعرف أنه داعي الله، فقد ترك إجابة الله، والتارك

(١) سورة الأنفال، الآية: ٣٨.
(٢) سورة هود، الآية: ١١٤.
(٣) سورة النساء، الآية: ٣١.

إجابة الله ﴿فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾: لا يعجز الله في أرضه ولا دعوة الله ولا داعي الله: لا رسولاً ولا كتاباً لا في أرضه، فكيف إذاً في سمائه؟: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾(١).

وإنما يعجز ويظلم نفسه أن ترك الداعية، وعرض نفسه لشفا جرف هار فانهار به في نار جهنم ﴿وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ﴾: يشفعون له، أو يحولون بينه وبين بأس الله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الحماقى البُله عائشون حياتهم ﴿فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ فـ(في) إيحاء لطيف لغرقهم بضلال، مهما مشوا في دلال وكأنهم على هدى، يحسبون المجيبين لداعي الله في ضلال!.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾:

إن حماقى الطغيان قد يرون ترك الله لهم يوم الدنيا إعجازاً في الأرض فعجزاً له عن عذابهم، ثم ولا يقدر أن يحيي الموتى للجزاء رغم وعده، ولكنهم ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ﴾ مع ما يرون من آثار قدرته وسلطانه ﴿أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ كما هم معترفون: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾(٢): ثم ﴿وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ - ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾(٣) فالخلق الأول هو في الأولى، والثاني هو الإعادة خلقاً في الأخرى - والعي بالأمر هو العجز بسببه بعد وقوعه أو مصاحباً عجزاً معرفياً أو في القدرة، فالذي لم يعِ بخلق السماوات والأرض، فهل يعيى أن يحيي الموتى، وقد أحياكم ولم تكونوا شيئاً مذكوراً!

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٢٢.
(٢) سورة الزمر، الآية: ٣٨.
(٣) سورة ق، الآية: ١٥.

أولم يروا أنه ﴿بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧىَ ٱلۡمَوۡتَىٰۚ﴾ وهو أهون عليه وأدنى: ﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ﴾[1] (بلى) إنهم رأوا وهم ناكرون ﴿بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ من هذا وذاك ﴿قَدِيرٌ﴾.

إن نفي العيِّ بالخلق هنا تعريض بنكران المشركين: كيف وأنه خالق الكون، عاجز عن إحياء الموتى؟ وكذلك بما تسرَّب في التوراة من هذه الأساطير الواهية: أنه تعالى استراح في اليوم السابع من خلقه، كأنه عيي بخلقه ولغب: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٖ﴾[2].

﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴿٣٤﴾﴾:

عرض لهم على النار في الأخرى لتشتريهم، كما شروا أنفسهم بموجباتها في الأولى، ثم تعريض بكلمة لاذعة: ﴿أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۖ﴾ ثم تحويل لهم إلى النار وبئس القرار: فهم إذاً في ثالوث العذاب جزاءً من ربك عذاباً وفاقاً، كما كانوا في الأولى يعرضون أنفسهم على نيران الشهوات، ويعرضون عن الموعظات تعريضاً بتفكهات، ويذيقون أهل الحق بمختلف العذاب: نفسياً وجسدانياً، فيوم العرض يجمع لهم بين رؤية العذاب - وهو حقيقة أعمالهم - وبين واقعه: يتوسطها سؤال قارع نفوسهم، عذاباً فوق العذاب، ثم جواب يلوي أعناقهم ويلدغ أعماقهم: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ﴾! بكل مذلة وارتياع، يحلفون بربهم الذي كانوا به يكفرون، إن عذابه هو الحق الذي كانوا ينكرون، وهنالك الجواب مع انتهاء الحوار البوار: أن وقع الحق وبطل ما كنتم تهرؤون وإليه تهرعون: ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾.

(١) سورة غافر، الآية: ٥٧.
(٢) سورة ق، الآية: ٣٨.

هذه نهاية الحجة الدامغة القارعة على الذين كفروا، بعرض البراهين كلها ولحد كأنهم يشهدون مشهد العرض يوم العرض، ومن ثم تصبير للرسول ﷺ وتسكين لخاطره الشريف عما يلقاه من أذيات، تصبراً في سبيل الدعوة على عزم كما صبر أولو العزم:

﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾:

ألا يا أيها الرسول! إنه لطريق شاق مرير، فيه دماء تسيل من أشلاء تفرش فيه ألوان الأذيات والحرمانات، وفيه ما لا يتصبر عليه إلا أولو العزم الراسخ ويعون الله ﴿فَاصْبِرْ﴾:

صبراً يصمدك في وجه الطغيان، صبراً يقدمك في اجتياز تلك العقبات، فانظر إلى سيرة أولي العزم من الرسل ماذا تحملوا من المشاق والعقوبات ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾: ولقد صبر كما أمر على مكروهها ومحبوبها[(١)].

وترى من هم أولو العزم من الرسل؟ من الواضح أنهم أفضلهم قبل أن نعرف معنى عزمهم، لمكان «من»: فهم بعضهم، وأن خاتمهم - وهو أفضلهم أجمع - لا يؤمر إلا بتصبر البعض الأفضل، بل وأفضل منهم، ولأنه يحمل أفضل الشرائع وأعظمها وأعزمها.

ثم العزم هو الثبات والجد والفرض والصبر والحزم: أن سبقوا الأنبياء

---

(١) الدر المنثور ٦: ٤٥ - أخرج ابن أبي حاتم والديلمي عن عائشة قالت: ظل رسول الله ﷺ صائماً ثم طوى ثم ظل صائماً ثم طوى ثم ظل صائماً قال: يا عائشة! إن الدنيا لا تنبغي لمحمد ولا لآل محمد يا عائشة! إن الله لم يرض من أولي العزم من الرسل إلا بالصبر على مكروهها والصبر على محبوبها ثم لم يرض مني إلا أن يكلفني ما كلفهم فقال: فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل - وإني والله لأصبرن كما صبروا جهدي ولا قوة إلا بالله.

في إقرارهم بالله، وثباتهم دون تفلت في الدعوة إلى الله[١]، وحزمهم في سبيل الدعوة إلى الله، وعموم شرعتهم إلى عباد الله[٢] واستقلالها عمن مضى من أنبياء الله فبقاء شريعتهم وعزمها حتى يأتي ولي عزم آخر من الله أم إلى لقاء الله[٣].

فهم إذاً أصحاب عزم في طاعة الله ثباتاً على عهده، لا كآدم عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾[٤]: في عهدنا إليه ألا يطيع الشيطان: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾[٥].

---

(١) بحار الأنوار ج ١١ ص ٣٣ ج ٣٠ عن الإمام الصادق عليه السلام في معنى أولي العزم «أي أنهم سبقوا الأنبياء إلى الإقرار بالله وأقروا بكل نبي كان قبلهم وبعدهم وعزموا على الصبر مع التكذيب لهم والأذى».

(٢) المصدر ج ٢٥ عن الإمام الصادق عليه السلام «بعثوا إلى شرق الأرض وغربها» «و جنها وإنسها» كما في ج ٦١.

(٣) أصول الكافي بإسناده عن سماعة بن مهران قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ: فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل: فقال: نوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم قلت: كيف صاروا أولي العزم؟ قال: لأن نوحاً بعث بكتاب وشريعة، وكل من جاء بعد نوح أخذ بكتاب نوح وشريعته ومنهاجه حتى جاء إبراهيم بالصحف، وبعزيمة ترك كتاب نوح لا كفراً به، فكل نبي جاء بعد إبراهيم أخذ بشريعته ومنهاجه وبالصحف حتى جاء موسى بالتوراة وشريعته ومنهاجه وبعزيمة ترك الصحف، فكل نبي جاء بعد موسى أخذ بالتوراة وشريعته ومنهاجه حتى جاء المسيح عليه السلام بالإنجيل، وبعزيمة ترك شريعة موسى ومنهاجه، فكل نبي جاء بعد المسيح أخذ بشريعته ومنهاجه حتى جاء محمد صلى الله عليه وآله وسلم فجاء بالقرآن وبشريعته ومنهاجه، فحلاله حلال إلى يوم القيامة وحرامه حرام إلى يوم القيامة فهؤلاء أولو العزم من الرسل. ومثله في عيون أخبار الرضا عنه عليه السلام بزيادة: وهم أفضل الأنبياء والرسل وشريعة محمد صلى الله عليه وآله وسلم لا تنسخ إلى يوم القيامة ولا نبي بعده إلى يوم القيامة فمن ادعى بعده نبوة أو أتى بعد القرآن بكتاب فدمه مباح لكل من سمع ذلك منه.

والكافي بإسناده عن ابن أبي يعفور قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: سادة النبيين والمرسلين خمسة وهم أولو العزم من الرسل وعليهم دارت الرحى: نوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم وعلى جميع الأنبياء.

(٤) سورة طه، الآية: ١١٥.

(٥) سورة طه، الآية: ١٢١.

وأصحاب عزم في الدعوة إليه، لا مثل ذا النون: ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(١): من المنتقصين في الدعوة!.

ثم وأصحاب عزم في شعاع الدعوة أن تشمل المكلفين أجمع دون تفلت أحد فإنه خلاف العزم الشامل! وعزم في أصل الدعوة استقلالاً عمن سبق، وعزم في بقاء الدعوة لفترة طالت أم قصرت ثم تنسخ أم إلى يوم القيامة، وفي صيغة واحدة: عزم في كل ما تتطلبه الدعوة والداعية والمدعو إليهم، في مثلث حازم عازم صارم!.

ولقد دلت آيات، ومن ثم روايات أنهم سادة النبيين والمرسلين: مَن دارت عليهم الرحى: «نوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد ﷺ»(٢): الذين أخذ الله عليهم خصوص العهد بعد عمومه: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ٧ لِّيَسۡـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدۡقِهِمۡۚ وَأَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمٗا ٨﴾(٣).

والذين شرع لهم من الدين دون سواهم: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾(٤).

ثم و«محمد ﷺ» آخرهم مبعثاً وأولهم ميثاقاً، فبعثه إلى أرواحهم في الروح كما توحي آية الميثاق: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٨٧.
(٢) الهامش في الصفحة السابقة برقم (٣).
(٣) سورة الأحزاب، الآيتان: ٧، ٨.
(٤) سورة الشورى، الآية: ١٣.

﴿ٱلشَّٰهِدِينَ﴾(١) فهو رسول مصدق لما معكم: ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ جاءكم في الروح قبل مجيئه بسواه: جاءكم رسولاً فأنتم كأمته: ﴿لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ﴾! ولم يؤمر أي نبي أن يؤمن بآخر وإن كان أفضل منه، وهو من أولي العزم - إلا تصديقاً بسواه وإن كان أدنى منه - اللهم إلا إيماناً بعد تصديق بخاتم المرسلين(٢). لذلك تُقدمه في ميثاق النبوة آيةُ الميثاق الأخرى: ﴿وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ...﴾(٣) رغم تأخره في البعثة! وتُفرده آية الشرعة بـ ﴿ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ﴾ دون تعميم بـ(ما أوصى) كأن شرعته فقط هي الوحي (الذي) تدور عليه الرحى دون غيرها، إيحاء بأن الشرائع كلها شرعة من ﴿ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ﴾ تحمل (ما أوصى) إلى نوح وسائر الأنبياء الذين دارت عليهم الرحى، توصيات تنحو نحو «الذي أوحينا» فما تقدّمها على «الذي أوحينا» إلا كتحضيرات بخطوات، تمشي بها تعبيداً لطريقها وتعويداً عليها.

فهي هي كلها وزيادات: نسخاً لشيء من أحكامها الموقتة، واستمرارية التكملة لها كلها لحد لا تنسخ إلى يوم لقاء الله، مشعّة وضاءة على قلوب وأفكار العالمين:(٤): ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ﴾(٥) هيمنته الإمام على المأمومين، وكما الله مهيمن على العالمين: ﴿ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ﴾(٦).

من هذا المثلث البارع في براعة الرسول نعرف أن عزمه أعزم من

(١) سورة آل عمران، الآية: ٨١.
(٢) التفصيل إلى محله في تفسير آية الميثاق.
(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣.
(٤) أصول الكافي باب الشرايع علي بن إبراهيم بإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن الله تبارك وتعالى أعطى محمداً صلى الله عليه وآله وسلم شرايع نوح وابراهيم وموسى وعيسى.. وفضله بفاتحة الكتاب وبخواتيم سورة البقرة والمفصل.
(٥) سورة المائدة، الآية: ٤٨.
(٦) سورة الحشر، الآية: ٢٣.

عزمهم، وأعظم، كما شرعته أعظم من شرعتهم وأعزم، فلا يعني التشبيه: ﴿كَمَا صَبَرَ﴾ إلا أصل المشابهة، لا المساواة في عزمهم، فإن لكل داعية ودعوة عزماً يناسبها ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ ومن فروعه:

﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾: العذابَ رغم ما يستعجلون. فـ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ﴾ إذا هم من أجداثهم إلى ربهم يحشرون ﴿كَأَنَّهُمْ ... لَمْ يَلْبَثُوٓاْ﴾: في الحياة الدنيا وفي البرزخ ﴿إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ إذ يستقلون الأولى - مهما كانت طويلة - بجنب الأخرى[1]: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾[2] ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾[3] فمهما كان لبثهم قليلاً فليس ساعة من نهار وإنما لبثٌ إلى يوم البعث برزخاً وقبله، فهو قلة ليست كتلك القلة: ﴿سَاعَةً﴾ وإنما بجنب الأخرى! (فما بين الأولى والأخرى إلا غمضة عين)[4] فاغمض عينك في الأولى عما تهوى حتى تقر في الأخرى فيما تهوى - وذلك:

﴿بَلَٰغٌ﴾ للناس أجمعين، وللناكرين ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾: الخارجون عن طاعة الله، بما خرجوا عن حكم العقل والفطرة، إذاً فليبصر الداعية، وليصمد في الدعوة، فما هي إلا حياة خاطفة أياماً قلائل تنقضي فيعذبون بها طويلاً ﴿فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا﴾[5] ثم وتنعم أنت والمؤمنون طويلاً!.

---

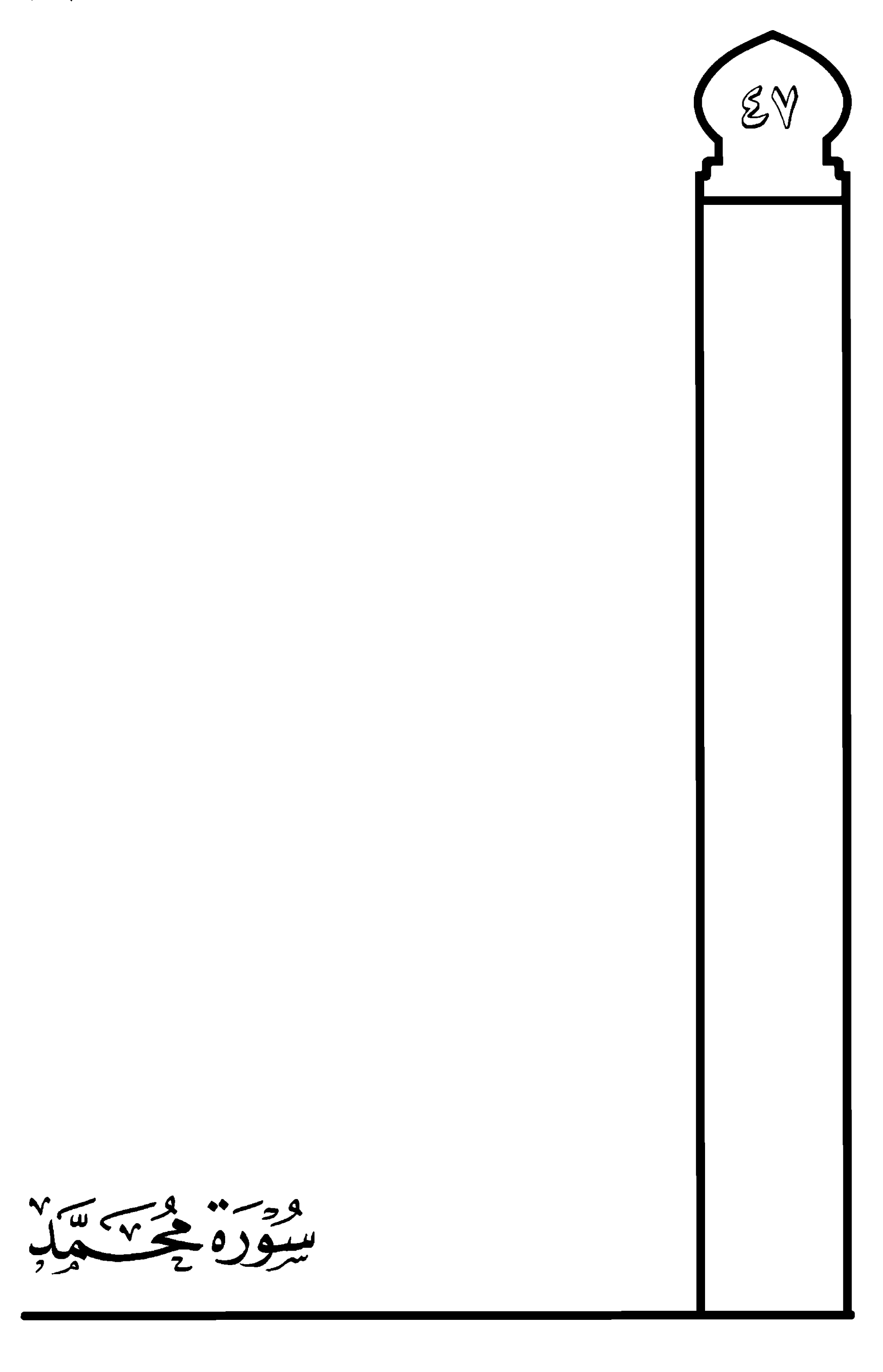
(١) راجع ج ٣٠ من الفرقان حول الآية ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ [النّازعات: ٤٦].

(٢) سورة يونس، الآية: ٤٥.

(٣) سورة الروم، الآيتان: ٥٥، ٥٦.

(٤) روضة الواعظين للشيخ ابن الفتال: قيل للنبي ﷺ كم ما بين الدنيا والآخرة؟ قال: غمضة عين، قال الله عز وجل: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾.

(٥) سورة التوبة، الآية: ٨٢.


٤٧
سُورَةُ مُحَمَّدٍ



سُورَةُ مُحَمَّدٍ

مدنية - وآياتها ثمان وثلاثون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ ۛ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن

قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾

إنها سورة «محمد» إذ تفتتح بفرض الإيمان به كشرط أصيل للإيمان بالله والعمل الصالح، وإلا: فـ ﴿أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ وهي أيضاً سورة «القتال» إذ تحمل لفظة القتال: ﴿وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ﴾ وعلها تعنيها، وكما تحمل معناه: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ وهي - أخيراً - سورة: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ فإنها الآية البادية لها[1]. فهي إذاً سورة: محمد - القتال: الذين كفروا - تبرز محمداً ﷺ كمقاتل مقدم يقود حزب الله في حرب أعداء الله!.

هذه السورة تحمل سيرة المؤمنين والذين كفروا في الدنيا ومصيرهم في الأخرى بما تصف من أعمالهم، ففريق في الجنة وفريق في السعير ولا يظلمون من نفير:

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾﴾:

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ هم ﴿وَصَدُّواْ﴾ أنفسهم وغيرهم ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أن سدوا هذه السبيل عن عباد الله، فصدوهم عن سبيل الله: منعاً للناس عن الاتصال

(١) في كتاب ثواب الأعمال بإسناده إلى أبي عبد الله عليه السلام قال: من قرأ سورة ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وفي الدر المنثور ٦: ٤٦ عن عبد الله بن الزبير قال نزلت بالمدينة سورة ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وفيه عن ابن عباس روايتان: أنزلت سورة القتال بالمدينة.. سورة محمد»..

برسول الله، وتضليلاً للواصلين كيلا يواصلوا سيرهم إلى الله، أو يرجعوا فيكفروا كما هم كفروا فيكونوا سواء في الكفر بالله، وهم يأملون النجاح بما يعملون[1] اهتداء إلى بغيتهم في ضلالهم وفي إضلال عباد الله - هؤلاء: ﴿أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾: ﴿أَضَلَّ﴾ الله ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾ بما أضل كُفرُهم وصدهم عن سبيل الله[2] فأعمالهم في كفرهم وصدهم لا تهتدي إلى آمالهم، فهم مع أعمالهم وآمالهم هواء هباء، لا ينتهون وتنتهي إلا إلى حبط وضياع، فالله تعالى منهم براء ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾[3] ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[4].

فالذي ينوي صالحاً ويعمل صالحاً فيأمل بينهما صالحاً فالله يهديه إلى ما يأمل في أولاه أم أخراه، وأما من ينوي صالحاً ويعمل غير صالح، فقد يهديه بنيته أو يضله بعمله فمُرجى أمره إلى الله ولا سيما الجاهل بمرضاة الله قاصراً غير مقصر، وأما ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فـ ﴿أَضَلَّ﴾ كفرهم ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾ وأضل الله بها، فلا يهتدون في أعمالهم وآمالهم سبيلاً إلا سبيل جهنم وأولئك هم وقود النار.

ولقد صدق قول الله للذين كفروا وصدوا من مشركي مكة في دنياهم قبل أخراهم بفتح مكة!.

وإن كان ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يعمهم وأضرابهم أياً كانوا وأنى وأين؟ فإنما هو الكفر والصد عن سبيل الله. من غابرين أو من يستقبل أو حاضرين، وكما نلمسه على طول الخط فـ ﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[5].

---

(١) فالكفر والصد عن سبيل الله يحملان أملاً هادفاً، ثم الضلال يعني قطع هذا الأمل عن هكذا عمل.

(٢) ما أجمله الجمع بين فاعلين لـ «أضل» هما: الله وكفرهم وصدهم عن سبيل الله، فإن الله لا يزيغ إلا من زاغوا ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصَّف: ٥].

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢١٣.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٦٤.

(٥) سورة الإسراء، الآية: ٨١.

وكما أن الكفر والصد عن سبيل الله دركات، كذلك ضلال الأعمال دركات فالذي يكفر مستضعفاً فيصد بكفره - دون قصد - آخرين من أمثاله، فضلال أعماله ضعيف كضعفه، والذي يستكبر ويستضعف، ويصد - هادفاً - عن سبيل الله بشتى المحاولات، والدعايات فضلال أعماله أضعاف، وبينهما متوسطات.

كما وأن ضلال أعمالهم لا تختص بكفرهم وصدهم، بل والصالحات التي تصدر عنهم أحياناً، فإنها أيضاً غير صالحة فحابطة إذ لا تقوم على أساس الإيمان والنية الصالحة فهي إذاً فلتة عارضة، أو نزوة طارئة لأنها ليست من نبعة فائضة، فلا تجري إلى مجاري الحياة والإنبات، وإنما غور وممات.

أم - ولا أقل - هي حابطة في الأخرى، مهما كانت ناتجة ناجحة في الأولى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾(١). . هذه صالحاتهم فكيف بطالحاتهم؟!.

إذاً فالكافرون الصادون عن سبيل الله هم في مثلث أعمالهم ضالون فلا يهتدون سبيلاً(٢). وأما المؤمنون:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾﴾:

مثلث الصالحات قبال ثالوث الطالحات يستوجب من الله رحمات: فلا فحسب أن الله يهدي أعمال الذين آمنوا وعملوا الصالحات في صالحاتهم، بل وفي تكفير سيئاتهم، ولحدّ قد يبدلها حسنات، ثم ويصلح بالهم: شأنهم

(١) سورة هود، الآيتان: ١٥، ١٦.
(٢) ١ - في عمر الكفر والصد ٢ - وفي أعمال الخير التي لا تهدف مرضاة الله ٣ - وفي سائر الأعمال التي ليست صداً ولا خيراً.

وقلبهم وحالهم، إذاً فهم في مثلث الهداية، بينما الله يضل أعمال الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله: يضلها طالحات وصالحات ويضل بالهم بما ضلوا: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ﴾[١] فهم إذاً في ثالوث الضلالة.!

وترى ما هو إيمانهم الأوّل قبل الصالحات، وما هو الثاني بعدها؟ ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾! أفلم تكن الصالحات مع إيمانها حقاً من ربهم؟

علّ الإيمان الأوّل يشمل الثاني بدليل الصالحات وإطلاق الإيمان، فهو الإيمان بما يتوجب، المؤهل للأعمال الناتجة عنه أن تكون صالحات، فليشمل الإيمان بمحمد وبما نزل على محمد، ولكن النازل على محمد يحتمل القمة العالية في الإيمان، ففيه الإيمان بسواه وزيادة، وفيه ما يستحكم عرى الإيمان، فكأنه ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ لا سواه، فهو هو الإيمان الحق من ربهم لا سواه، وهو النازل من ربهم حقاً، فالكافر بما نزل على محمد، الناكر له، إنه كافرٌ أياً كان، موحداً أم كتابياً أو مؤمناً بمحمد كافراً بما نزل عليه، فما لم يؤمن بما نزل عليه وأصله قرآنه المتين فليس من المؤمنين، فـ ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾: ما نزل على محمد والإيمان به[٢]: حق النزول وحق الإيمان، فما سواهما من النازل والإيمان به، كأنه في جنبه لا يحسب له حساب، ولأنه في ضمنه فلا يستقل عنه.

ثم «وما نزل على محمد» منه الأصل كوحي الكتاب وهو الثقل الأكبر، ومنه الفرع كوحي السنة وهو الثقل الأصغر، يحملها صحيحاً فيمن يحملون عترة رسول الله ﷺ، وقد نزل على محمد في وحي الكتاب: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾[٣] وعشرات أمثالها، فـ «ما نزل» إذاً يعم عامة الوحي: كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.

---

(١) سورة الصف، الآية: ٥.
(٢) ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾ كما يعني النازل من ربهم، كذلك الإيمان بالنازل من ربهم فهما إذاً معنيان.
(٣) سورة النساء، الآية: ٨.

وهؤلاء الأماجد: ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ التي كانت قبل الإيمان بالإيمان: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[1] والتي تحصل بعد الإيمان به وبالصالحات: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[2] ثم ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾:

وإصلاح البال يشمل بال الحال أية حال: شأناً وقلباً وعقلاً ولباً وعلماً وإيماناً - وعلى أية حال: دنيا وعقبى، فيلقي على الروح ظلال الطمأنينة، ومن إصلاح البال تكملة الإيمان، بما آمنوا وعملوا الصالحات، وبالتوبة، فاستزادة من حسنات وتكفير لسيئات ولحد تبديلها بحسنات: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[3] تبديلاً بما تابوا فلا يأتوا بعدُ إلا بحسنات، فيثابون كذلك أن تبدل سيئاتهم فيما مضى بحسنات، ومن أقله تكفيرها.

ثم وليست هذه وتلك فوضى جزاف، بل بأسباب من هؤلاء وهؤلاء استحقوا بها هذه وتلك:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾﴾:

فاتّباع الباطل يُتبع العمل الحابط الباطل، ضلال تلو ضلال، كما اتباع الحق يُتبع العمل الحق وصلاح البال، ثم وليس عرض الكفار بأعمالهم وآمالهم فَضَلالهُم، ولا عرض المؤمنين بصالحاتهم فتكفير سيئاتهم وإصلاح بالهم، ليس إلا مثلاً يضرب به لكتلة الحق والباطل أياً كانوا، ليضرب في أعماق الحياة، بين الذين آمنوا مع بعض، وبين الذين كفروا مع بعض، كما

(١) سورة الأنفال، الآية: ٣٨.
(٢) سورة هود، الآية: ١١٤.
(٣) سورة الفرقان، الآية: ٧٠.

بين الذين كفروا وصدوا، والذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولا يختص حكم الحبط بالكافر الصاد، مهما كان أحبط من الكافر غير الصاد، كما ولا يختص بالكافر، فيشمل المؤمن المرائي أم من ذا، بسائر هؤلاء الذين تحبط أعمالهم، دنيا وعقبى، كلاً أو بعضاً، كما لا يختص تكفير السيئات وإصلاح البال بالمؤمنين الكاملين، وإنما لهم الأكمل، ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[1] السورة، «كذلك» الضابطة العامة مع كونها حقاً واقعاً ﴿يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾ فهو مثل يقاس عليه كل من اتبع الحق أو الباطل، كهذا المثل أم سواه في مختلف درجات الإيمان ودركات الكفر، أو الفسوق والاعتدال.

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَاۚ ذَٰلِكَۖ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾﴾:

.. وإذ عرفتم موقفكم من الإيمان، وكيف أن الله يصلحكم ويهديكم دون الكافرين الذين لا مولى لهم:

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ في معركة الشرف والكرامة: حرب الدفاع، والوقاية، أو إزالة العقبات عن سبيل الله، وبعد الايعاظ إليهم، والاحتجاج عليهم: ببالغ الحجة وواضح المهجة، فلم يتعظوا، واستمروا في غيهم وبغيهم - إذاً: «فـ» لا عليكم إلا «ضرب الرقاب» رقاب رقبات الشر ورغبات الكفر والإلحاد، وإنما «الرقاب» وليس الرؤوس؟ لأنهم غربت عقولهم وجمدت أدمغتهم لحد كأنهم لا رؤوس لهم كإنسان مهما كبرت رؤوسهم في الطغيان: ﴿فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾[2]

---

(١) سورة الأحقاف، الآية: ١٩.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ١٢.

فعند لقاء هؤلاء الحماقى فاضربوا «ضرب الرقاب» لا فحسب ضرب الأطراف الأخرى التي تشل ولا تقتل، وإنما حسماً لمواد الفساد السامة للمجتمع لا عليكم إلا «ضرب الرقاب» ولحد الإثخان:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ﴾ والإثخان هو القتل الضريع الشديد الكثير الذي تتحطم به قوة العدو بحيث لم يبق له رمق الهجوم ولا الدفاع ولا الفرار، فليس القصد إلا تهاوي قواهم الشريرة الضارية وكسر شوكتهم حتى لا يقوم لهم ساق ولا قائمة تقوم بالصد عن سبيل الله أو الهجوم على حرمات الله، فمن ثم يأتي دور أسرهم بشد الوثاق، فيمن تبقى: شدهم في أسرهم أمناً عن الانفلات، وهيمنة على الأمن.

فلا وثاق للعدو الضاري ولا شدَّ فيه حتى الإثخان إذ الغاية ليس هو الأسر، ثم منٌّ أو فداء، وإنما هي إزالة القوة المعتدية عن ساحة الإسلام. فـ ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٦٧ لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٦٨﴾[(١)].

ولا تدافع بين الآيتين رغم ما قيل، فآية الأنفال تنهى عن الأسر قبل الإثخان، وهذه تأمر بالأسر بعد الإثخان، ولقد نقم بعض الطامعين الطامحين رسولَ الهدى لماذا لا يكون له أسرى ننتفع بها قبل أن يثخن في الأرض، فتقل الأسرى وبعد ما نخسر من قتلانا بغية الإثخان، فجاء الجواب الناقم الحاسم: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ...﴾[(٢)] فحروب الأنبياء لا تعني غنائم الأموال والنفوس وتفتُّح البلاد، وإنما تفتح القلوب أو دفع الأخطار عن ساحة الإسلام، وإنما شوكة الإيمان ونهكة الكفر، لا استغلالها لتجارة

(١) سورة الأنفال، الآية: ٦٧، ٦٨.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٦١.

الغنائم والأسرى، ولمن يخسرون المعارك لصالح الكفار، الذين يهاجمونهم قبل انتهاك قواهم فيقتلونهم ويرجعون أسراهم، فهذه انتفاضة خاسرة تستوجب العذاب العظيم في الدنيا وفي الآخرة، وإنما هي فقط: «أن يثخن في الأرض»: ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ﴾ ثم ماذا بعد الإثخان والوثاق»؟:

﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ ويا لها من جملة جميلة فريدة في القرآن تحمل أجمل المواجهات لأخطر الأعداء وبعد إثخانهم، عند القدرة والسيطرة الحاسمة لجنود الإسلام عليهم، فشدُّ وثاقهم بأسر، أفبعد هذا وذاك ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ﴾ وبتسريحهم وتحريرهم دون مقابل، ولا بأسرى المسلمين، الذين هم في أيديهم وطبعاً معذبون؟ أجل! ولكي يستفيقوا من غفوتهم وغفلتهم لو كان لهم ضمير، فيهتدوا إلى هدى الإسلام، التي هي البغية الأولى والأخيرة، وإذا لا يستحقون هكذا من - وعندما لا يؤمل خيرهم - فالشق الأخير: ﴿وَإِمَّا فِدَآءً﴾: أيَّ فداءٍ: بتحرير مقابلٍ من أسرى المسلمين إن كانوا[1]، أم أخذ مال، أم ولا أقل: أخذ ميثاق وثيق ألا يرجعوا للحرب، أو يتجسسوا لصالح كتلة الفساد، أو يضللوا المسلمين عن دينهم، وفي الحق إن ذلك كله منٌّ من الله عليهم أن يداروا لهذا الحد، فيحرَّروا دون قتل[2] ولا فتك ولا ضرب مبرح، ولا إجاعة ولا تعطيش ولا أي من النقمات المتداولة بين المتحاربين، اللهم إلا أن يشذ شاذ فيُقتل[3] وطبعاً: لا بجريمة القتل

---

(١) الدر المنثور ٦: ٤٦ - أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن عمران بن حصين أن النبي ﷺ فادى رجلين من أصحابه برجلين من المشركين أسروا.

(٢) المصدر عن الحسن قال: أتي الحجاج بأسارى فدفع إلى ابن عمر رجلاً يقتله فقال ابن عمر: ليس بهذا أمرنا إنما قال الله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ [محمد: ٤].

(٣) كعقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث إذ أمر رسول الله ﷺ بقتلها بعد أسرها يوم بدر كما يروى عن ابن جريج، وقتل يوم أحد أبا عزة الشاعر بعد أسره، وقتل بني قريظة بعد نزولهم على حكم سعد بن معاذ، وذلك كله حكم هامشي إذا لزم الأمر، خارج عن الضابطة العامة في الأسرى ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾.

والأسر، وإنما لأمر مّا يستحق به القتل، كأن يتجسس، أو يتحسس منه ذلك أم سواه، مما يخاف منه على كيان الإسلام أو المسلمين، أو يسترق - دونما حبس يحبس عنه محاولة الإيمان أم ماذا، ويكلّف بيت مال المسلمين عبئاً وحملاً!. وإنما يسترق دفعاً عن طوارئ الفساد إذا تحرر، عندما لا يطمئن فداء - وتأميناً وتوطيناً له على الإسلام، إذا عاش جوّةَ في بيت مسلم فرأى ازدهاراً في كل زواياه الحيوية، وثم إذا آمن يعتق بمختلف أسبابه، فما الرق في الإسلام أصلاً اقتصادياً، أو سياسة تعذيبية، أو نقمة من الأسرى، وإنما كياسة ونعمة وثقافة، كآخر الأدواء لذلك الداء العضال!.

ذلك، ولكنما الأصل المعول عليه بعد إثخان الحرب هو المن أو الفداء اللهم إلا إذا بقيت الداء فتداوى ببقية الأدواء: استرقاقاً أم ماذا، وأخيراً قتلاً إذا لم تبق دواه إلا القتل، فآخر الدواء الكيُّ! وإنما هو تفتح القلوب ما أمكن، أو صدّ الهجوم على حرمات الإسلام مهما أمكن، دون انتقام وحملة وحشية بدوافع نفسية أم ماذا، فالحرب الإسلامية في صيغة واحدة: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لا سواه!

فلا يقتل الأسير(١) لكفره أو أسره، ولا يعذب ولا يجاع أو يعطش، ولا يلحق فارّ، ولا يجهز على جريح، ولا يعاقب صغير ولا كبير أو امرأة(٢)، اللهم إلا إذا لزم الأمر، وفي ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾! فنصُّ المن والفداء يتضمن حكم أسرى الحرب بما هم أسرى، وسائر النصوص تتضمن حالات أخرى وإن كانت تشمل الأسرى فلا تدافع بينها لمن تدبرها حق تدبرها!

---

(١) المصدر - أخرج ابن أبي شيبة وابن جرير عن القاسم بن عبد الرحمن، قال: بعث النبي ﷺ سرية فطلبوا رجلاً فصعد شجرة فأحرقوها بالنار فلما قدموا على النبي ﷺ أخبروه بذلك فتغير وجه رسول الله ﷺ وقال: «إني لم أبعث أعذب بعذاب الله، إنما بعثت بضرب الرقاب وشد الوثاق»

وقد روي عن الحسن أن رسول الله ﷺ هكذا صنع بأسرى بدر مناً أو فداء.

(٢) الدر المنثور ٦: ٤٧ - أخرج عبد الرزاق عن الضحاك بن مزاحم قال نهى النبي ﷺ عن قتل النساء والولدان إلا من عدا منهم بالسيف.

وترى أن ضرب الأعناق ومن ثم شد الوثاق ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ - ترى إن ذلك حتى متى؟ ذلك: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ فإذا وضعت فلا شد للوثاق ولا أي وثاق حتى يكون منٌّ أو فداء، اللهم من لم يمنَّ أو لم يفد من المشدودين قبل وضع الأوزار، وإذ لا وثاق فلا ضرب للرقاب وأحرى!.

وأوزار الحرب هي أثقالها الأوضار، من قتالها قل أو كثر، ومن أي فعالها ومخلفاتها، كأسر من جانب العدو فيقابل بشد الوثاق، أم ماذا فيعتدى عليه بمثل ما اعتدى: فإذ لا عداء ولا اعتداء فلا وثاق.

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ . . . فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ . . . فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ . . . حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ كل أوزارها، فإذا لا وزر فلا حرب، وإنما صلح وصفاء، فلماذا - بعد - استيزار بشد الوثاق أم ماذا؟

«ذلك»: البعيد الغور في سياسة الحرب الإسلامية، مما تتوجب عليكم امتحاناً بلوى دون امتهان، فالدنيا هي دار امتحان، وإلا ف:

﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ دون أن تتكلفوا القتال، انتصار الانتقام أن يهلكهم كما أهلك ممن قبلهم بعذابات من فوقهم أو من تحت أرجلهم، كآيات معجزات، لا كقاعدة عامة في الانتصار - لا! ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾: بلوى حسنة للذين آمنوا وإن كانت صعبة، وبلوى سيئة للذين كفروا، وليس الانتصار دائماً لكتلة الحق حربياً، مهما هم منتصرون واقعياً ﴿لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ ثم وليس القتلى في سبيل الله هلكى ضالة أعمالهم: أن قاتلوا فقتلوا فضلوا تحت التراب، أو ظلوا - لذلك - في تباب، ولا سيما إذا غلب المسلمون - بل:

﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾: فلا أن الله يضل أعمالهم دنيا أو عقبى، ولا أن القتل يضل أعمالهم، رغم أن الكافرين ﴿أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ حين ما عملوا وبعده، ولكنهم أولاء ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ عاجلاً ولا آجلاً - بل:

﴿سَيَهۡدِيهِمۡ وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ ۝٥ وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمۡ ۝٦﴾:

عمل واحد في سبيل الله، تشملهم به مثلث بارع من رحمات الله: هداية وإصلاح بال ودخول الجنة! وهي كلها بعد الشهادة: ﴿قُتِلُوا . . سَيَهۡدِيهِمۡ وَ. .﴾ وكما هداهم وأصلح بالهم ووعدهم الجنة قبل الشهادة.

وعل هدايتهم بعد الموت - إضافة إلى هدى الجنة ومزيد المعرفة - هي هدايتهم إلى أن قتلهم لم يذهب هدراً، وإنما وضاءة مشعة للإيمان والمؤمنين، ولكي يهتدوا بهدي الشهادة فيقدموا دعوة الإسلام ويصبغوها بدماء الشهادة تدليلاً أن أرواحهم تزهق ولا يزهق الإيمان، يهديهم الله بعد قتلهم، إن دماءهم نبعة فوارة تفور وتثور على الكافرين لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى.

﴿وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ﴾ بما يتبهجون في البرزخ بغفران سيئاتهم وأن ليسوا أمواتاً ﴿بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ۝١٦٩ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝١٧٠ يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝١٧١﴾[1]: من ثم ﴿وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ﴾ في البرزخ وفي القيامة - الجنة التي ﴿عَرَّفَهَا لَهُمۡ﴾ منذ الدنيا بالوحي، وفي البرزخ والآخرة بشارة وواقعاً في حق اليقين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝٧﴾:

. . إن تنصروا الله: تنصروا إلى الله ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ﴾[2]: تنصروا رسول الله ﷺ إلى صراطه المستقيم وسبيله القويم فإلى الحياة القيمة التي خططها الله لصالح العباد، وتنصروا عقولكم في العقل عن الله، وصدوركم في الانشراح بآيات الله

---

(١) سورة آل عمران، الآيات: ١٦٩-١٧١.
(٢) سورة الصف، الآية: ١٤.

وقلوبكم في الإيمان بالله، وألبابكم في الحصول على عمق المعرفة بالله، تجنيداً لكل هذه الجنود في سبيل الله، في معتركات الحياة بين كتل الحق والباطل، ففلحا في الحصول على مرضاة الله وفلجا لمن يصد عن سبيل الله.

إن تنصروا الله في الدفاع عن شريعة الله والحفاظ على شعائر الله ودفع النسناس عن شريعة الناس: ﴿. . . وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾[١].

فالله هو الذي يدفع الأشرار بالأبرار تشريعاً وتكويناً، تحريضاً وتأييداً، فثم إذاً ما اندفعوا وحققوا نصر الله سماهم أنصار الله - أي: الأنصار إلى الله - وفي الحق أنصار أنفسهم في الانسلاك إلى سلك الله: سبيل الله التي هي سبيل صالح الإنسان في الحياة: فلم يستنصركم من ذل وله جنود السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم وإنما أراد أن يبلوكم أيكم أحسن عملاً، وبادروا بأعمالكم تكونوا مع جيران الله في داره رافق بهم رسله وأزارهم ملائكته وأكرم أسماعكم عن أن تسمع حسيس نار أبداً وصان أجسادهم أن تلقى لغوباً ونصباً[٢].

فـ ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ﴾: دين الله وطريقه، وتنصروا حزب الله وفريقه، ومن أصدق مصاديقه الجهاد في سبيل الله قاتلاً أو مقتولاً كإحدى الحسنيين: ﴿قُلۡ هَلۡ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِۖ وَنَحۡنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمۡ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٖ مِّنۡ عِندِهِۦٓ أَوۡ بِأَيۡدِينَاۖ . . .﴾[٣]:

(١) سورة الحج، الآيات: ٣٩-٤١.
(٢) نهج البلاغة للسيد الشريف الرضي نقلاً عن الإمام علي عليه السلام.
(٣) سورة التوبة، الآية: ٥٢.

﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ - هكذا - يَنصُرْكُمْ - فيما نصرتموه - وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾: لكي تستقيموا إليه: ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾[1].. إنه يثبت أقدامكم على الإيمان الجهاد حتى لا تفروا من الزحف، ولا تفلُّوا عن قوة الإيمان إلى ضعف، ولا تملّوا عن الحرمان ولا تفشلوا، فعلى قدر النصر يكون التثبيت ومن ثم ينمو حتى الثبات على الإيمان ولو عند انفلات الروح قتالاً في سبيل الله! فـ[إن الجهاد باب فتحه لخاصة أوليائه، وسوغهم كرامة منهم ونعمة ذخرها، والجهاد لباس التقوى ودرع الله الحصينة، وجنته الوثيقة، فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذلة وشمله البلاء، وفارق الرجاء، وضرب على قلبه بالإسهاب وديث بالصغار والقماءة، وسيم الخسف، ومنع النصف، وأزيل فيه الحق بتضييعه الجهاد وغضب الله بتركه نصرته وقد قال الله عز وجل: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[2]].

ثم إن لتثبيت الأقدام في هذه السبيل جلوات شتى ومجالات: في معارك الكرامة وكافة معتركات الحياة: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ...﴾[3]: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾[4].

وهذه النصرة المطلقة من الله ليست إلا عند مطلق النصرة من المؤمنين بالله: أن يتجردوا في نفوسهم برغباتها لله، فيتجردوا عنها وعن كل نفائسهم حفاظاً على شريعة الله، تفدية لحياة شخصية لإقامة حياة جماهيرية على ضوء دين الله، أو يُميتوا من هو خطر على حياة الشريعة، دونما غبش هنا وهناك

(١) سورة فصلت، الآية: ٦.
(٢) المصدر عن أمير المؤمنين (علي) و: الإسهاب ذهاب العقل و«ديث بالصغار»: ذلل بغير مذلل، والقماءة هو الذلة والصغر.
(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٢٧.
(٤) سورة الأنفال، الآية: ١٢.

ولا غش يغطي: أن يكون الجهاد صيغة واحدة: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وقد سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل رياء، أيٌّ ذلك في سبيل الله؟ فقال: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله[1] فلا راية في الحرب إلا راية: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ دون أية رايات أخرى من حميات وشجاعات وسائر الرغبات.

وترى كيف أن تثبيت الأقدام يتلو النصر هنا وما النصر إلا به: أن تثبت على المحنة والبلاء حتى تنتصر فكيف يتأخر هنا عن النصر؟ أقول: هناك تثبيت أول هو من أداة النصر أن يثبت على المحنة والبلاء، وآخر هو أن يثبت على النصر والنعماء لكي لا ينتصر ببطرهم وزهوهم الأعداء، فكثير هؤلاء الذين ينتصرون، ثم وكثير منهم يخسرون إذ لا يثبتون على شروطات النصر، وقليل هؤلاء الذين يثبتون فيكسرون شوكة العدو على طول الخط دونما رجعة.

إذاً فالنصر الدائب يعيش بين ثباتين اثنين، ثانيهما الأهم فإنه أداة استمرارية النصر وإنتاجه، فليست بداية النصر هي نهاية المعركة، وإنما دوامه الذي يكلف من الثبات أكثر وأكثر، فلذلك يتأخر إثبات الأقدام على النصر: ﴿يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾!.

هذه نصرة المؤمنين وهدايتهم، فكيف إذاً تعسة الكافرين وضلالتهم، وكل إنسان يعمل على شاكلته:

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٨﴾﴾:

﴿فَتَعْسًا لَّهُمْ﴾ سقوطاً على وجوههم يمشون، دون قيام وانتعاش: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[2] مثالان لمشية

---

(١) أخرجه الشيخان وأبو داود والترمذي والنسائي.
(٢) سورة الملك، الآية: ٢٢.

الكافرين والمؤمنين في الحياة، فمشية الكافر تعساً مكباً على وجهه إنما هي في ضلال، وإن كانت بكل دلال وجلال.

ثم وليس التعس هنا دعاء من الله وإنما إخبار أن الله أضل أعمالهم بما أضلها تعسُهم[١]، فسيرة المكب على وجهه في مشيته ليست إلا مصيرة الضلالة، فتعسهم هو السبب لضلال أعمالهم مهما كان الله هو المحقق لضلالهم: تركاً لهم في عيِّهم يعمهون، أو دفعاً لهم في غيهم يمرحون جزاءً بما كانوا يعملون، ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ﴾[٢] فهم وأعمالهم إلى ضياع وفناء، والله منهم براءٌ:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٩﴾:

أحبط الله أعمالهم بما انحبطت بكراهتهم ما أنزل الله، فالضلال هناك هو الحبط هنا، مسبباً عن تعسهم بما فيه كراهة ما أنزل الله!

﴿۞ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ۝١٠﴾:

استفهام تنديد وتبكيت بمن لا يسير في الأرض، في تاريخ الأرض بمن عليها جغرافياً، وفي جغرافيا الأرض تاريخياً، سيراً بدنياً ونظرياً، ليأخذ عِبراً عَبر هذه المصيرة الضاربة في الأرض إلى أكنافها، فالسير في الأرض، في سيَر الأقوام المؤمنة والكافرة، وماذا فعل بهم وماذا بقي لهم من آثار، إن في ذلك لعبرة لمن يخشى، وتخفيفاً لبأس البؤسى الذين لا يخشون الله فهم في طغيانهم يعمهون: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾[٣] ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ

---

(١) ضمير الغائب في أضل يتحمل الرجوع إلى تعسهم كما يرجع إلى الله.
(٢) سورة الصف، الآية: ٥.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٣٧.

يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[1].

هذه الآيات وعشرات أمثالها: إنها لفتات فيها ضجات وفرقعات، مشاهد الأشلاء والدماء من كل دمار وبوار للمكذبين قبلهم، وليأخذوا عنها عبراً في أمثالها: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ كضابطة عامة للكفار في الطول التاريخي والعرض الجغرافي، دون اختصاص بالغابرين، فلمن يستقبل والحاضرين أمثال هذه العاقبة المدمرة، كل على شاكلته ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾!.

فالكافر - أياً كان - عاقبته التدمُّر والتذمُّر، فليكن الغابر أمثولة وعبرة للحاضر، وقد كان بعضهم أشد منهم قوة وأكثر جمعاً، فما بال الأخف الأجوف لا يخشى أمثالها؟!.

ومن ثم قاعدة قائمة في الحياة للذين آمنوا والذين كفروا، تكشف لنا أسباب الدمار لأولاء، وأسباب القرار لهؤلاء في صيغة فريدة تتردد هنا وهناك:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴿١١﴾﴾:

﴿بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ في الحياة الدنيا وفي الآخرة: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾[2] ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ في الحياة الدنيا فضلاً عن الآخرة.

ترى كيف ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ ولهم أولياء مهما كانوا شياطين، يزخرفون لهم دنيا الحياة، وينصرونهم في زهرتها وبهجتها، في جمعها بثروتها، في زعامتها ورئاستها، وفي كل مجالاتها، وذلك بما جعل الله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[3]؟.

---

(١) سورة الحج، الآية: ٤٦.
(٢) سورة غافر، الآية: ٥١.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ٢٧.

نقول: ولاية الله تعني أنها تغني عمن سواه فلاحاً ونجاحاً في الحياة الإيمانية عملاً في الأولى وجزاء في الأخرى، ولا تُغني ولاية غير الله ولا تَعني إلا تأخيراً عن الحياة ومدّاً في الغي والشهوات: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾[1]. والله يمد أولياءه في الطاعات:

ففيما تثبت الولاية للكافرين تَعني ولاية الغي والطغوى، وفيما تُنفى فهي ولاية التقوى، فلو لم تكن لهم أية ولاية لا طغوى ولا تقوى كان أهون لهم وأنجى، فولاية الشيطان الذي يمدهم في الغي هي أنكى من ألّا يكون لهم ولي أصلاً، فـ ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[2] ﴿وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾: يخرجهم من الظلمات إلى النور، وإنما من النور إلى الظلمات مهما زخرفت لهم الحياة الدنيا فهم يعيشون ظلمات الحياة في الأولى بزلاتها وضلالاتها، ويصلوَن في الأخرى سعيراً.

وليس النصر والولاية الموعود أن من الله للمؤمنين إلا نصرهم في تقدم الإيمان والثبات عليه، أن يقيموا على الإيمان ويستقيموا إلى الله وإن زهقت أرواحهم، ثم يوم القيامة يضل الكافرون عن أوليائهم ويضلون عنهم، والمؤمنون يجدون ولاية الله أزهر وأظهر: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾[3].

ففيما يقدم الله أولياءَه للبلاء، أو لا يحول بينهم وبين البلاء، ليس ذلك

---

(١) سورة الأعراف، الآيتان: ٢٠١، ٢٠٢.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥٧.

(٣) سورة يونس، الآيات: ٦٢-٦٤.

تخلياً منه عن ولايتهم، ولا تخلفاً لوعده لهم، وإنما بلاء معه وبعده الرخاء ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾[1] أو ابتلاء بما تخلفوا - في الاولى، ولكيلا يبتلوا بالجزاء الأنكى في الأخرى، فبلاء المؤمن رخاء أو رجاء الرخاء، ونعمة الكافر نقمة وابتلاء، والله منه براء.

فـ ﴿ذَٰلِكَ﴾: الفوز العظيم في الحياة من النصر والتأييد للمؤمنين: أن كفّر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم ويدخلهم الجنة عرفها لهم، وأن الله ينصرهم ويثبت أقدامهم: ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: يلي أمورهم في أولادهم وأخراهم في صراطي التكوين والتشريع فالجزاء الأوفى، لأنهم دخلوا في حظيرة العبودية إيماناً وعملاً صالحاً، فهو هو وليهم وكفى.

وذلِكَ الكبت المهين على الكافرين أن أضل أعمالهم فتعساً وتدميراً في أولاهم، وفي الأخرى النار مثوىً لهم بـ ﴿وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ إلا أسماء لا تحمل مسميات: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾[2].

وليست حياتهم في الأولى إلا حياة الأنعام وأضل سبيلاً ثم في العقبى النار مثوىً لهم:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾﴾:

لقد صاغ المؤمنون أنفسهم بصيغة الإنسان بالإيمان وعمل الصالحات، فساقهم الله إلى جنات، وصاغ الكفار أنفسهم بصيغة الأنعام بالتمتع والأكل مسامحين عن ضمائرهم وعقولهم فحاق بهم ما كانوا يكفرون، إذ يحسبون الحياة كل الحياة مائدة طعام وفرصة متاع دون أن يهدفوا وراءه ما يهدفه الإنسان، ولا تقوى في اقتنائه عما لا يباح، وترى لماذا النار مثوى لهم

(١) سورة الشرح، الآية: ٥.
(٢) سورة النجم، الآية: ٢٣.

وحدهم دون الأنعام وهم يتمتعون متعة الأنعام ويأكلون أكلة الأنعام؟..
ولأن الله خلق الأنعام هكذا ليصلحوا أكلاً للإنسان، فلو شعروا ما يشعره الإنسان لما رأيت منها سميناً، وأما الإنسان فقد خلقه للمعرفة والطاعة، متذرعاً كل ما في الحياة لإكمال نفسه وذويه كإنسان، فإذ لا يفقه بقلبه ولا يبصر بعينه ولا يسمع بأذنه فهو إذاً صيغة سائغة للنار: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾[1]: هم كالأنعام فيما يستهدفون من الحياة، وهم أضل من الأنعام إذ قصّروا هنا ثم النار مثوى لهم دون الأنعام، حيث محقوا كل سمات الإنسانية ومعالمها، فانسحقوا في وصمات البهيمية ومظالمها دون تعفف عن قبيح، ولا تلهف على مظلوم، فقد انضغطوا تحت وطأة الشهوة، وانهتفوا بهتاف المتعة اللذة، فأصبحوا أضل من الأنعام الهيام.

وإنها لهي موازنة جميلة دون مجاملة بين الإنسان الحيوان والحيوان، هدفاً في الحياة، وسيرة ومصيرة مهما اختلف الشكلان: إن الحياة الدنيا المتاع يعاملها المؤمن كمتاع يشتري به الحياة العليا، زهداً عنها، أو صرفاً لها كسبيل إلى العلا، مُبصراً بها ما وراءها فهي تُبصره، ثم الكافر يعاملها كمتعة لا متاع، يذهب طيباته اقتناعاً لمتاع الدنيا، قلباً للثمن مثمناً، مكباً على وجهه في مشيه، مبصراً إليها كنهاية المطاف فهي تُعميه! يعيش حيواناً ويموت حيواناً وأحون مما كان وأهون: ﴿وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾.

وترى كيف أن الله يدخل المؤمنين العاملين جناته هنا وكأنه لا يدخل الكافرين ناره فهم الداخلون و﴿وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾؟ علّ ذلك مهانة لهم أن لا ولاية لله لهم حتى في عقابهم وهو ولي العقاب، ثم النار ليست إلا نتيجة

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧٩.

أعمالهم عدلاً، فكأنهم يدخلونها دون إدخال وبطبيعة الحال، وأما المؤمنون فيشرفون بتشريف الله وسلام: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾[1] وأن دخول الجنة لهم فضل فوق عدل، ولا سيما بمضاعفات الثواب والكرامات!.

ثم وليست النار المثوى لهم فقط في الأخرى، فحياتهم الدنيا كذلك كلها نار وإن أبرقت وأرعدت: ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ﴾[2] إذا فـ ﴿وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ﴾ في الأولى والأخرى.

كما وأن جنات المؤمنين تعم الحياة الدنيا، مهما حرموا عن زهراتها وشهواتها ولهواتها، فإنهم عائشون مع الله، مطمئنين بالله، راضين بمرضاة الله، فبلاؤهم في سبيل الله لذة، وذلهم في مرضاة الله عزة، فهم في جنات دنيا وعقبى: ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾[3]: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾[4] مهما كانت جناتهم في الأخرى أعلى وأولى، كما النار للكفار في الأخرى أشد وأنكى!.

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ ﴿١٣﴾﴾:

القرية هي المجتمع، وليست هي محله الا مجازاً، ولقد أخرجته قريته: مشركو مكة، وهو متحسر كأنه منحسر بخروجه عن قرية الدعوة: عاصمة الرسالة، فليس إخراج زعيم الدعوة عن العاصمة هيناً يتحمل، إلا بما يطمئن الله وقد طمأنه - وعله - حين إخراجه[5]. إن الله سوف يهلك الكافرين في

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٧٣.
(٢) سورة طه، الآية: ١٢٤.
(٣) سورة يونس، الآية: ٦٤.
(٤) سورة غافر، الآية: ٥١.
(٥) فقد روي أنها نزلت في الطريق بين مكة والمدينة في أثناء رحلة الإخراج والهجرة وهي قريبة من حيث الموقع والظرف.

العاصمة بما يعدك من الفتح المبين، كما وأهلك مَن قبلهم كقوم فرعون وعاد وثمود، وهم أشدُّ من هذه القرية ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ هؤلاء وهؤلاء، ولا مولى لهم يلي أمرهم في كفرهم، فلا بد لهم أن يذهبوا هلكى عجالة أم إجالة، وقد هلك الكفر بأهله عن مكة المكرمة فلم يبق فيها ولا مشرك واحد!.

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾﴾:

ترى - والميزان ميزان الله - أن الفريقين على سواء في ذلك الميزان؟ ظلماً أو جهلاً أو عجزاً عن الموازنة العدل!. فالمؤمنون الصالحون الذين هم على بينة من ربهم: آية واضحة تدلهم إلى ربهم وعلى ما يتوجب لهم وجاه ربهم، آية الوحي البينة لهم بآيات معجزات، وآية العقل النابه التي تفرض عليهم تصديق البينات، وآية النصر من ربهم.. ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ هكذا ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ الذين كفروا وزين لهم الشيطان أعمالهم فضلوا عن السبيل وهم يحسبون أنهم مهتدون ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم﴾ فلم يتبعوا بينة من ربهم: عقولهم وآيات ربهم وإنما أهواؤهم الهاوية، وميولهم الغاوية، أهما على سواء في ميزان العقل والعدل؟ إنهم يختلفون حالاً وبالاً ومنهجاً واتجاهاً، مهما اتفقوا في شاكلة الإنسانية الظاهرة، فأولاء أنعام وهؤلاء إنسان!، ومهما خفيت هنا الحال فسوف تظهر هناك يوم تنقلب الأحوال:

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾:

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾ لا وصفها الواقع، وانما مثلٌ مِن وصفها: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ

(١) سورة السجدة، الآية: ١٧.

﴿مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ﴾[1] فالجنة - وحتى الجسمانية منها - هي أرفع وأعلى من أن يستوصفها الإنسان وهو في الحياة الدنيا، اللهم إلا لمن هم في الحياة العليا وهم في الدنيا، وأما المتقون ككل فلا يدركون هنا إلا مثل الجنة التي وعدوا ومنه: الأنهار الأربعة من الطف ما يشرب ومن كل الثمرات مما يؤكل ومغفرة من ربهم وهي أرفع وأعلى فإنه رضوان من الله: ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ﴾[2].

﴿فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ﴾ آية وحيدة بين آي الأنهار في الجنة، الواصفة لمياهها بـ﴿غَيۡرِ ءَاسِنٖ﴾: لا يتغير بطول المكوث، ولا نجد عندنا هكذا ماء، اللهم إلا ماء زمزم لحد مَّا، فهو مثَل للماء غير الآسن في أنهار الجنة[3] فليست الآخرة دار تغير، وإنما هي دار خلود، ولا سيما بجناتها بأهليها ورزقها، فالجنة بتمامها غير آسنة، حتى وبالنسبة للبنها، وطبيعة اللبن أن يتغير لفترة قليلة!:

﴿وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ﴾: خلاف البان الدنيا وحتى إذا عالجتها لتبقى، في ثلاجات أم ماذا، فإنها تفقد البعض من خواصها وطعمها وقد تسمم! ولم يذكر اللبن في القرآن إلا هنا للأخرى وإلا أخرى للأولى: ﴿نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا﴾[4] وعلّه لأنه ألطف ما يشرب بعد الماء وأقربه للتغير، فإذ لا يتغير لبن الجنة فغيره أولى بعدم الغيار.

وإذا كان الماء شراباً يروي، فاللبن يطعم كما يروي، وفيه الكثير من الخواص المنبثة في مختلف الأكُل.

﴿وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾: إنها لذة الأبدان والعقول، وليست ذلة للعقول، فإنها لا تخمر العقول وتحجبها، وإنما تخمر بقايا الجهل والخمول

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٧٢.
(٢) وكما نقل الكثيرون وجربنا أن ماء زمزم لا يتغير ولو طال في مكان مكشوف طوال سنين!.
(٣) سورة النحل، الآية: ٦٦.

عن ذكر الله، فـ لا ﴿فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾(١) لا يهلك ولا ينزع العقل: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾(٢) ولا فيها صداع الرأس، خلاف خمر الدنيا، فهي لا تحمل من خمر الدنيا إلا اسما(٣) ثم هي ﴿لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾: في العقل والروح، في المنظر والطعم، في الجسم والصحة: ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾(٤).

﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾: خالص عن كل أذىً: من شمع أو رغوة أو قذى، أو لذعة من نحلة أم ماذا؟ مما يوجد في عسل الدنيا مصفى وغير مصفّى،، فأين ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ من عسل في الدنيا الذي لا تحصل على قليل منه إلّا بكثير من تعب وأذىً؟! ترى بينهما من البون لحد لا يكاد يسمى ما في الدنيا عسلاً، وإنما ﴿شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾(٥) ثم ولا يوجد عسل في القرآن إلا هنا للجنة ﴿مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾!.

ويا لها من طراوة ونضارة أن تجري هذه الأنهار الأربعة في جنة المتقين دونما انقطاع ولا عزوب:

﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أنضرها وأطراها وأبقاها.

ثم وأكبر من كل ذلك: ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ هي جنة رضوان ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ﴾(٦) ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾(٧) هو أكبر من

---

(١) سورة الصافات، الآية: ٤٧.
(٢) سورة الواقعة، الآية: ١٩.
(٣) راجع الفرقان حول الآية ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ﴾ [المطففين: ٢٥] وسورة الواقعة حول الآية ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾ [الواقعة: ١٩].
(٤) سورة الطور، الآية: ٢٣.
(٥) سورة النحل، الآية: ٦٩.
(٦) سورة الحديد، الآية: ٢٠.
(٧) سورة التوبة، الآية: ٧٢.

﴿جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٍۚ...﴾[١].

فجنة المغفرة الرضوان هي أكبر الجنات، يكتفي بها أهل الله المخلصين ولو لم تكن وراءها جنات، وهم القلة القليلة من عباد الله، ولذلك تأتي قليلاً في آيات الجنات، الكثيرة في ذكريات سائر الجنات.

﴿كَمَنۡ هُوَ خَٰلِدٞ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا﴾؟

ترى كيف تمثّل الجنة التي وعد المتقون - في استفهام إنكاري هكذا - بـ ﴿كَمَنۡ هُوَ خَٰلِدٞ فِي ٱلنَّارِ﴾ لا بالنار؟ علّه لأن المتقين هم الجنة والطاغون هم النار، جنة في جنة ونار في نار، أو أن استفهام التماثل هنا يعم الجنة بالنار وأهل الجنة بأهل النار، فذكرت الجنة أولاً: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ﴾ ولأنها من فضل الله، ثم أهل الجنة ﴿ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ إذ يدخلونها بفضل الله، فهي هي الأصل وهم الفروع، ثم ذكر أهل النار ثانياً ﴿كَمَنۡ هُوَ خَٰلِدٞ﴾ ثم النار: ﴿فِي ٱلنَّارِ﴾ لأنهم هم وقود النار وأصلها، فالنار هي الفرع!.

وترى ما هذا الماء الحميم الذي يسقونه فيقطع أمعاءهم ولماذا يشربونه؟

إنه الحار لدرجة الحِمّة القِمّة في الحرارة: أن لو كان حديداً لذاب سائلاً، وهو الصديد: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسۡقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ﴾[٢] يصد عنهم رمق الحياة وما هم بأموات! وكالمهل: دردي الزيت المغلي: ﴿وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا﴾[٣] فكأنهم إذ يُسقون الحميم الصديد مستغيثين من العطش المهلك، يرون أنه ماءٌ يخفف

(١) سورة التوبة، الآية: ٧٢.
(٢) سورة إبراهيم، الآية: ١٦.
(٣) سورة الكهف، الآية: ٢٩.

الوطأة فيشربونه، أو لا يملكون لأنفسهم عنه صرفاً فيتركونه، ولو يكرهونه[١] ولكنه ماءٌ في الظاهر وبلاء في الأثر: يشوي الوجوه إذ تواجهه، ويقطع الأمعاء إذ يدخلها!

وهم بعد إذ قطّع الماء أمعاءهم يبدلون أمعاء غيرها ليذوقوا العذاب و﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾[٢] شيء: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾[٣] وهي جلود الأرواح: الأبدان بما ظهر منها وما بطن.



(١) مجمع البيان روى أبو أمامة عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٦] قال:
يقرب إليه فيكرهه فإذا دنى منه شوى وجهه ووقع فروة رأسه فإذا شرب قطع أمعاءه حتى يخرج من دبره يقول الله عز وجل: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمّد: ١٥].
(٢) سورة فاطر، الآية: ٣٦.
(٣) سورة النساء، الآية: ٥٦.

۞ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ

وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (٣٠) وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ (٣١) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ (٣٢)﴾

جولة مع المنافقين بعد جولة الكافرين، وإذا كان أولاء في النار فهؤلاء في الدرك الأسفل من النار، بما توجه منهم إلى الإسلام والمسلمين من أخطار، فالله يستعرض - فيما يستعرض - كيدهم وميدهم، ولكي يحظرهم المسلمون ويحذروهم فتبقى كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٦)﴾:

﴿وَمِنْهُم﴾: من الكافرين، دون المؤمنين إذ وصفوا بأوصاف تخصهم دون المنافقين؟

﴿مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ دون أن يستمعوا قولك كـ ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾[1] وإنما ﴿إِلَيْكَ﴾ بعيدين عنك وعن وحي الرسالة رغم أنهم عندك، فـ «إلى» هنا توحي بالبعد، وأنهم صم في استماعهم: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾[2] فهم صاغون كحيوان، صماً عن صوغ الإنسان! فإذا استمعوا إليك ليس إلا هزءاً أو تجسساً!

﴿حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ﴾ بعدما استمعوا إليك ﴿قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ باستماعهم ووعيهم قولك ﴿مَاذَا قَالَ آنِفًا﴾؟: قبل حين، كأنهم لم يسمعوه

(١) سورة الزمر، الآية: ١٨.
(٢) سورة يونس، الآية: ٤٢.

رغم أنهم استمعوا إليه، وإنما لم يفقهوه، لـ ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾[1] وهم يسألون الذين أوتوا العلم (ماذا قال آنفاً)؟ تعريضاً أننا ما نفقه ما يقول لأنه فارغ عن أي معنى معقول، كأضرابهم: ﴿قَالُوا۟ يَـٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾[2] أو تحريضاً للعالمين تعنتاً: لو يحمل معنى فعلمونا! والرسول لم يسطع أن يسمعهم!: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ﴾[3] أو توهيناً لمقال الرسول: لو كان مقالاً عالياً لحفظناه إذا استمعنا إليه، لكننا نسيناه بعد حين لأنه كلام مهين، وما حجتهم في قولتهم الخواء إلا استكبارهم عن الحق والله منهم براء.

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ طبع الله أن تركهم في طغيانهم يعمهون وفي غيهم يسرحون ويمرحون، وكفى انقطاع الهداية الإلهية لاستمرار الطبع فازدياده: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾[4] فطبعه - إذاً - ترك هدايته!.

﴿وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾ قبل أن يطبع الله فاستحقوا طبعاً من الله، وبعد أن طبع الله فازدادوا اتباعاً لأهوائهم[5]، فهم يعيشون انطباع قلوبهم ما هم يتبعون أهواءهم.

وكما اتّباع الأهواء يستهوي زيادة الطبع، كذلك الاهتداء يتبع زيادة الهدى وأحرى:

﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾:

هؤلاء الأكارم زادهم الله هدى بما زادهم اهتداءهم، كما آتاهم

(١) سورة الشعراء، الآية: ٢١٢.
(٢) سورة هود، الآية: ٩١.
(٣) سورة يونس، الآية: ٤٢.
(٤) سورة الصف، الآية: ٥.
(٥) فالجملة - إذاً - حالية بواو الحال: طبع الله على قلوبهم حال أنهم اتبعوا أهواءهم.

تقواهم، بما آتاهم اهتداءهم بزيادة هداهم فاهتداؤهم مادة للزيادة والله فاعلها، حيث النور يجلب النور، كما النار تجلب النار، كما تقواهم مادة للزيادة والله مؤتيها.

ومن سنن الاهتداء والتقى التجاوب كما منها الزيادة لكلٍّ في نفسه، فالهدى: العلم الإيمان، والتقوى: العمل الصالح، إنهما متجاويان: كلما ازدادت الهدى زادت التقوى، وكلما ازدادت التقوى زادت الهدى، حتى يأتي دور التقوى في الأخرى إذ تبرز حقيقتها: ﴿وَءَاتَىٰهُمْ﴾ حقيقة ﴿تَقْوَىٰهُمْ﴾.

فـ آيتا التقوى تشمل الأولى كحصيلة للهدى، والأخرى كحقيقة للتقوى، هي جزاؤها بنفسها، فإن تقوى الله عن هدى علمية إيمانية هي التي تملك العاقبة الحسنى: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[1] دون الهدى الخاوية عن تقوى، أو التقوى الخالية عن هدى، وإنما صدفة عمياء، أو تقليد على الأعمى اللهم إلا فضلاً من ربك لو مات على هذه التقوى!.

﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾﴾:

ماذا ينتظرون ولكي يؤمنوا إلا الساعة ولا تأتي إلا بغتة، أو أشراطها فقد جاءت، فإذا جاءت الساعة التي هي واقع ذكراهم ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾؟ ﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾[2] اذكرى بعد إذ حلُّوا في واقعها وقد مضت حياة الذكرى، اللهم الا تحسراً ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾[3] ثم ولا تأتي إلا بغتة دون إمهال لمجال الذكرى قبلها.

---

(١) سورة طه، الآية: ١٣٢.
(٢) سورة الفجر، الآية: ٢٣.
(٣) سورة الفجر، الآية: ٢٤.

وأما أشراطها فقد جاءت، ومتى هي أشراط الساعة ومتى جاءت وهل لها بقية باقية ننظرها؟

الأشراط جمع الشرط، وهو العلامة المشروط بها الشيء، في إمكانيته أو حتميته أو قربه، فأشراط الساعة: قيامة الإماتة والإحياء الحساب الجزاء، إنها نماذج تدل عليها من ذي قبل هي أشراط إمكانيتها أو حتميتها أو قربها، وقد جاءت في كافة صنوف البراهين! التي تثبتها في هذا المثلث البارع: إنها ممكنة ثم محتومة ثم وهي قريبة، بأدلة وأشراط عقلية وحسية وسمعية، فنحن - إذاً - نعيش أشراط الساعة في أجواء الرسالات الإلهية بالآيات الأنفسية والآفاقية!

فمن أشراط امكانيتها إحياء عديد من الموتى طيات الزمن الرسالي تبكيتاً وتسكيتاً لناكري الحياة بعد الموت، كما ومنها حياة أموات أخرى، نباتية وسواها: هي تترى ليل نهار ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[1].

ومن آيات حتميتها علم الله وعدله وقدرته على جزاء الظالمين، فإذ لا يجازيهم كاملة في الأولى فلا بدّ من حياة أخرى لتجزى كل نفس بما تسعى، وإلا فربنا سبحانه وتعالى إما ظالم على علمه وقدرته، أو عاجز على عدله وعلمه، أو جاهل على عدله وقدرته، أم ماذا مما يمس من كرامة ربوبيته!

ومن آيات قربها انشقاق القمر ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢﴾[2]. . . فانشقاق القمر آية لقرب الساعة كما هو آية لنبي الساعة!

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٣٩.

(٢) سورة القمر، الآيتان: ١، ٢.

كما ونبي الساعة، وعلى حد قوله ﷺ: «أنا والساعة كهاتين»: سبابته ووسطاه[١] وهو خاتم النبيين، وكتاب الساعة: القرآن العظيم، إنها من أهم أشراط الساعة التي جاءت، وكما يسمى نبي آخر الزمان، فقد ختم زمن الرسالات الإلهية المتواصلة بنبي الساعة، كما ختم الوحي بكتاب الساعة!.

هذه الرسالة الأخيرة، التي تحمل البشارة والنذارة الأخيرة هي أضخم وأعظم هذه الأشراط، إذ تنذر بقرب الأجل المضروب، الذي لم يبق منه إلا قدر الزيادة بين السبابة والوسطى، منذ بزوغ الرسالات حتى نبي الساعة، وكما الآيات في قرب الساعة تجاوبها[٢].

فهذه آيات بينات من أشراط الساعة التي جاءت إلى زمن نزول آية الأشراط ومن ثم أشراط أخرى إلى زمننا، ثم أشراط تتبعها اعتبرت كأنها جاءت لتحقق وقوعها مستقبلاً وضمن ما جاءت ماضياً، ومن التي تستقبلنا: فتح يأجوج ومأجوج: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ۝٩٦ وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾[٣]، وعلها قبل ظهور المهدي كشرط من أشراطه، كما هو من أعظم الأشراط التي تستقبل الساعة، إذ يؤسس دولة إسلامية عالمية على ضوء الكتاب والسنة الصادقة، بما تقدم هذا الشرط من أشراط أخرى وعلامات، تجدها في المفصلات[٤].

---

(١) راجع تفسير سورة القمر من هذه الموسوعة ج ٢٧ والحديث أخرجه في الدر المنثور ٦: عن أنس قال قال رسول الله ﷺ.. وأشار بالسبابة والوسطى.

(٢) ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا﴾ [الإسراء: ٥١] ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣] ﴿إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابٗا قَرِيبٗا﴾ [النبأ: ٤٠] ﴿إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا ۝٧﴾ [المعارج: ٦-٧] راجع تحقيق معنى القرب ومداه التقريبي في الجزء ٢٩ سورة المعارج.

(٣) سورة الأنبياء، الآيتان: ٩٦، ٩٧.

(٤) الدر المنثور ٦: - أخرج ابن أبي شيبة والبخاري ومسلم وابن ماجه وابن مردويه عن أبي هريرة قال: كان رسول الله ﷺ يوماً بارزاً للناس فأتاه رجل فقال: يا رسول الله ﷺ !=

فهذه وتلك من علامات الساعة وأشراطها، التي تناسبها إمكانية وتحققاً

= متى الساعة؟ فقال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل ولكن سأحدثك عن أشراطها: إذا ولدت الأمة ربتها فذاك من أشراطها، وإذا كانت الحفاة العراء وعاء الشاة رؤوس الناس فذاك من أشراطها، وإذا تطاول وعاء الغنم في البنيان فذاك من أشراطها.

وفي تفسير القمي بإسناده عن عبد الله بن عباس قال: حججنا مع رسول الله ﷺ حجة الوداع فأخذ بحلقة باب الكعبة ثم أقبل إلينا بوجهه فقال: ألا أخبركم بأشراط الساعة؟ وكان أدنى الناس منه يومئذ سلمان رحمه الله فقال: بلى يا رسول الله ﷺ! فقال: من أشراط الساعة إضاعة الصلوات واتباع الشهوات والميل مع الأهواء وتعظيم أصحاب المال وبيع الدين بالدنيا فعندها يذاب قلب المؤمن في جوفه كما يذاب الملح في الماء مما يرى من المنكر فلا يستطيع أن يغيره، قال سلمان: وإن هذا لكائن يا رسول الله ﷺ؟ قال: إي والذي نفسي بيده إن عندها يليهم أمراء جورة ووزراء فسقة وعرفاء ظلمة وأمناء خونة قال سلمان: وإن هذا لكائن يا رسول الله ﷺ؟ قال: إي والذي نفسي بيده - يا سلمان إن عندها يكون المنكر معروفاً والمعروف منكراً ويؤتمن الخائن ويخون الأمين ويصدق الكاذب ويكذب الصادق! قال سلمان: وإن هذا لكائن يا رسول الله ﷺ؟ قال: إي والذي نفسي بيده، يا سلمان! فعندها تكون إمارة النساء ومشاورة الإماء وقعود الصبيان على المنابر ويكون الكذب ظرفاً والزكاة مغرماً والفيء مغنماً ويجفو الرجل والديه ويبر صديقه ويطلع الكوكب المذنب - قال سلمان: وإن هذا لكائن يا رسول الله ﷺ؟ قال: إي والذي نفسي بيده يا سلمان! وعندها تشارك المرأة زوجها في التجارة ويكون المطر قيظاً ويغيظ الكرام غيظاً ويحتقر الرجل المعسر، فعندها تقارب الأسواق إذا قال هذا لم أبع شيئاً وقال هذا لم أربح شيئاً فلا ترى إلا ذاماً لله - قال سلمان: وإن هذا لكائن يا رسول الله ﷺ؟ قال: إي والذي نفسي بيده فعندها يليهم أقوام أن تكلموا قتلوهم وإن سكتوا استباحوهم ليستأثروا بفيئهم وليطأن حرمتهم، وليسفكن دماءهم، ولتملأن قلوبهم غلاً ورعباً فلا تراهم إلا وجلين خائفين مرهوبين قال سلمان: وإن هذا لكائن يا رسول الله ﷺ؟ قال: إي والذي نفسي بيده يا سلمان! إن عندها يؤتى بشيء من المشرق وشيء من المغرب يلون أمتي فالويل لضعفاء أمتي منهم والويل لهم من الله لا يرحمون صغيراً ولا يوقرون كبيراً ولا يخافون من مسيء، جثتهم جثة الآدميين وقلوبهم قلوب الشياطين - قال سلمان: وإن هذا لكائن يا رسول الله ﷺ؟ قال: إي والذي نفسي بيده يا سلمان! وعندها يكتفي الرجال بالرجال والنساء بالنساء ويغار على الغلمان كما يغار على الجارية في بيت أهلها وتشبه الرجال بالنساء والنساء بالرجال ويركبن ذوات الفروج السروج فعليهن من أمتي لعنة الله - قال سلمان: وإن هذا لكائن يا رسول الله ﷺ؟ فقال: =

وقرباً فلها صلات الدلالة كأدلة براهين، وإلا فما هو دور أشراط لا ترتبط

= إي والذي نفسي بيده إن عندها تزخرف المساجد كما تزخرف البيع والكنائس، وتحلى المصاحف وتطول المنارات وتكثر الصفوف والقلوب متباغضة، والسنن مختلفة - قال سلمان: وإن هذا لكائن يا رسول الله ﷺ؟ قال: إي والذي نفسي بيده يا سلمان! وعندها تحلى ذكور أمتي بالذهب ويلبس الحرير والديباج، ويتخذون جلود النمور صفاقاً - قال سلمان: وإن هذا لكائن يا رسول الله ﷺ؟ قال: إي والذي نفسي بيده يا سلمان! وعندها يظهر الزنا ويتعاملون بالغيبة والرشى ويوضع الدين وترفع الدنيا - قال سلمان: وإن هذا لكائن يا رسول الله ﷺ؟ قال: إي والذي نفسي بيده يا سلمان! وعندها يكثر الطلاق فلا يقام لله حد ولن يضروا الله شيئاً - قال سلمان: وإن هذا لكائن يا رسول الله ﷺ؟ قال: إي والذي نفسي بيده يا سلمان! وعندها تظهر القينات والمعازف ويليهم أشرار أمتي - قال سلمان: وإن هذا لكائن يا رسول الله ﷺ؟ قال: إي والذي نفسي بيده وعندها يحج أغنياء أمتي للنزهة ويحج أوساطها للتجارة ويحج فقراءهم للرياء والسمعة، فعندها يكون أقوام يتعلمون القرآن لغير الله ويتخذونه مزامير ويكون أقوام يتعلمون لغير الله وتكثر أولاد الزنا ويتغنون بالقرآن ويتهافتون بالدنيا - قال سلمان: وإن هذا لكائن يا رسول الله ﷺ؟ قال: إي والذي نفسي بيده يا سلمان! ذاك إذا انتهكت المحارم واكتسبت المآثم وتسلط الأشرار على الأخيار ويفشو الكذب وتظهر اللجاجة وتفشو الفاقة ويتباهون في اللباس ويمطرون في غير أوان المطر ويستحسنون الكوبة والمعازف وينكرون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى يكون المؤمن في ذلك الزمان أذل من الأمة ويظهر قراءهم وعبادهم فيما بينهم التلاوم فأولئك يدعون في ملكوت السماوات الأرجاس الأنجاس - قال سلمان: وإن هذا لكائن يا رسول الله ﷺ؟ قال: إي والذي نفسي بيده يا سلمان! فعندها لا يخشى الغني على الفقير حتى أن السائل يسأل فيما بين الجمعتين لا يصيب أحداً يضع في كفه شيئاً - قال سلمان: وإن هذا لكائن يا رسول الله ﷺ؟ فقال: إي والذي نفسي بيده يا سلمان! فعندها يتكلم الرويبضة - فقال سلمان: وما الرويبضة يا رسول الله ﷺ فداك أبي وأمي؟ قال ﷺ: يتكلم في أمر العامة من لم يكن يتكلم (الرويبضة لا معنى لها في اللغة، ولذلك لم يفسرها الرسول ﷺ إلا بعنوان عام «يتكلم في أمر العامة من لم يكن يتكلم» أو الذي لا يحق له التدخل في أمر الشعب، وقد تكون (رضا بهلوي) باختلاف ترتيب حروفها. فلم يلبثوا إلا قليلاً حتى تخور الأرض خورة فلا يظن كل قوم إلا أنها خارت في ناحيتهم فيمكثون ما شاء الله ثم ينكتون في مكثهم فتلقى لهم الأرض أفلاذ كبدها - قال: ذهب وفضة، ثم أومى بيده إلى الأساطين فقال: مثل هذا، فيومئذ لا ينفع ذهب ولا فضة فهذا معنى قوله: ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَاۚ﴾ [محمّد: ١٨].

بصلات عقلية أم واقعية بالساعة، اللهم إلا ادعاءات لا يقبلها ويصدقها الناكرون.

إذاً فحماقى الطغيان ماذا ينظرون؟ ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾؟ ولنفرض أنها أتتهم فماذا يستفيدون! أيستفيقون من غفوتهم؟ ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾ بواقعه وهم ناكروه قبل واقعه! فإن ذكر الساعة قبلها بأشراطها هي التي تفيدهم، دون ذكراها بنفسها إذا أتت ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾؟ فلات حين ذكرى مناص وخلاص، وإنما ذكرى تباب وعقاب.

أم ينظرون قبلها دلالاتها الأشراط، ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ التي لا قبل لها فلماذا لا يؤمنون؟!.

﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾:

توجيه إلى الدعامة الأولى التي تتبنى الدعوة الإسلامية منذ بزوغها وعلى طول الخط، تفريعاً على كل ما مضى من ولاية الله للمؤمنين وأن الكافرين لا مولى لهم ﴿فَٱعْلَمْ﴾: ثباتاً على ما علمت وعرفت، ثم زيادة في العلم والمعرفة: «إنه»: الشأن كله، وشأنك كله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فضمير الشأن توحي بحصره في سبيل الدعوة في علم التوحيد، الذي يشمل الروح كلها، ويشغل العقل والصدر والقلب والفؤاد واللب كلها، ثم يتخطاها إلى واقع الحياة الرسالية كلها، دون أن يجمد على المسالك ويثبت على قول ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أو الإيمان به دون علم، أو العلم به دون إيمان، وإنما العلم اليقين ثم عين اليقين بما لكل من درجات، وهي كلها مندرجات في ﴿فَٱعْلَمْ...﴾: العلم المطلق لا مطلق العلم، وإنما المطلق الذي يمازج روح الإنسان بجوانحها، ثم يظهر في جسم الإنسان بجوارحه، ويا لكلمة التوحيد من

براعة ويراعة، فأولها خالص الكفر: ﴿لَآ إِلَٰهَ﴾ وآخرها خالص الإيمان: ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾![1].

فلا تعني «فاعلم» أنه كان جاهلاً بالتوحيد قبل الأمر، ولأن العلم لا يحصل بالأمر، ولولا العلم بحقه لم ينزل عليه الوحي: «فاعلم» وسواه، وإنما تعني فيما تعني الثبات والزيادة بأسبابها.

﴿فَٱعْلَمْ. . .﴾ وتزود بهذا العلم البارع في سبيلك الغوغاء والشوكاء ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾.

وترى هل أذنب الرسول ﷺ في حياته الرسالية أو قبلها ذنب العصيان حتى يؤمر بطلب الغفران؟

في الحق إن الذنب لا يعني العصيان أياً كان ومن أي كان، وإنما هو ذنب الفعل وتبعته الصعبة وعقباه الخطرة، في الدنيا أو الآخرة، فذنب الآخرة هو العصيان الذي ذنبه العذاب، وذنب الدنيا هو الدعوة إلى الله الذي ذنبه دوائر السوء من الطغاة المعارضين للدعاة، إذ يتربصون الدوائر بأصحاب الدعوة الإلهية هتكاً وفتكاً وطرداً وقتلاً، وكلما كانت الدعوة أثقل فذنبها التبعة أعضل، فالاستغفار عنه أشكل: أن يطلب الغفر والستر عما يعرقل الدعوة أو يفتك بالداعية، كما غفر الله ذنب محمد بما فتح مكة: إن حسم مواد الشرك والضلالة فانحسمت عنه عرقلات الدعوة.

فلكل نبي أو صاحب دعوة إلهية تبعة عبر الدعوة هي ذنبه لمعارضيه، كما كان لآل فرعون على موسى: ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾[2] وما

---

(١) علل الشرايع للصدوق بإسناده إلى ابن شبرمة عن جعفر بن محمد ﷺ قال لأبي حنيفة: أخبرني عن كلمة أولها شرك وآخرها إيمان؟ قال: لا أدري! قال: هي ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩] أولها كفر وآخرها إيمان.

(٢) سورة الشعراء، الآية: ١٤.

ذنبه لهم إلا قتله القبطي المقاتل للإسرائيلي ولا يحرم وكز الكافر المقاتل دفاعاً عن المؤمن القاتل ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ﴾[١]: إن صادف قتله.

فالذنب منه طاعة ومنه معصية، ففريق في الجنة وفريق في السعير، دون ما يزعمه الكافرون الذين يتشبثون بآيات الذنب كهذه فيهتكون حرمات المرسلين: إنهم عاصون، ولا ما يخيل إلى سواهم زعم العصيان فيأخذون في تأويلاتهم وتوجيهاتهم يمنة ويسرة، بكل تعسف وعسرة، ولكي يذودوا عن ساحة الرسول، ما القرآن ينسبه إليه من عصيان!.

فعبثاً يحاول هؤلاء وهؤلاء تفسير الذنب أو تأويله، إلا أن يثوبوا إلى ما يعنيه في الأصل فيتوب الكافرون، ويعلم المؤمنون أنه بالنسبة للمرسلين من أعظم الطاعات، فالرسالة ذنب، والدعوة إلى الله ذنب، والجهاد في سبيل الله ذنب: فإنها تخلف دوائر السوء، وأذناب العراقيل ممن يعارضون دين الله، فأصحاب الدعوة هم بحاجة إلى الاستغفار من ذنوبهم: أن يطلبوا غفر الله وستره على ما تستقبل دعواتهم من أخطار، تحسم أصول الدعوة، وتحطم الداعية، أن يستغفروا الله بعد أن يعلموا أن لا إله إلا الله: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ﴾:

والمتقلب هو التقلب الانتقال وزمان الانتقال ومكانه، كما المثوى هو الاستقرار في هذا المثلث: انقلاباً في زمان أو مكان:

من متقلب النطف من الأصلاب والترائب إلى الأرحام، ومنها إلى الحياة الثانية الدنيا - وفيها من يقظة إلى نوم، ثم ويقظة من حركات النصب: المعايش إلى مثاوي الاستقرار: المنازل - ثم من الحياة الدنيا جملة إلى البرزخ بمتقلباتها ومثاويها، ثم منها جملة إلى الحياة الأخرى:

---

(١) سورة القصص، الآية: ١٨.

المثوى التي لا بعدها مثوى، بما فيها من متقلبات الحساب سهلة وصعبة إلى مثاوي الجزاء: إلى نار أم جنة المأوى.

فكل مثوى هنا وهناك متقلب كما كل متقلب مثوى، إلا المثوى الأخرى في نار الخلود أم جنة المأوى:

فلأن ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ﴾ في حياة التكليف الإيمانية، وفي حياة الجزاء، إنها متقلب الإيمان ومثواه، أنَّ زادكم في سيركم إلى الله - ومعكم رسول الله - هو العلم: ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فهو هو القادر على غفر ذنوبكم أياً كان: من ذنب عصيان رفعاً بعد حصوله، أو دفعاً كيلا يحصل، أم ذنب طاعة تستتبع دوائر السوء من حماقى الطغيان، أم إغانة على قلوبكم من صحبة لهم، غفراً في هذا المربع من الذنوب التي يشارككم فيها الرسول إلا ذنوب العصيان اللهم إلا دفعا عن وصمة العصيان، عصمة إلهية للرسول.

ولأن اتصال الرسول ﷺ بهؤلاء الطغاة المعارضين وصحبته لهم عبر الدعوة، إن في ذلك تبعات بطبيعة الحال تعاكس على قلبه المنير فيغان على قلبه، فليستغفر ربه ليزيل عنه وصمات هذه التبعات، مهما كانت عبر الدعوة في واجب الرسالة، فالاشتغال بخلق الله، ولا سيما من يحادون الله، إنه انشغال عن الخلوة بالله، وإن كان ذلك بأمر من الله، فليستغفر الله عن هذا الذنب الطاعة ثانية، كما يستغفر عن ذنب الرسالة، ولقد صح عن الرسول ﷺ قوله: «إنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله كل يوم مائة مرة»[1]، فهل إنه عن مائة عصياناً، ولا يبتلي به أفسق الفساق فكيف بأول العابدين؟!.

فلا يغين على قلبه ما يَرِينُ عليه من عصيان، بل هو مما يضيق على

(١) أخرجه في الدر المنثور عن جماعة عن الأغر المزني قال قال رسول الله ﷺ.

صدره من خلطه الرسالي بحماقى الطغيان، فيستغفر الله أن يزيل عن قلبه المنير إثر الإغانة فيخلو بربه كما كان.

هذا، ثم وتزيد أمته عليه ذنباً هو اللمم أو العصيان، فاستغفاره للمؤمنين يشمله كما يشمل ذنبي الرسالة، فاستغفاره له ولهم في هذا المثلث يتحد في رفع وإزالة التبعات بعد حصول الذنب أياً كان، ثم هنا رابع هو الدفع ولمّا يحصل، أن يذود الله عنه وعن المؤمنين وصمات الذنب العصيان، عصمة له وتأييداً لهم ألا يذنبوا هكذا، وكما نجده كثيراً في آيات الاستغفار عن الذنوب[١].

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾﴾:

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وهم المؤمنون غير المنافقين، حيث النفاق يباين الإيمان، مهما كان للإيمان درجات قد يتسرب إلى بعضها الشرك الخفي: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[٢]، فـ ﴿ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ هنا هم من المؤمنين، إذ لا مجال للمنافقين أن يدخلوا في زمرة المؤمنين، ولا لأدنى درجات الإيمان، حيث المفاصلة بين الإيمان والنفاق لا تناسب أية مواصلة، بخلاف الإسلام الذي يجمع كتلة الإيمان وكتلة النفاق، مهما أخرج الكفر.

﴿وَيَقُولُ . . . لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ ترى أنه نزول أية سورة؟ وقد نزلت قبل هذه السورة سور كالمكية كلها، والمدنية عديد منها!

أو أنها السورة المحكمة التي لا تقبل التأويل؟ فكذلك الأمر، حيث

---

(١) تفصيل البحث عن مراحل ومصاديق الذنب تجده في سورة الفتح إن شاء الله تعالى.
(٢) سورة يوسف، الآية: ١٠٦.

الأكثرية الساحقة من المكية محكمات، أو في الكثير من آياتها وكفى، كما المدنية النازلة قبل القتال!

أو أنها السورة المحكمة المذكور فيها القتال كسورة القتال؟ إنهم قالوا قبل نزولها: ﴿لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ بشأن القتال، تشوقاً إلى النضال، وبعد إذ كانوا محرومين عن النزال في ساحات القتال، في معارك المجد والكرامة، طيلة العهد بمكة، حتى إذا استقروا في المدينة..: قالوا مقالتهم هذه، فريق عن جدّ الإيمان على سلامة من قلوبهم، وفريق على ضعف الإيمان ومرض في قلوبهم!

﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ﴾ وهي سورة: القتال - رأيت:

﴿رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ مرض النفاق والشقاق، من غير المؤمنين، ممن لم يقولوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ ومن المؤمنين الضعفاء، الذين في قلوبهم مرض الخوف والتخاذل، ولمّا يستقر جوهر الإيمان في قلوبهم، ولما يستكن الإيمان في أعماقهم، وأما سائر المؤمنين الأقوياء فهم يتحينون الفرص لخوض المعارك في سبيل الله، ويلتمسون قتالاً في الله ليل نهار!.

﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ ... رَأَيْتَ ... يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾: إنهم خائفون لحد الهلعِ، لا يتجملون بحياء أمام الخطر الحادق بالمسلمين، ولا يتحملون أذى في سبيل الله والحفاظ على كرامتهم كمؤمنين، وكأنهم أخذتهم غشية الموت وغفوة الفوت، فلا حياة لمن تنادي منهم، ولا حياة لمن نادوا بنزول سورة القتال، ولا وفاء لمن وعدوا خوض النضال، ثم ولا إيمان أصلاً للمنافقين إذ لم يشاركوا وحتى ضعفاء الإيمان في نزول سورة القتال! ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾:

أولى للمنافقين نفاقهم هذا من وفاقهم، وكأنهم خلقوا للنفاق، فلا

يرجى منهم أي وفاق: و«أولى لهم» من هذه الفضيحة العار، ومن هذا الخور البوار ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾! أن يتركوا النفاق إلى الوفاق، كما لأبي جهل في كفره: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٥﴾﴾[1] أن يترك الكفر إلى الإيمان، أم يبقى على كفره كأنه خلق للنار!

ثم وأولى للمؤمنين الذين قالوا لولا نزلت سورة، ولكنهم كذبوا - ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾:

﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾:

طاعة لله إذا أنزلت سورة تحمل فرض القتال أم ماذا، وقول معروف صادق: ترجّياً لنزول سورة القتال صادقين كسائر المؤمنين، أم قولاً صادقاً سواه إذ ليسوا من أنفسهم آمنين أن يثبتوا على هذه المقالة ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾: كما أولى للمؤمنين الصادقين إيمانهم في قولهم ﴿لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ فلما نزلت صدقوا الله! فأولى لفريقي المؤمنين وقسمي الكافرين ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ من الفضيحة العار، لكلّ حسب شأنه المؤمن أو الشائن[2].

﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾:

فإذا عزم أمر القتال كواقع مفروض، وبعد أن أنزلت سورة القتال دون ترجِّيهم كذباً وزوراً أو غروراً، فهناك الامتحان الامتهان لمن لم يصدق في مقاله ﴿لَوْلَا نُزِّلَتْ﴾ والامتحان الناجح لمن صدقوا الله: ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ﴾

---

(١) سورة القيامة، الآيتان: ٣٤، ٣٥.

(٢) هذه المحتملات - وكلها صحيحها تتحملها الآية - تدور حول رجوع ضمير الغائب في ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمّد: ٢٠] إلى فريقي المؤمنين، المعنيين بقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وإلى الكفار والمنافقين - ثم ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ مبتدأ خبره طاعة وقول معروف - أو خبر مبتدأ محذوف كـ «هذا» أولى لهم - وإذ احتملت الآية معاني عدة لا تنافر بينها وكلها سليمة - فلا ضير أن تكون كلها معنية، وكما ترونه في اسلوبنا في هذا التفسير.

بخوضهم المعركة بعد إذ عزم أمر القتال ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ من خوض الترجي الخواء في المقال، فعند الامتحان يُكرم المرء أو يُهان، وعند تقلب الأحوال يعرف جواهر الرجال!.

وترى كيف ينسب العزم هنا إلى الأمر، وليس إلا توطين النفس على الأمر، ولا نفسَ للأمر - أيّ أمر؟.

إنه بلاغ وبلوغ في العزم على الأمر، وكأن الأمر هو العازم في نفسه، ويا له من بلاغة رائعة في التعبير عن مدى العزم.

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾﴾:

تنديد شديد بالمفسدين، منافقين أو ضعفاء من المؤمنين، حينما يتولون عن أمر الجهاد متثاقلين، وحينما يتولون أمور المسلمين[١] والمعنيان هما المتوقعان من حال المخاطبين، الذين يقولون ولا يعملون، قولاً في ترجي الجهاد: لو أنزلت سورة ذكر فيها القتال، ثم هم أولاء يخالفون، يقولون في المجالس كيت وكيت، فإذا جاء الجهاد فحيدي حياد! أم قولاً في ترجي الإصلاح أن لو تولوا أمور المسلمين فلسوف يصلحون، فقولهم قول عجاب، ثم عملهم في تباب: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾﴾[٢] فحذار حذار، يا

(١) التولي هنا يحتمل التولي «عن» من الولاء لا الولاية، فهو الإعراض عن أمر الله أو التولي «إياه» من الولاية فهو التصدي للحكم من تكلف الولاية أو تقبلها، والآية تحتملهما - مهما كان الأول أنسب معنى بمناسبة المورد، والثاني أنسب لفظاً إذ لم يتعدّ بـ «عن» فالمتبع عموم اللفظ لا خصوص المورد لو كان، فالمناسبة المعنوية لا تختص الآية بنفسها، ويؤيده ما رواه في مجمع البيان عن النبي ﷺ: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ يعني إن توليتم أمور المسلمين.

(٢) سورة البقرة، الآيات: ٢٠٤-٢٠٦.

من تتولون أمور المسلمين دونما لياقة أو لباقة، عن أن ترتجعوا إلى الجاهلية الأولى فتفسدوا في الأرض وتقطعوا الأرحام![١].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المنافقون ﴿ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾: إبعاداً عن رحمته ونعمته لمّا بدلوها كفراً ونقمة ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[٢] ﴿فَأَصَمَّهُمْ﴾ عن آذان قلوبهم، إذ لا تصلها كلمة الحق التي يسمعون بآذانهم، أم هم لا يسمعون: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾[٣] فهم صم لا يسمعون ﴿وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾: أبصار قلوبهم عن إبصارهم آيات الحق: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾[٤] فهم عميٌ لا يبصرون: يعيشون صماً وعمياناً، تولياً عن الحق وتصدياً لأمور المسلمين، وليتهم كانوا يفتحون بصائرهم وآذان قلوبهم فيتدبرون القرآن فلا يُدبرون:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾:

أم إن قلوبهم كالأبواب المقفلة، لا تنفتح لوعظ واعظ، ولا يلج فيه عذل عاذل، فالقلب المقفول، هو الغافل والمغفول عنه، وفي الحق إن أقفال القلوب هي التي تُغفلها فتُقفلها عن موارد الذكرى بالقرآن، فرغم أن القرآن ميسَّر للذكرى، فالقلوب المقلوبة المقفلة الغافلة لا تستطيع أن تتذكر بالقرآن وإنما القلوب المنفخة بالصدور المنشرحة هي التي تسكب عليها الأنوار، فتستحم بالنور فتحيى بحياة أرقى وأحيى، بأنوار معارف القرآن العظيم، إذ

---

(١) ثواب الأعمال للصدوق عن السكوني عن الصادق جعفر بن محمد عليه السلام عن أبيه عن آبائه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إذا ظهر العلم واحترز العمل وائتلفت الألسن واختلفت القلوب وتقاطعت الأرحام هنالك لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم.

(٢) سورة الصف، الآية: ٥.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٩.

(٤) سورة الحج، الآية: ٤٦.

تحرك مشاعرها وتستجيشها فتجندها وتعسكرها لحرب الطغوى في محاريب التقوى.

فالقلوب الحية المنفتحة هي التي تتدبر القرآن، ثم تنفتح وتحيى أكثر مما كان تعاملاً بينها وبين القرآن وتجاوباً في الاستحياء بحياة أضوء وأرقى، فالقرآن حياة للقلوب «جعله الله رياً لعطش العلماء، وربيعاً لقلوب الفقهاء، ومحاجاً لطرق الصلحاء، ودواء ليس بعده داء، ونوراً ليس معه ظلمة».

والغاية القصوى لنزول القرآن تدبر آياته: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾[١]: يدبّروا فيه فيتذكروا إنه وحي خالص من الله دون خلط بسواه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾[٢]. فتدبره يثبت أنه من عند الله، ومن ثم يربط الإنسان بخالص الوحي ويخرجه من الظلمات إلى النور، ولا يعني تدبره، تصفحَ أقوال الرجال، أم كل ما يروى من قيل وقالٍ، حتى إذا لم يوجد رأي أو رواية تفسر آية وقفنا في تفسيرها حائرين، كأن القرآن ليس بياناً أم ليس فيه تبيان! مهما كان لتدبره أهلٌ خصوص، لا عامة الناس، ولا الذين يعرفون فقط لغة القرآن، وإنما الخواص الذين يعيشون القرآن حياتهم، فهم حياتهم القرآن وأخلاقهم القرآن! مهما كان لكلٍّ نصيب من معاني القرآن، وكما يروي الإمام الحسين عن أبيه علي أمير المؤمنين عليه السلام: «كتاب الله على أربعة أشياء، على العبارة والإشارة واللطائف والحقائق، فالعبارة للعوام، والإشارة للخواص، واللطائف للأولياء، والحقائق للأنبياء».

ثم التدبر في كل أمر هو الفحص عن كل دابر يلحق غابره، وعن كل غابر يلحقه دابره، أمور متجاوبة لو دبِّرت ورتبت كما يصح للحصول على المراد لحصل فهو في القرآن نضد آيات له متناظرة، كلٌّ دَبرَ بعض للحصول

(١) سورة ص، الآية: ٢٩.
(٢) سورة النساء، الآية: ٨٢.

على معنى آية يُقصد تفسيرها، وهذا تدبر التعبير التفسير، ثم يتلوه تدبر الإيمان، ولكي يأخذ الإيمان بالقرآن شغاف القلب لحد الهيَمان، ثم أخيراً تدبر العمل، أن يلحق تدبر العلم والإيمان، تدبرُ الأركان، إذاً فتدبر القرآن في صيغة جامعة يتبناه - هو: مثلث: التفهم - الإيمان - العمل، كلٌّ دبرَ بعض، كما لكلٍّ تدبر بالنسبة لمراتبه مع بعض!.

ومن ثم - وعلى غرار مثلث التدبر في القرآن فأقفال القلوب أيضاً ثلاثة: إقفال عن المعرفة، وأخرى عن الإيمان بعد المعرفة، وثالثة تُقفل الإيمانَ العرفانَ عن التجلي في عمل الأركان، وهو الأصل المعني بالتدبر في القرآن[١]، فهذه أركان الإقفال على القلوب، التي تحرمها عن المعرفة، ثم عن الإيمان، ثم عن العمل، أو عن الازدياد في كل مرحلة من هذه الثلاث، أو أن يتخطى كل سابق إلى لاحقه.

فالقلب - بمفرده - بين أعضاء الروح محطة إذاعة واستذاعة، تستذيع من العقل والصدر فيطمئن بالإيمان فيعقل ما أخذه عنهما: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾[٢] ومن ثم تذيع - ما أخذته في جر الأعمال، فـ«القلوب أئمة العقول، والعقول أئمة الأفكار، والأفكار أئمة الحواس. والحواس أئمة الأعضاء»[٣].

ومن أقفال المعرفة صمم القلب وعماه ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾[٤] ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾[٥] [٦].

---

(١) رواه في المجمع عن أبي عبد الله وأبي الحسن عليهما السلام في الآية أنهما قرآه فقالا: فيقضون ما عليهم من الحق.

(٢) سورة الحج، الآية: ٤٦.

(٣) عن الإمام الصادق عليه السلام - رواه في بحار الأنوار.

(٤) سورة الحج، الآية: ٤٦.

(٥) سورة الأنعام، الآية: ٢٥.

(٦) محاسن البرقي عن الإمام الصادق عليه السلام: إن لك قلباً ومسامع، وإن الله إذا أراد أن يهدي=

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾:

والارتداد على الأدبار: إلى الجاهلية الأولى، وبعد تبين الهدى، إنه من مخلفات عدم التدبر في القرآن بأقفال القلوب، بما سول لهم وأملى الشيطان! ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ...﴾[1]! فهناك شيطان من خارج يسول ويملي، وآخر من داخل يتسول ويتملى ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى﴾[2] متعاملين في تسويل الإنسان: تزييناً تحرض عليه النفس أن يصور لها القبيح حسناً والحسن قبيحاً، ثم في إملائها: مداً في غيِّها المسوّل لها، وتطويلاً في آمالها، خطوات حسيسات في خطيئات لحدّ انهيار الإنسان في النار: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾! رغم أنهم لم يكونوا بذلك البعيدين عن الهدى، فقد ارتدوا على أدبارهم من بعدما تبين لهم الهدى، وإنما انجرفوا بما جرفوهم، وانحرفوا بما حرفوهم، ابتداءً من بعض الأمر وانتهاءً إلى كل الأمر! فأصبحوا كفاراً كالكفار:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾﴾:

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾﴾[3] السورة.

فإسرارهم لطاعتهم في بعض الأمر يوحي بإصرارهم لهؤلاء المذبذبين أن يطيعوهم في كل الأمر، ولكنهم وعدوهم إسراراً: ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ

= عبداً فتح مسامع قلبه، وإذا أراد به غير ذلك ختم مسامع قلبه فلا يصلح أبداً وهو قول الله عزوجل: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمّد: ٢٤].

(١) سورة النحل، الآية: ٩٨.

(٢) سورة طه، الآية: ٩٦.

(٣) سورة محمد، الآيتان: ٨، ٩.

﴿ٱلْأَمْرِ﴾ ولماذا في بعض الأمر؟ عله لأن طاعتهم في كل الأمر تكشف النقاب عن نفاقهم، فلا يقدرون على التجسس لصالح الكفار، ثم هم واقعون في محاظير الكفر وجاه الدولة الإسلامية، حارمين أنفسهم عن عوائد الإسلام الاستسلام، وعن دوائر السوء التي يتربصون بها على الإسلام، أو أنهم انحرفوا حالاً في بعض الأمر، فلا يطيعونهم إذاً في كل الأمر، فإن دركات الكفر هي تلو بعض حتى تجرف بالإنسان إلى شفا جرف هار: أن يطيعوهم في كل الأمر.

والذين كرهوا ما نزل الله، يعم المشركين وسائر الكفار لا سيما اليهود، إذ كانوا يتوقعون أن تكون الرسالة الأخيرة فيهم، مؤولين البشارات بحق محمد الإسماعيلي إلى نبي إسرائيلي، فلما اختار الله آخر رسله من بني إسماعيل - لا إسرائيل - كرهوا رسالته وما أنزل الله عليه، ومن قبل كانوا كارهين لما أنزل الله على أنبيائه بحقه فاستنوا سنة التأويل والتجديل، وشنوا على الرسول ﷺ حرب الدس والمكيدة، بعد ما عجزوا عن مجاهرته مناصبة العداء: عن حرب التنكيل، وضموا إليهم كل منافق وحانق، وكل ضعيف الإيمان، فأطاعوهم في بعض الأمر، ومن ثم في كل الأمر، ولكنهم كلَّ أمرهم في إمرهم إذ أجلاهم الرسول ﷺ عن الجزيرة في آخر الأمر، ومعهم المشركون أجمع.

﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾﴾:

هؤلاء التابعون، وكما المتبوعون الكافرون: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾[1]. ويا لها من مأساة، ضربُ الوجوه التي اتجهوا بها إلى غير الله، والأدبار التي ارتدوا عليها عن دين الله، وهم في مستهل الحياة الأخرى، في اللحظة

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٥٠.

الأخيرة من الحياة الدنيا، ففي حالة الاحتضار الاحتقار تستقبلهم هكذا الإنذار ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾.

فلأن الحياة بعد الموت برزخية، فليس لهم إلّا ذوق العذاب، في: حفرة من حُفَر النيران[١] لا كل الحفر ولا كل العذاب.

وإذا كان ذوق العذاب، يستقبله ضرب الوجوه والأدبار، إذاً فماذا يكون أصل العذاب!

والتوفي هنا أخذ الأرواح بأجسادها الأصيلة لها، التي عاشتها حياة التكليف، فالملائكة القابضة للأرواح - وعلى رأسهم مدير شؤون الأموات: ملك الموت - هم يتوفون الأموات: أخذاً وافياً دون أي فوت أو انفلات، في أيٍّ من جزءي الأموات: أرواحاً وأجساداً، فلا تضل عنهم مهما ضلت عن سائر الخلق: ﴿وَقَالُوٓا أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ... قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ...﴾[٢].

وهم حينما يتوفونهم يضربون الوجوه والأدبار، فضرب الوجوه، مواجهة لهم حين الاحتضار بعذاب الاحتقار، وضرب الأدبار التي تعودت الإدبار عن الحق، ولأنهم حين يتوفون لا يُخرجون أنفسهم عن الحياة الدنيا بملاذها، فلا يطاوعون المخرجين، فالملائكة - إذاً - يضربون أدبارهم قائلين: أخرجوا أنفسكم: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾[٣].

---

(١) كما في الحديث: القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران، والبحث عن الحياة البرزخية تجده في محالها الأنسب طيات آياتها كآية الأنفال.

(٢) سورة السجدة، الآيتان: ١٠، ١١.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ٩٣.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾:

فإذ لا أعمال لهم صالحة إلّا حابطة، فما لهم - إذاً - إلّا طالحة كالحة، فما لهم حينما يستقدمون الموت، وإلى الحياة الحساب، إلا ضرب الوجوه والأدبار، ومن ثم ذوق عذاب النار، فإنهم عاشوا حياة مركوسة معكوسة سلباً وإيجاباً، فأوجبوا سخط الله حيث اتبعوا ما أسخط الله، وسلبوا رضوان الله إذ كرهوا رضوانه، معجبين بهذه الحياة البائسة بما سوّل لهم الشيطان وأملى لهم.

«ومن طلب مرضاة الناس بما أسخط الله تعالى كان حامده من الناس ذاماً، ومن آثر طاعة الله تعالى بما يغضب الناس كفاه الله تعالى عداوة كل عدو وحسد كل حاسد وبغي كل باغ وكان الله له ناصراً وظهيراً»[1].

ولأن الله سبحانه وتعالى لا يحول من حال إلى حال، وليست له أيةُ حال على أيةِ حال، فإنه لا يتغير بانغيار الأحوال، فلا يعني - إذاً - سخطه ورضوانه تغيرَ حال، وإنما ما يناسب ساحته القدسية كعقابه وثوابه[2]، كما هو كذلك في كل ما يصف به ذاته من صفات وأفعال.

---

(١) أصول الكافي - العدة بإسناده عن جابر عن أبي عبد الله عليه السلام قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: والقمي في التفسير عنه عليه السلام قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: من أرضى سلطاناً بسخط الله خرج عن دين الإسلام.

(٢) التوحيد للصدوق بإسناده إلى هشام بن الحكم أن رجلاً سأل أبا عبد الله عليه السلام عن الله تبارك وتعالى له رضى وسخط؟ قال: نعم - وليس ذلك على ما يوجد من المخلوقين، وذلك أن الرضا والغضب دخال يدخل عليه فينقله من حال إلى حال معتمل، مركب للأشياء فيه مدخل، وخالقنا لا مدخل للأشياء فيه، واحد أحدي الذات وأحدي المعنى، فرضاه ثوابه وسخطه عقابه من غير شيء يتداخله فيهيجه وينقله من حال إلى حال، فإن ذلك صفة المخلوقين العاجزين المحتاجين، وهو تبارك وتعالى القوي العزيز، لا حاجة به إلى شيء مما خلق، وخلقه جميعاً محتاجون اليه، إنما خلق الأشياء من غير حاجة ولا سبب اختراعاً وابتداعاً.

أفحسب هؤلاء الحماقى المرضى أعمالهم، شطارة ومهارة وأنهم السابقون؟ أم:

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَـٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَـٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَـٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾﴾:

أم حسب مرضى القلوب، ممن أسلم استسلاماً ونفاقاً، ومن آمن ثم نافق، أم حسبوا أن الله لا يعلم نفاقهم، أم لا يقدر على إخراج أضغانهم: وأحقادهم ضد الإسلام ودعوته، فـ﴿لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَـٰنَهُمْ﴾ وأنها توحي لمكان ﴿لَّن﴾ باستحالةٍ مّا لإخراج أحقادهم، فلذلك تراهم مصرين على النفاق، مسرين النفاق كأن الله لا يعلم أعمالهم ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَـٰلَكُمْ﴾:

ومعرفة المنافقين على ضروب شتى: كأن يُعرفوا بِسيماهم: بسمات في وجوههم، يعرفهم كل ناظر إليهم، ولكنما الدنيا دار ابتلاء وبلاء، فلا تبلى فيها السرائر، وإنما هي الآخرة: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَـٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾[1] أن يبدو الإجرام ظاهرة باهرة، لا تخفى منها خافية، فلم تجر سنة الله في الأولى على تعريف المجرمين، منافقين أم كافرين، بما يَسِمهم في سيماهم، ولكي يتم الابتلاء الامتحان: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَـٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَـٰهُمْ﴾ - فإن «لو» توحي أنه لن يريهم رسوله هنا فضلاً عن سواه، بسمات في سيماهم.

إلا أن هناك معرفة أخرى حتمية تحتاج إلى كياسة وفطانة - والمؤمن ينظر بنور الله - وهي المعرفة في لحن القول، وانحرافه عن جادة الصواب، بما فيه من غمز ولمز، إمالة للقول عن استقامة الدلالة، وإحالة له في نبرات، وظهوره في فلتات، فما أضمر إنسان أمراً إلا وقد يظهر في

(١) سورة الرحمن، الآية: ٤١.

صفحات وجهه وفلتات لسانه: فالعاقل هو الذي يعرف الناس في لحن القول[١] و«المرء مخبو تحت لسانه»[٢]: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ . . . وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾: مؤمنين ومنافقين.

ثم هنالك معرفة ثالثة بغير سيماهم ولحن القول، هي أحيانية، بما يرى الله ويريه، والمنافقون منها حذرون: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾[٣] وهي كسورة المنافقين وآيات أمثالها تفضح المنافقين، كسنة أحيانية غير دائمة، وإنما تتبع موارد الضرورة.

فمهما خفيت الزاوية الأولى من مثلث هذه المعرفة، إحالة لها إلى الآخرة، ففي الثانية كفاية لمن يعرفون من لحن القول، وفي الثالثة تتميم لما تفلت عن الثانية من لحن في غير القول، مما يرجع إلى غيوب القلوب، فيظهره علام الغيوب لرسوله الكريم، حفاظاً على كيان الدعوة والداعية، ولكي تعيها أذن واعية، يخرج الله بعض أضغانهم من مخارج لحن القول في كل حين، وبعضاً من مخارج سواه بعض حين، ولكي تُعبَّد جادة الرسالة الجادة، فيُعبد الله عبادة جادة.

فاللحن المؤذن بالنفاق ليس ليختص بالقول، فهناك ملامح من ألحان أخرى كلحن الفعل أو الإشارة أم ماذا؟ ومن ثم مقاييس أخرى يقاس عليها الناس، وكما يروى «ما كنا نعرف المنافقين على عهد رسول الله ﷺ إلا

---

(١) التوحيد للصدوق بإسناده إلى أبي عبيدة عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال لي: يا أبا عبيدة! خالقوا الناس بأخلاقهم وزايلوهم بأعمالهم، إنا لا نعد الرجل فينا عاقلاً حتى يعرف في لحن القول ثم قرأ هذه الآية ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمّد: ٣٠].

(٢) أمالي الطوسي بإسناده إلى علي عليه السلام أنه قال: قلت أربع أنزل الله تصديقي بها في كتابه: قلت المرء مخبو تحت لسانه فإذا تكلم ظهر فأنزل الله ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمّد: ٣٠].

(٣) سورة التوبة، الآية: ٦٤.

ببغض علي بن أبي طالب عليه السلام [(١)] فقد يوافقون الرسول صلى الله عليه وآله وسلم حسب الظاهر ثم ينافقونه ببغضِ كيانه الثاني، ونسخته الكاملة علي عليه السلام، فلا يجمع حب محمد الحبيب وبغض من هو استمرار لكيانه، حاملاً دعوته، متخلقاً بأخلاقه وهو باب مدينة علمه!

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ۝٣١﴾:

سنة حتمية تربوية إلهية هي بلوى المؤمنين، امتحاناً دون امتهان، اختباراً لنفوسهم في معتركات البلايا والرزايا في سبيل الله: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ ومن ثم اختباراً لأعمالهم التي تخبر عن نفوسهم كإذاعات خارجية: ﴿وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾.

و﴿نَعْلَمَ﴾ هنا كما في نظائرها[(٢)] هي من العَلْم: العلامة، لا العِلْم المعرفة، فالله لا تخفى عليه خافية، فإنه عليم بما في الصدور قبل أن تصدرها كأخبار، وإنه يعلم السر وأخفى، فكيف تخفى عليه السريرة وما دونها فيبلوهم لكي يعلم! وإنما هو عَلَمٌ: أن يجعل بالبلوى: جهاداً وسواه - علامة على النفوس المجاهدة الصابرة المثابرة، بما تجاهد وتصبر وتصابر، وعلامة الأخبار الأفعال، فإنها علامات النفوس، فيعرفها الكيِّسون

---

(١) الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال: «ما كنا نعرف المنافقين على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلا ببغض علي بن أبي طالب».
وفي المجمع عن أبي سعيد الخدري قال: لحن القول بغضهم علي بن أبي طالب عليه السلام قال: كنا نعرف المنافقين على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ببغضهم علي بن أبي طالب. ومثله عن جابر بن عبد الله الأنصاري. وعن عبادة بن الصامت قال: كنا نبور أولادنا بحب علي بن أبي طالب فإذا رأينا أحدهم لا يحبه علمنا أنه لغير رشده، قال أنس: ما خفي منافق على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد هذه الآية.

(٢) نجدها في أحد عشر موضعاً في القرآن، لم تأت في أحدها موجهاً على مفعولين، والعلم يتعلق دائماً بمفعولين، فليس إلا علماً - من علم يعلم علماً وعلامة - لا علم يعلم علماً، يدل على ذلك وحدة المفعول وأدلة الآيات والعقول، وغم أنه لم يذهب إليه أحد فيما أعلم، فكم ترك الأول للآخر!.

من حق القول وحق الفعل، كما يعرف المنافقون من لحن القول ولحن الفعل، وكما يناسب دار الابتلاء.

هذا: دون العِلم عن الجهل وحاشاه، فإنه هُراء! ودون العلم الفعلي أم ماذا فإنه تكلف وتعسف وكلام الله منه براء لأنه بيان للناس وهدى ونور، وهو حمال ذو وجوه، فاحملوه على أحسن الوجوه: فـ ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾: نجعل علامة لـ ﴿ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ ومنها أخباركم: الأعمال الجهادية الصابرة التي تخبر عن طيبة نفوسكم: ﴿وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾: حتى نعلم.. وحتى نبلو أخباركم(١)، فبلوى المؤمنين ذريعة لعلامة الإيمان، ولبلوى أخبار الإيمان، فلا تظهر أخبار الإيمان إلا في تقلب الأحوال، وعند تقلب الأحوال تعرف جواهر الرجال، وعند الامتحان يكرم المرء أو يهان، فالابتلاء بالبأساء والضراء، وبالسعة والنعماء، وما إلى ذلك من كرب وبلاء، إنها تكشف عما هو مخبوء في معادن النفوس، مجهول لسائر النفوس، بل ولأصحابها أيضاً، فإن حب الشيء يعمي ويصم، ومن ثم تتكشف لها ما خفي عنها أنفسها وقبل أن تظهر أخبارها كما تتكشف لغيرها بعد أن تُبلى أخبارها، فكل بلوى تخلف عَلمين: علامتين، واحدة سراً لذوات الصدور، وأخرى جهراً لسائر الناس: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ . . . وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾!.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾﴾:

وهذا من أنحس الكفر، إن الذي تبين له الهدى يخالفها إلى الهوى، لحد يكفر بها، ويصد الناس عنها، ويشاقق الرسول فيها، أن يختار هو شقاً

(١) فـ «نبلو» مفتوحة بالعطف على المجاهدين، فهما إذاً مقصودان في ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ [محمّد: ٣١] فالعلامة هنا منها خفية هي علامة الإيمان في القلب، ومنها ظاهرة هي علامة أخبار الجهاد والصبر، فبلوى هذه الأخبار هي من ﴿نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ. . .﴾ [محمّد: ٣١] ولكي تظهر علامة الإيمان الخفي، بمن يعلم السر وأخفى.

يضاد شق الرسول: ثالوث الكفر العناد العتاد، الذي لا فوقه كفر، وهو يعم من أهل الكتاب من آمن ثم ارتد هكذا، أم لم يؤمن من بعد ما تبين له الهدى، وكذلك المشركين، ولا سيما الذين آمنوا منهم ثم ارتدوا، أم أسلموا نفاقاً ثم برزوا كافرين، كذلك والمسلمين، ممن ولد مسلماً وسواه، ثم ارتد، فصيغة الآية جامعة لمن ركز قواعد حياته الشريرة على هذا الثالوث الجامح به العناد العتاد، وترى أنهم ينفعهم أعمالهم شيئاً، أم هم يضرون الله شيئاً؟ كلا: فـ ﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ إيحاء إلى استحالة زمنية وذاتية أن ينضرَّ الله بأضرارهم ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾[1] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾[2] بل ولن يضروا المؤمنين أيضاً إلا أذى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾[3] ﴿وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾: شريرة في الصد والشقاق في الأولى، فلا يؤثران في إطفاء نور الله، أم وخيرة - لو صح التعبير عما يعملون من خير - في الأخرى، فأعمالهم بالية خواء، والله تعالى منهم براء.

وهنا يطمئن المؤمنون بنصر الله، فلا يخافون ولا ألد الكفار مهما ثاروا في كفرهم وفاروا، فهم أضأل وأضعف من أن يلحقوا ضرراً بالله، بل الله هو الذي يلحق بهم ضرر الإحباط، مهما أبرقوا وأرعدوا ضد الدعوة والداعية، آذوا الرسول والمؤمنين فترة من الزمن، فالعاقبة للمتقين، وحتى الأولى في نصرة رب العالمين: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾[4].

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٤٤.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٧٧.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١١١.
(٤) سورة غافر، الآية: ٥١.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾﴾:

إنه ليس الكفر بالله ومشاقة رسول الله بالذي يحبط فقط أعمال الكافرين، بل وكذلك المؤمنين التاركين لطاعة الله ورسوله، رغم إيمانهم بالله ورسوله، أنهم تبطل أعمالهم، فما من شجرة يغرسها الإيمان بالله ورسوله، إلا ويحرقها ترك طاعة الله ورسوله[1] وإنما الإيمان مع الطاعة هو المصلح المصحح للأعمال.

---

(١) ثواب الأعمال للصدوق عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من قال: سبحان الله غرس الله له بها شجرة في الجنة، ومن قال: الحمد لله غرس الله له بها شجرة في الجنة، ومن قال: لا إله إلا الله غرس الله له بها شجرة في الجنة، ومن قال: الله أكبر غرس الله له بها شجرة في الجنة، فقال رجل من قريش: يا رسول الله! إن شجرنا في الجنة لكثير؟! قال: نعم، ولكن إياكم أن ترسلوا عليها نيراناً فتحرقوها وذلك أن الله عز وجل يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٣].

وإنها طاعة الله كأصل وفي القمة، ومن ثم طاعة رسول الله كفرع وعلى الهامش، فإنها طاعته كرسول وسفير صادق عن الله، لا كمحمد بن عبد الله، ولذلك عبر عنه بـ «الرسول» ولذلك فصل طاعته عن طاعة الرسول: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ لا «والرسول» حتى لا يظن أنهما على سواء وفي ردف واحد، وإنما ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ فيما يفعل بوحي ويقول كرسول، ومن ثم ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[1] لأنه كما يقول: ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾[2]!.

وطاعة الله هي في اتباع محكم كتابه، وطاعة الرسول في سنته الثابتة، الجامعة غير المفرقة، الموافقة لكتاب الله، فمن زعم أنه يطيع الله، قائلاً: حسبنا كتاب الله، ثم يترك سنة رسول الله ﷺ فقد أبطل أعماله، ومن يزعم أنه يطيع رسول الله ﷺ، اتباعاً لما يروى عنه مهما خالف كتاب الله، فقد أبطل أعماله، وإنما طاعة الله في كتابه كأصل، وطاعة رسول الله ﷺ في سنته كفرع شارح غير جامح، هما الأساسان لا سواهما، في اتباع دين الله!.

وترى ما هي الأعمال التي تبطل بترك طاعة الله وطاعة الرسول؟ طبعاً إنها الأعمال التي لها صحة ولها بطلان، بموافقة الكتاب والسنة أم مخالفتهما، سواء أكانت عبادية أم ماذا!.

فالطاعة في الواجب إيجابه وتطبيقه، وفي الحرام تحريمه وتركه، وفي المباح إباحته، وفي المندوب الانتداب إليه، وفي المكروه كراهته، فمن يأتي بواجب بغير نية الوجوب، من استحباب أو كراهية أو إباحة أم حرمة! فقد أبطله، وهو أضل ممن لم يفعله، فتجاوب الإيمان والنية والعمل مع الكتاب والسنة، أنه لزام صحة العمل - فـ «لا قول إلا بعمل، ولا قول ولا عمل إلا بنية، ولا قول ولا عمل ولا نية إلا بإصابة السنة»[3]: سنة الله ورسوله ﷺ.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٨٠.
(٢) سورة النساء، الآية: ١٠٥.
(٣) وسائل الشيعة عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام.

فمن أتى بواجب على شروطه ولكنه رئاء الناس فقد أبطل، حيث لم يطع الله في نية العمل: ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾(١).

وترى أن البطلان طابع الأعمال التي يؤتى بها دون الطاعة - فقط - أم وأنها تبطل بقية الأعمال التي تؤتى على وجوهها من الطاعة المصححة؟ كأنها هي الأولى كضابطة عامة، ومن ثم الأعمال التي تربطها رباط الشرط والمشروط أم ماذا، كمن يأتي بوضوء فاسد، ثم يأتي بصلاة على شروطها إلا الطهارة، فباطل الوضوء يبطل الصلاة، أو يقال إنها صلاة متخلفة عن الطاعة في الطهارة، فلا تبطل الأعمال الطالحة إلا أنفسها، كما الصالحة تصلح أنفسها، فالأعمال التي يؤتى بها طاعة لله وللرسول صحيحة وسواها باطلة حابطة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾﴾:

قد تدق المغفرة أبواب بعض الكفار، غير المشركين، من الذين كفروا جهلاً وقصوراً، فلم يصدوا عن سبيل الله وماتوا وهم كافرون، وبأحرى المسلمين ذوي الكبائر كل على حدوده وشروطه، ولكنها وباب التوبة مغلقة على الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم، ولا سيما من بعد ما تبين لهم الهدى، اللهم إلا أن يتوبوا قبل أن يموتوا، فالفرصة متاحة قبله، وأما إذا بلغت التراقي فلا رجعة، فلا توبة ولا ثوبة ﴿فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾.

﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾﴾:

.. زمن مبكر من العهد المدني، والمسلمون فيه مبكرون من العهد الإسلامي المكي الذي لم يؤمروا فيه بحرب، فطبعاً تستثقل جماعة منهم

(١) سورة غافر، الآية: ١٤.

تكاليف الجهاد الطائل، فتهن عزائمهم، راغبين في الهدنة السلم، لحدٍّ قد يجنحون إليه، فتتهدم قواعد القدرة والشوكة الإسلامية، إلى ذلة شائكة استسلامية! فهنالك النهي التهديد عن الدعوة إلى السلم وهناً، مضمناً أسباب نجاحهم بمثلث: العلو الإيماني، والمعية المنتصرة الإلهية، وثواب الأعمال المستمر، فلا دعوة للسلم إذاً، وإنما قبول لها ككرامة إنسانية من العدو إن جنح للسلم: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾[١].

«فـ» إذ طمأنكم ربكم بنجاحكم عاجلاً وآجلاً، وبإحباط أعمال الكافرين فيهما «لا تهنوا» عن الحرب في معارك الشرف والكرامة، في سبيل الله، في سبيل صالح الكيان الإنساني الإسلامي، الفردي والجماعي، ومن أذل وأرذل مظاهر الوهن حال رديئة خائبة: ﴿وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ﴾[٢] فلا تدعوا إليه دعوة ذليلة لعدوكم كأنه غالب عزيز والحرب لمَّا تحتدم، أم احتدمت، كما ومن الوهن ترك ابتغاء القوم: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ﴾[٣] ومنه الوهن لما يصيب المحارب في سبيل الله فيفشل فيفر من الزحف أم ماذا ﴿فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[٤].

لا تهنوا هنا وهناك وكيف تهنون ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[٥]: أنتم المؤمنون الأعلون: علو العقيدة الإيمان وعلو التصميم، علواً في تفهم الحياة وغايتها وصلتها

(١) سورة الأنفال، الآية: ٦١.
(٢) الجملة معطوفة على «فلا تهنوا» عطف على المنهي فيقتضي لاء النهي كما في المعطوف عليه - ولا تدعوا إلى السلم.
(٣) سورة النساء، الآية: ١٠٤.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٤٦.
(٥) سورة آل عمران، الآية: ١٣٩.

بالعقيدة وبالعلي الأعلى، علواً في الأولى وفي الأخرى، فيما يصمد العزم ويقوي الحزم، علواً وحتى إذا قتلتم في سبيل الله إذ تتصل أرواحكم بالملإ الأعلى..

﴿... فَلَا تَهِنُوا ... وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ معية خاصة تختلف عن سواكم: كـ ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[1] لا - وإنما معية الهداية والنصرة والعزة فالغلبة في أيٍّ من أشكالها: قاتلين أو مقتولين!

فلنفرض أنه قتل في المعركة من قتل، أو انهزمتم، فالحرب سجال وامتحان، وليس انهزامكم انهزام الامتهان! ثم ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ لن يقطعكم أعمالكم[2] لا الأعمال الجهادية، فإنه يجازيكم بها خير الجزاء، فليست هي مبتولة الجزاء، ولا سواها من خير تبغونه لو بقيتم أحياء، فلئن قتلتم لن يقطعكم الله هذه الأعمال، فإنه بمنه وفضله يكتبها لكم دون أن تعملوها، فيكفيكم أن تأملوها ففاجأكم القتل فلم تعملوها.

فلم تنقطع عنكم خير الحياة بانقطاع الحياة، فإنما انقطع عنكم شرها، ثم كتب لكم خيرها ولم تعملوها، وكتب لكم بالجهاد خير الجزاء، فأنتم أنتم الأعلون لا من الكافرين فحسب، بل ومن سائر المؤمنين أيضاً!.

فـ «لن» هنا في ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ لها موقعها لا سيما للقتلى في سبيل الله، لن تجد مثلها في غيرها، فإنها تحيل - بفضل الله - انقطاع الصالحات عن قتلى الأموات، بانقطاع الحياة: إن الله سوف يكتب لهم حسنات، وعلّه إلى يوم القيامة، فإن «لن» للاستحالة المقتضية استغراق الزمان منذ القتل إلى انقضاء الزمان في الأولى، ثم الله ينمي تلكم الصالحات في الأخرى.

---

(١) سورة الحديد، الآية: ٤.

(٢) يتركم من «وتر يتر» وأصله القطع، ولن يقطعكم أعمالكم بعد انقطاع الحياة، أم إذا بقيتم لن يقطعكم سائر الصالحات المنوية لولا الجهاد.

ثم المقاتلون الذين لم يقتلوا، هم كذلك ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾: الأعمال الصالحة التي تركت مغبة الجهاد، ومن ثم - وعلّها أيضاً - الصالحات المتروكة بعد الممات، فإنها لم تنقطع عنهم، بعد الجهاد الاستماتة، فالجهاد في سبيل الله مما يخلد المجاهد في حياة الصالحات، وبعد أن قتل أو مات، ولأنه باذل حياته لله، فينصبغ بصبغة الله، ويخلد صالحاً وإن قتل أو مات، ولكنما القتلى لهم حظوتهم، إذ يبعدون بالقتل عن شرور الحياة وتضمن لهم خيراتها!.

فعلى المسلم العاقل النابه أن يجنح للقتال في سبيل الله وهو في مثلث النجاح والفلاح: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ - وَٱللَّهُ مَعَكُمْ - وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ ولتكن مقالته للكافرين: ﴿هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ﴾[1]!.

﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾﴾:

هناك حياة جهاد في سبيل الدنيا اللعب اللهو، وهنا حياة جهاد في سبيل الله، تبديل الحياة الدنيا بالحياة العليا، تجارة مربحة لن تبور، فاتركوا الدنيا إلى العليا: إيماناً وتقوى بأجورهما، ﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾ فيما يؤتي أجوركم، إنما إيمانكم وتقواكم، سؤالاً لصالحكم في الدارين.

وهذه الأجور الغالية في الأخرى تقتضي سؤال كل الأموال أن تصرف في سبيل الله، ولكنه ﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾ كل أموالكم - ولأنه:

﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾﴾:

﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا﴾ كلها ﴿فَيُحْفِكُمْ﴾: يجهدكم ويحملكم مشقة البذل

(١) سورة التوبة، الآية: ٥٢.

ككلٍّ، مغبة ذلك الأجر، ﴿تَبْخَلُوا۟﴾ عن ذلك الإنفاق الإجهاد «و» من ثم ﴿وَيُخْرِجْ﴾ الله ﴿أَضْغَٰنَكُمْ﴾ أحقادكم خلاف أمر الله، بما يخرجها ببخلكم عن إنفاقها كلها في سبيل الله[1] ولكن الله لا يريد إحفاءكم فتفضحوا، حكمة منه وفضلاً ورحمة، فإن أحكامه تتماشى مع الفطرة، دون أن تتمادى على الفطرة، وهي تتناسق مع أنظمة الحياة ومناهجها وقواعدها، فإنها إنسانية الطاقة ورحمانية الإناقة العملاقة، ولكي تربي الإنسان بتكاليف دون الطاقة.

﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾:

﴿هَٰٓأَنتُمْ﴾ المؤمنون المتقون! انتبهوا - تركنا سؤال جميع أموالكم إلى بعضها: ﴿تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟﴾ من فضلها الزائد عن ضرورات الحياة ﴿فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ﴾ ومنكم من لا يبخل ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ لا عن الله، ولا عن عباد الله - فإنه يقطع عن نفسه رصيد الإنفاق، الذي ينفعه يوم لا ينفع مال ولا بنون، ومن قبل ينفعه في إزالة الأشواك عن صراط الإيمان، تعبيداً للسبيل إلى الله بإبادة أو تسكيت أعداء الله، وتبديداً لأشواك البخل عن البذل، فإنما يبخل البخيل أرصدة كهذه الغالية الكريمة عن نفسه، دون الله - فـ ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ﴾ لا سواه ﴿وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ دون الله، فهو إذ يسألكم إنفاقاً في سبيل الله، ليس لفقره إليكم، فإنما سبيل الله هي سبيل صالح الحياة، التي ليست إلا من الله، فلماذا البخل إذاً وفيمَ؟ وعمّاذا البخل إذاً؟ أبخلاً من مال الله وفي سبيل الله: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾[2] فها أنتم أنتم الفقراء، ليست

(١) ففاعل «يخرج» هو الله، وهو البخل - فالله لا يخرج أحقادهم إلا ببخلهم الظاهر عند سؤال كل الأموال.

(٢) سورة الحديد، الآية: ٧.

أموالُكم أموالَكم، وإنما أنتم مستخلفون فيها امتحاناً، فلا تبخلوا عنها امتهاناً.

﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا﴾ عن الإيمان، أو التقوى في الإيمان، أو الإنفاق في سبيل التقوى الإيمان[1] ﴿يَسْتَبْدِلْ﴾ الله بكم ﴿قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ والمخاطبون هنا في العهد المبكر المدني هم المسلمون العرب، فـ ﴿قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ علهم مسلمون من غير العرب، وكما يروى عن نبي العجم والعرب من قوله ﷺ: «والذي نفسي بيده لو كان الإيمان منوطاً بالثريا لتناوله رجال من فارس»[2].

﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا﴾ هؤلاء الأغيار الأبرار ﴿أَمْثَٰلَكُم﴾ في التولي الإدبار عن الإنفاق وأمثاله في سبيل الله، وكما هو اليوم ملموس في المسلمين الفرس، رغم الضغوط المتواردة عليهم من السلطات، فإنفاقاتهم - وحدهم - في سبيل إعلاء كلمة الله، تربو إنفاقات سائر المسلمين، وسوف يكون الأكثر نصرة لتأسيس الدولة الإسلامية زمن القائم المهدي عليه السلام هم رجال من فارس كما يدل عليه الأثر، واقعاً وحديثاً.

وإنها لنذارة رهيبة ختام سورة القتال، تنذر من يتولى من المسلمين العرب عن حكم الله، باستبدالهم بغيرهم، وكما فعل، أو لعلّ، كما وأنذر الله بني إسرائيل بسحق ملكهم، وانتقاله إلى سواهم وكما فعل بنقل الشريعة

---

(١) التولي هنا راجع إلى ما ذكر في الآيتين من الإيمان والتقوى والإنفاق.

(٢) الدر المنثور ٦: - أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد والترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني في الأوسط والبيهقي في الدلائل عن أبي هريرة قال: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمّد: ٣٨] فقالوا: يا رسول الله ﷺ! من هؤلاء الذين إن تولينا استبدلوا بنا؟ فضرب رسول الله ﷺ على منكب سلمان ثم قال: هذا وقومه - والذي نفسي بيده لو كان الإيمان منوطاً بالثريا لتناوله رجال من فارس.
أقول: ويشير إليه بعض ما ورد عن أئمة أهل البيت عليهم السلام.

عنهم إلى بني إسماعيل، ولكنما هذه الشريعة هي خاتمة الشرائع فلا تبدَّل، وإنما يستبدل من يحملها ويتحمل أعباءَها ويتولاها، بمن لا يحملها ويتولى عنها، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى!.

